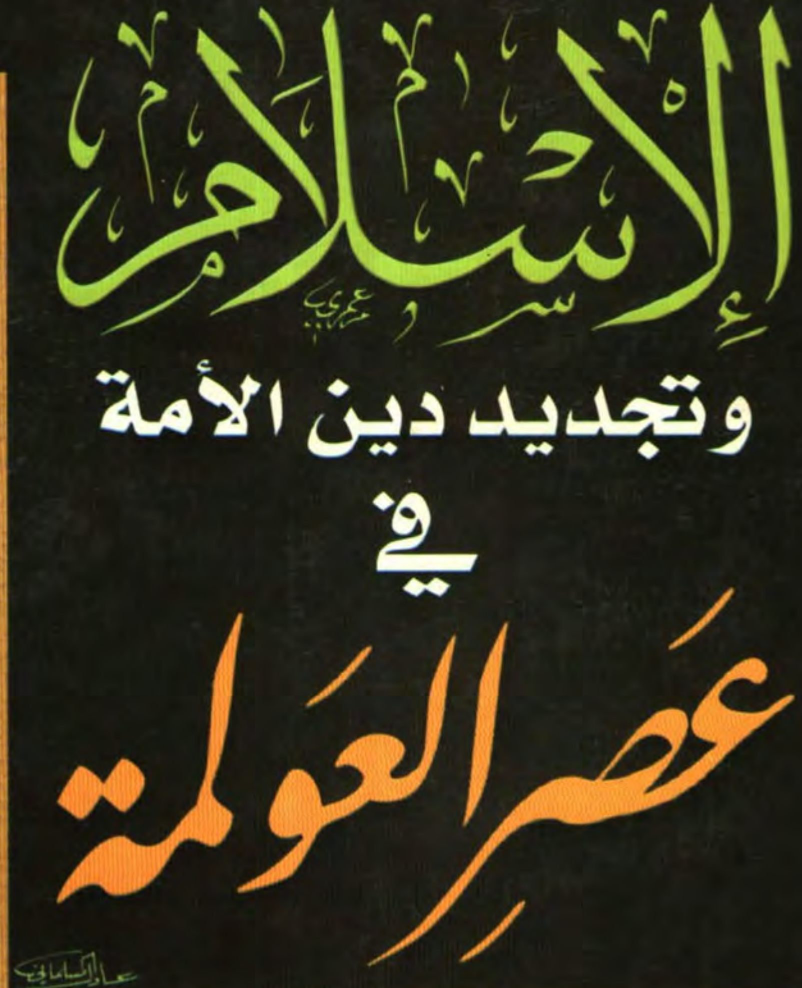


الإسلام
وتجديد دين الأمة في عصر العولمة

فايز عزيز محمد أسماعيل

دار الإيمان
الإسكندرية


الإسلام
وتجديد دين الأمة في
عصر العولمة

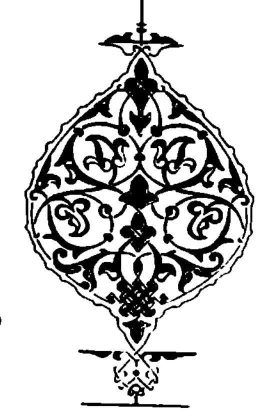




الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٨٨٢٢

الترقيم الدولي
977-331-447-2



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com



وتجديد دين الأمة

في

عصر العولمة

إعداد

فايز عزيز محمد إسماعيل

عفا الله عنه

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع




بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

الحمد لله رب العالمين الأول،بلا ابتداء،والآخر بلا انتهاء ، الذي أخرج عباده من الظلمات إلى النور بشريعة تسمو بها الأرواح ، وتنشرح بها الصدور ، أوحاها على خير خلقه ﷺ إلى خير أمة أخرجت للناس،والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، الذي اصطفاه لرسالته، وابتعثه بوحيه رحمة للعالمين إلى يوم الدين . أما بعد :

خطة البحث :

إن الهدف من هذا البحث التأكيد على عالمية الإسلام وصلاحيته لكافة البشر في كل زمان ومكان ، وأنه رسالة الله الأخيرة إلى العالمين دونما تمركز ، أو انحصار في بقعة جغرافية أو تجمع حضاري بعينه ، وأن الإسلام تصوير إلهي كامل ، ونسيج رباني يناسب كل العصور والبيئات،محفوظ بحفظ الله ـ عز وجل ـ .

ونبدأ في المقدمة بالتساؤل عن الأسباب التي أدت إلى اختراق العلمانية ، وما نتج عنها من فكر للمجتمعات الإسلامية عامة والعربية بشكل خاص في العصر الحديث ، ثم نحاول التأريخ للأسباب الحقيقية لبداية انحراف الأمة عن أمر دينها ، وذلك كتمهيد ضروري لموضوع البحث حول تجديد دين الأمة الإسلامية في عصر العولمة .

● وينطلق البحث في الفصل الأول من المراد من مفهوم تجديد دين الأمة الإسلامية ، وإضافة مفهوم جديد لمعنى تجديد دين الأمة الإسلامية ، ثم نتناول ضوابط هذا التجديد ، والذي لم يتوقف في تاريخ الأمة الإسلامية ، وإن اختلف من عصر إلى عصر ، إلا أنه يأخذ شكلاً مختلفا خلال العصر الحديث ـ عصر العولمة الشاملة ـ ،ومرحلة التطبيق العملي لعالمية الإسلام بالمعني الواسع للكلمة .

❁ ويتناول الفصل الثاني مجالات التجديد ، وأنها تشمل كل أمور الدنيا ، والآخرة ، ثم نستعرض بعض مجالات التجديد ، خلال عصرنا الحديث وهي :

- تجديد الفقه الإسلامي .
- تجديد الخطاب الإسلامي .
- تجديد التاريخ الإسلامي .

❁ ويتناول الفصل الثالث نقاش تفصيلي للمفاهيم الخاطئة والادعاءات الكاذبة حول تجديد دين الأمة الإسلامية ؛ لكشف مؤامرات المغرضين والحاقدين من أعداء الإسلام ؛ ولتنبيه من قد يختلط عليه الأمر من المسلمين ؛ وذلك بشرح هذه المفاهيم ، وكشف زيفها وكذب أصحابها وهي :

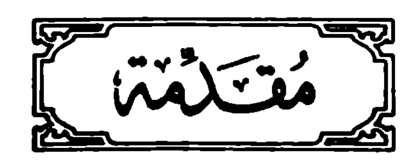
- النقد التاريخي للقرآن الكريم .
- العصرانية والحداثة ، ونماذج حداثية للقطيعة مع الموروث .
- دعوى التنوير الأوروبي .
- مركسة الإسلام .
- الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام .
- دعوى أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع الإسلامي .

ويتناول الفصل الرابع تجديد دين الأمة في الماضي والحاضر،من خلال استعراض لنماذج متنوعة لبعض المجددين، وما قاموا به من تجديد تجاه دين الأمة الإسلامية ؛ يساعد على إيضاح مفهوم وحقيقة تجديد دين الأمة، وأنه من كمال الدين الإسلامي، ويساعد كافة المسلمين على التمييز بين رواد الفكر الإسلامي الحقيقيين، وبين هؤلاء الذين يضمرون العداء للإسلام ، وكشف مايقومون به من خلط وافتراءات ، لأننا عندما نسعي الآن لبعث الحركة الإسلامية ؛ لابد أن نستوفي البحث في ماهية عمل التجديد ، وأن نعود إلى تاريخنا الماضي فننظر ما

هو مبلغ العمل الذي قام به أئمتنا وهداتنا في القرون الماضية المتعددة ، وأي منهج للعمل اختاروا ، وإلى أي حد نستطيع أن نستفيد من أعمالهم الجليلة ، وما يجب علينا اليوم لما يستجد من أمور خاصة بهذا العصر الذي نعيشه .

❁ وننهي البحث في الفصل الخامس بالحديث عن أهمية تجديد دين الأمة الإسلامية في عصر العولمة الشاملة وأثره على الأمة الإسلامية ، ونشر دعوة الإسلام ، بل وأثره على البشرية جمعاء ، وضرورة تذويب المسلمين لكل خلافاتهم التاريخية والتمسك بثوابت الإسلام ، ورفض البدع ، والتوحد حول الغاية التي ابتعثنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أجلها ، ولا شك أن المسلمين مسئولون عنها يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة . ١٤٣] .





مُقَدِّمَة

عند محاولتنا البحث في أمر تجديد دين الأمة الإسلامية فإن البدء الصحيح لهذا الموضوع يقودنا لأن نتساءل ونسأل أنفسنا لماذا انتقلت إلينا العلمانية ، وكل ما تولد عنها من أفكار ، وكيف اخترقت مجتمعاتنا الإسلامية واحتلت مكاناً فيها ؟ ولابد أن تكون الإجابات عميقة ومفصلة ، فمجتمعاتنا لم تتشابه مطلقاً مع أوروبا في العصور الوسطى ، كما لا توجد سلطة دينية ، أومحاكم تفتيش تأمر بالحرق ، والتعذيب ، والسجن ، والتشريد ، ولايوجد لدينا ـ في الإسلام ـ حجر على القلوب ، ولا يوجد حجر على العقول . وهذا لاينكره أحد ، ويرددده كافة كتابنا ودارسينا ، وديننا محفوظ بحفظ الله سبحانه وتعالى ، ولم تعبث بثوابته يد بشرية، فلماذا انتقلت إلينا العلمانية وما نتج عنها من أفكار؟!.

● فهل انتقلت إلينا نتيجة للتطور المادي الذي وصل إليه الغرب أو الشرق الغير مسلم ؟ .

● أم انتقلت إلينا نتيجة فساد وتخلف مجتمعاتنا ؟.

● أم انتقلت نتيجة هذه الحالة الفكرية الضحلة التي وصلنا إليها ؛ ولأنها وجدت فراغا في عقولنا ، أي أننا أفرغنا الإسلام من داخلنا ، أو جزءاً كبيراً منه فتسربت إلينا العلمانية ، وملأت هذا الفراغ ؟ .

● أم أنها خطة استعمارية جديدة تستهدف الاستيلاء على ثرواتنا ؟ أم أنها خطة عدائية للإسلام والمسلمين فهي مؤامرة شاملة ؟ .

● أم هل تسللت إلينا بعد أن أجهدنا عقولنا ، وأنهكنا أنفسنا في صراع مذهبي ابتلعنا وترك فراغا في مجتمعاتنا ، كان ملائماً لأن تسكنه العلمانية ، وما ينبثق عنها من تدابير وأفكار ؟.

* أم هل جمدت عقول المسلمين وعجزت عن مقاومة هذه الهجمة العلمانية ؟ أم هو نتاج طبيعي لحكومات المسلمين في فترات سابقة ؟.

* أم تسللت العلمانية بأفكارها في عقول مجتمعاتنا نتيجة للهزيمة النفسية للمسلمين بعد هزائمها العسكرية ؟ .

* أم أن الخرافات والبدع زادت في مجتمعاتنا حتى طمست عقول المسلمين وقلوبهم تجاه ثوابتنا الإسلامية ، فخلقت جواً مناسباً للعلمانية ؟.

* أم أن هؤلاء ـ العلمانين ومن على شاكلتهم ـ على الصواب ونحن لاندري؟!.

* أم حدث ذلك لوجود الإزدواجية في مجتمعاتنا ، اي قبولنا الإسلام كعقيدة ، ورفضنا له كتشريع ؟.

* ثم كيف الخلاص والخروج من هذا التيه الذي طالت فترته الزمنية ؟ .

يجب أن يظل نزيف التساؤل مفتوحا حتى نصل إلى معالجة أوضاعنا ، وحتى نعيد تكوين مجتمعاتنا .

كما يجب أن لا نبحث عن الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الحال بعيداً عن أنفسنا ، بل نطرح جميع الأسباب، ونبدأ بأنفسنا أولاً ؛ لأنه لو لم تكن في مجتمعاتنا قابليةً للاستعمار لم نكن لنستعمر ، كما أننا خضعنا لأننا أوجدنا في أنفسنا قابلية للخضوع ، وهذه حقائق نتعلمها من التاريخ ، وبهذا يكون البحث منطقيا في أسلوبه وغايته .

ومن المشاكل التي تعوق حركتنا أننا عندما نستعرض نشأة العلمانية ، وفكرها ، وآثارها في أوروبا ،فإننا نركز خطابنا على الجوانب الأخلاقية ، والمفاسد الاجتماعية الناتجة عنها على الأفراد والمجتمعات ، ونتجاهل أننا نستعرض مجتمعات غربية لاترى ذلك عيبًا ولا تخجل منه، بل هم ينظرون فقط إلى ما يحققه الفرد من متع مادية ؛ لأن فلسفة العلمانية التي يحيا بها الغرب هي صرف الناس عن الاهتمام بالغيبيات ، والفصل بين حياة الناس والدين ، والاهتمام

بالحياة المادية وحدها . والعلمانية تقوم على نظام أسس على مبادىء الأخلاق الطبيعية المستقلة عن الأديان ، بل هي رافضة ومنكرة للأديان في الحقيقة .

فهم في حقيقة الأمر لايشعرون حتى بالحرج من انتقاداتنا بل يسخرون منا ، ويعدون ذلك تخلفاً منا ، وأننا مازلنا بعيدين عن المدنية الحديثة .

ثم أننا ندعوا إلى الإسلام دين ودولة ، ولكن أين هي تلك الدولة الإسلامية التي ندعوهم إليها ؟! .

إننا ندعوا إلي شيء ليس له وجود فعلي على مستوى العالم الإسلامي !.

ولامفرّ أمامنا إلا أن نُوجِد هذا المجتمع الإسلامي الذي ندعوا إليه ، ولا مفر أمامنا إلا أن نثبت تفوقه ، وهو على عقيدته الإسلامية تفوقه الروحي ، وتفوقه المادي . وإلا ما الفائدة من حديث علمائنا المتكرر عن مفاسد الحضارة الغربية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية ، وأخطارها على العالم بأثره ... إلخ ، ونحن على هذه الحال من التراجع الحضاري في معظم مجتمعاتنا .

فيجب الاتجاه نحو بناء المجتمع المسلم،ويجب أن نتحرر من البدع والخرافات ، وأن يأخذ الدين الإسلامي موقعه ودوره التربوي،ويقوم بدوره في قيادة المجتمع.

والدعوة هنا موجهة لعلمائنا ودارسينا أن يركزوا البحث في مجتمعاتنا، والأثر الذي يستطيع أن يحدثه الإسلام في شتى مناحي الحياة،والأساليب الصحيحة لتحقيق ذلك ، لابد أن نواجه أنفسنا،ولاضرر أن نكشف عن أخطائنا وخطايانا ، ولكن الضرر كل الضرر في استمرارنا، وفي إصرارنا على البقاء على تلك الحال.

ولقد سألت نفسي كثيراً ـ نتيجة لأقوال كثير من العلماء والخطباء ـ :

لو أن مجتمعاتنا الإسلامية ظلت بمنأى عن الغرب ، وعن تأثيره ، وعن كل مانرفضه من سلوكياته ... هل كان حال مجتمعاتنا أفضل ؟ اي أكثر تطوراً مثلاً أو أقوى عقيدة وتديناً ؟!.

إنها أسئلة صعبة على النفس ، ولكنها تكشف حقيقة انحدار مجتمعاتنا ،

وتعري كل ما نحاول ستره من ضعف، وتخلف وبعد عن جوهر الإسلام والعقيدة الإسلامية . . .والتاريخ يصرخ في وجوهنا بهذه الحقائق ، والتي لا تستطيع إخفائها بلاغة الخطباء، أو رقة الوعاظ، أوتبرير العلماء، أو حتى كثرة عدد المسلمين على مستوي العالم .

ومن الحقائق الثابتة أن استمرار المجتمعات وتطورها لاشك في أنه يستمد قوته من التجديد المستمر في هذه المجتمعات، والإسلام ينفرد بخاصية التجديد ، وهي من كمال الدين الإسلامي الخالد ، وقد أعجزت الغزاة قديمًا وحديثًا ـ غزاة الأرض ، وغزاة الفكر ، وغزاة المجتمعات ـ .

وهذه الخاصية ـ التجديد ـ في ديننا الإسلامي لا تخضع للتزوير أو التلفيق أو الكذب ، فكل المحاولات التي يقوم بها العلمانيون ومن يدورون في فلكهم لإفراغ الدين من محتواه بدعوى «التجديد» التي يزعمونها زوراً وكذباً كلها محاولات يائسة ، بل يمكن وصفها بالغباء ، على الرغم من ادعاء أصحابها بانهم من كبار المفكرين ؛ وذلك لأن سر تجديد دين الامة الإسلامية كامن في الإسلام داته . فالإسلام نسيج إلهي لايقبل دخيلاً عليه من فكر البشر أيا كان ، ومهما ارتقى هذا الفكر ، ومهما بذل أصحابه أو أنصاره من محاولات لإلصاقه ، والالتحام بجوهر الإسلام ، ومهما طال الزمن عليه فإن مثل هذا الفكر سيظل فكراً بشرياً محدوداً لا يلبث أن يسقط ، وهذا ثابت عقلاً ، وثابت بمرور السنين ، وباستقراء التاريخ ، فالعقيدة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية لاخوف عليها مطلقًا ؛ فالدين الإسلامي نسيج رباني لايختلط به صنع البشر فهو الرسالة الخاتمة للبشر ، ولكن الخوف على هؤلاء المسلمين ، وما يتعرضون له من فتن أو تشويش قد يفسد عقيدتهم . فالدين الإسلامي محكم بإحكام آيات القرآن ، ومحفوظ بحفظه ، وقد تعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩] .

وعلى مدار التاريخ كان المعاندون والمعادون للإسلام هذا هو دأبهم وديدنهم، ويتخبطون ثم يسقطون ،ويظهر ضعف فكرهم، ويصبح ما فعلوا مثاراً للسخرية، ودليلاً على العجز ، وتظل الثوابت الإسلامية كما هي ، وكما جاء بها الرسول ـ ﷺ ـ . ولكن علينا أن نعترف من استقراء التاريخ أن المجتمعات الإسلامية قد جمدت فكريًا وحضاريًا منذ فترات طويلة تسبق حتى بداية ظهور العلمانية في الغرب، فلقد أصاب مجتمعاتنا بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والإدارية والاجتماعية جمود وعزلة ، وصارت في حالة بالية ، كوّنت بمرور الزمن داخل المجتمعات الإسلامية قابليةً للغزو ، وقابليةً للتبعية والتخلف ، وقابليةً لانتشار الخرافة والبدع ... سهلت على الغرب أن يقوم بغزونا في شتى مناحي الحياة ، وظل الوضع ينحدر من سيء لأسوء،حتى وصل الأمر أن تقطعت العقول العربية والإسلامية تائهة بين الشرق والغرب ، وتقلبت في معظم الاتجاهات الفلسفية والفكرية ، واتبعتها اتباع الذليل ، اتباع الجاهل ، أو قل اتباع التائه ... ومما زاد الأمرُ سوءاً ما وصل إليه الغرب والشرق الغير مسلم على حد سواء من تطور مادي، وتقدم علمي وتكنولوجي وقوة عسكرية .

لذا يتوجب على علماء المسلمين ومفكريهم وقادتهم خاصة العرب أن يخضعوا كل ذلك للبحث وللدراسة ، وأن يفككوا كل الأسباب التي وصلت بالأمة الإسلامية والعربية إلى هذه الحال من الضعف والتخلف والهوان ، وأن يعملوا على إعادة تكوين العقل المسلم ، وعلى نشر العلم والثقافة الإسلامية بين كل فئات المسلمين، وهذا كفيلُ بتصحيح جزءٍ كبيرٍ من مسار العقول، وأن يفضح ويعري كلّ زيفٍ يصدر إلينا أويستورده البعض،وحجج هؤلاء ـ العلمانين واذنابهم ـ واهيةٌ لاتصمد أمام العقل المسلم الواعي ، ومواجهة هؤلاء وامثالهم تكون بنشر الوعي ، والمعرفة بين المسلمين بما يناسب طبيعة ، وتطور العصر الذي نعيشه ـ عصر العولمة ـ .

إن من عظمة الإسلام أنه لا إكراه فيه ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ،

وانه جعل المسلم هو من يراقب نفسه ، ويقبل على العمل بحرية تامة ، وبقصد الإصلاح . نعم وضع الإسلام النظم العامة والجزاءات ؛ وذلك ضروري لإقامة المجتمعات وصلاحها ، ولحاجة البشرية إليها ، ولكن الإسلام يعمل على خلق الإنسان المسلم ، وترقيته سلوكيا ونفسيا وروحيًا وعقليًا بشكل مستمر ودائم ؛ فهو لب المجتمع وأساسه فيجب ألا نغفل هذه التربية ، فهي ضمانة للمجتمع المسلم ، تتكسر أمامها كل المحاولات التي تهدف إلى غزو الإنسان المسلم ثقافيًا ، أو تفتيته اجتماعيًا ، وهي ضمانة لتحقيق السعادة والأمن للبشرية في مرحلتها المقبلة ، كما تجعل مهمة العلمانية وغيرها من الأفكار التي تدور في فلكها مهمةً مستحيلة .

لذا وجب على الباحثين والدارسين الإسلاميين أيضًا أن يوجهوا جزءًا من ابحاثهم حول :

كيف نقيم مجتمعاً مسلماً في ظل هذه العولمة ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تعني الوصول إلى القاعدة الإسلامية لمجتمع هذا العصر ، والتي تحقق الأمن للجميع .

إن العالم والبشرية بأسرها في تطورها المقبل في أمسّ الحاجة إلى الإسلام كعقيدة وكشريعة ؛ فالأخطار المقبلة عليها البشرية في ظل النظرة النفعية القاصرة لفئة من البشر لتثير الرعب والفزع بسبب ماوصل إليه الإنسان ـ ومازال يحاول المزيد ـ من وسائل التدمير التي لاتفرق ، بل ويبقى تأثيرها المدمّر سنينًا طويلة ، وعلى الرغم أن البشرية مازالت في مراحلها الأولى من العولمة الشاملة إلا أن هذه الحضارة العظيمة تبدو مشوهة وأكثر دموية،وأكثر قسوة، وأكثر عنفًا في يد هذا الفكر البشري المادي النفعي المحدود الذي تتفجر فيه الصراعات بشكل مستمر، فهو يستمد وجوده واستمراره من فلسفة الصراع المستمر،وكل مفكريه يبشرون بذلك؛ فنجد مؤلفاتهم تتحدث عن : صراع الحضارات ، نهاية التاريخ ،

نهاية العالم .... .إلخ.

وبالرغم من ذلك نجد غالبية من مفكرينا الكبار وكتابنا يقفون عند وصف حال المجتمع في فترات معينة ، واكتفى الكثير من الباحثين بأن الطامّة الكبرى بدأت بإسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية ، ثم أخذ الوضع يتدهور إلى ما نحن عليه الآن ، وأقصى ما يفعلون بعد عملية الوصف تلك هو استرجاع ذاكرة المسلمين التاريخية للمقارنة مع علماء ومجاهدين سابقين ، وهم يرون في ذلك قمة القيام بما يجب عليهم ، حيث ينفخوا في الأمة الإسلامية روح الجهاد ولكن هيهات بين ما يريدون ، وبين مايقومون به من عمل .

والأوْلى بنا جميعًا أن نباشر العمل الذي باشره هؤلاء العلماء السابقون، وباشره هؤلاء المجاهدون ، لا أن نكتفي بأن نحولهم إلى قصص وحكايات تفقد تأثيرها الفعلي بمرور الوقت،ولايتجاوز دورها سوى الحزن والأسى على ما مضى.

ونشير هنا إلى أن كارثة العالم الإسلامي والعربي لم تبدأ بسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية ، وإنما سبقت ذلك بكثير ، وكان السقوط المدوّي للخلافة الإسلامية النتيجة الطبيعية لتراكمات ضعف وتدهور المجتمعات الإسلامية المستمر ، بعد أن وقعت معظمها تحت سطوة الاحتلال الغربي .

فلا مناص أمام المسلمين من مواجهة الحقائق ومراجعة تاريخهم للوقوف على الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذا الإنهيار المذري ، ولا مناص أمام المسلمين من استرجاع العقيدة الصحيحة لتحكم مجتمعاتهم .

إنَّ توجهنا إلى البحث في تجديد دين الأمة ؛ لتحسس سبل اليقظة ، والنهضة الإسلامية ليستدعي الكشف عن أسباب التراجع وملابساته وأماراته ، ويتطلب الكشف عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية المتميزة ، تلك الهوية التي تحدد مهام اليقظة والنهضة في إعادة اكتشافها ، والكشف عن سماتها وقسماتها وخصائصها ، وبلورتها في مشروع حضاري عربي مسلم .

وكما نعرف ، فاللغة العربية ليست شرطاً في التدين بالعقيدة الإسلامية ؛ ولكن العربية شرطاً للتفقه في الإسلام والاجتهاد .. فأهل الحل والعقد ـ السلطة التشريعية ـ في المجتمع المسلم،وأهل الإمامة اي ـ قمة السلطة التنفيذية ـ ، وأهل الحكم بما أنزل الله ـ أي السلطة القضائية ـ ، لابد وأن يكونوا من الذين بلغوا في العربية وعلومها المرتبة التي تتيح لهم فقه القرآن ، والسُّنَّة ، ومصادر التشريع .

أي أن الدولة الإسلامية لابد وأن تكون : عربية اللغة والفكر والثقافة بصرف النظر عن لغة وقومية الرعية والجمهور، ومن هنا جاء ارتباط الإسلام بالعروبة وحضارتها ، وصارت العربية لغة الإسلام ، تنتشر بانتشاره ، ولم يعارض في ذلك سوي " الشعوبيين "(١) ، الذين أظهروا العداء للعروبة وحدها ، فلقد قام الدليل على عدائهم للإسلام أيضاً .

لكن تلك العروبة عروبة الفكر والثقافة ـ العروبة الحضارية ـ التي أثمرها الإسلام ، وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها العرقية القاصرة ؛ فلقد تغيَّير معنى العروبة مع الإسلام بالمضمون الإسلامي ـ الحضاري ـ للعروبة، وبما يتناسب وعالمية الإسلام ، والذي أرساه الرسول ـ ﷺ ـ عندما قال : " **ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي** "(٢) .

والعروبة " هوية " ـ جوهر ثابت ـ ، وليست مجرد تراث ، وقد أثبت التاريخ ذلك ، فلقد سيطر الترك المماليك ، والترك العثمانين ما يقرب من عشرة قرون ،

---

(١) تعرف الشعوبية بانها تيارات مختلفة يجمعها العداء للعرب، جاء في الانسكلوبيدية البريطانية (الشعوبية كل اتجاه مناوئ للعروبة (anti-arabisim) ، وهذا ما جاء في تعريفات قدامى علمائنا المسلمين، فقد قال الامام القرطبي ـ رحمه الله ـ :(الشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم) تفسير القرطبي / ١١/١٨٩ ونحو هذا لشيخ الاسلام ابن تيمية انظر اقتضاء الصراط المستقيم / ١٤٩ إلا انه نسب الشعوبية الى النفاق والكفر فقال : (ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب، والغالب ان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق إما في الاعتقاد وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس) . وقال ايضاً : (إن بغض جنس العرب ومعاداتهم كفر ، او سبب للكفر) ١٥٦ .

جاء في القاموس المحيط : "والشعوبية حركة سياسية عنصرية ظهرت بوادرها في العصر الاموي ، إلا انها ظهرت للعيان في بدايات العصر العباسي" .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر .ج٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

وسيطر الغرب وبذل كل المحاولات هو الآخر في القضاء على العروبة ، ولكنها ظلت شامخةً راسخةً مستعصيةً على التحلل ، فهي جوهر ثابت عام ، له صفة الاستمرار وليست مجرد تراث .

وعند الحديث عن المحاولة لبداية رصد الانحراف عن شريعة الأمة الإسلامية نجد العالم الجليل " أبو الأعلى المودودي " قد أرجعها إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ، ففي رأيه أن الأمر بعد أن انتقل إلي عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ سار على نهج الخلافة الراشدة عدة سنين ، ثم حدثت الثغرة التي نجم عنها قرن من الجاهلية من جديد! [١] ، ثم يقول المودودي ـ حتى لايلتبس الأمر ـ : "جاء بعض أفاضلنا المحترمين للإفتاء يستنبطون من جملتنا هذه النيل من قدر سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، والحق أني لم أقصد بها سوى أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ كان ينقصه بعض تلك الصفات اللازمة للحكم والأمر والتي كانت على أتمها ، وأكملها في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ـ رضي الله عنهما ـ ، وهذه مسألة تاريخية يجوز للباحثين في التاريخ أن يأتوا فيها بآراء مختلفة ، وليست بمسألة كلامية ، أو فقهية حتى يصدر أهل الإفتاء آراءهم بشكل الفتاوى [٢] .

ثم يمضي فيصف بالجاهلية كل الدول التي تعاقبت على حكم المسلمين أموية وعباسية وتركية باستثناء العامين اللذين حكمهما خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) .

وهذه مبالغة التبست على عالمنا الجليل ؛ حيث ظلت الأمة الإسلامية ردحًا من الزمن متماسكة تحكم بالإسلام ، وتقوم على أمر الدين ونشره في كل بقاع الأرض ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وهذا ثابت تاريخيًا، رغم وجود

---

(١) نظرية الإسلام السياسي . ابو الأعلى المودودي . جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع . ط ١ . ١٩٨٥ م .

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ٤٠ . ابو الأعلى المودودي . ترجمة الرسالة الأولى / محمد كاظم سباق . ترجمة الرسالة الثانية / محمد عاصم الحداد . الدار السعودية للنشر والتوزيع . ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

مخالفات وأخطاء كبيرة؛ لذلك لا يمكننا إصدار الحكم للتاريخ لبداية الانحراف عن شريعة الأمة الإسلامية لهذه الخلافات أو المخالفات .

وقد تناول الدكتور والمفكر الإسلامي محمد عماره " ٢ " هذه الفكرة ، وكان قريبًا جداً من تحديد بداية انحراف الأمة عن أمر دينها ، لكنه لم يربط هذه البداية بسببها بشكل مباشر (١) .

فقد أشار الدكتور محمد عمارة إلى التيار العقلاني ، والذي مثله" المعتزلة" في فترة هامة في التاريخ الإسلامي، وهي فترة التحامه بالفلسفة والفلاسفة اللاهوتيين من أبناء الملل الأخرى،وكيف أنهم وظفوا الفلسفة سلاحاً بيد الإسلام، وكان لهم في هذا الميدان فضلٌ كبير في نشر الإسلام في البلاد التي ازدهرت فيها الأبنية الفكرية، التي استرشدت بميراث اليونان الفلسفي والمنطقي في المناظرة والجدل .. ولكنه أغفل أن بداية الخلاف ـ الذي أدى إلى بعد المسلمين عن شريعتهم ، أو عن القيام بأمر تجديد دينهم بالمعنى الصحيح ـ قد بدأ معهم ـ أي مع المعتزلة ، ولم يبدأ مع تحريم التيار العقلي فيما بعد؛ حيث أنهم بالرغم من دورهم الكبير في خدمة الإسلام ، إلا أنهم أرادوا أن فكرهم بالقوة ، أي أرادوا أن يعطوا فكرهم صفة " الاستمرارية والخلود " أي إلصاقه بالنسيج الرباني ـ ثوابت الإسلام ـ دونما إدراك منهم لخطورة ما يصرّون عليه من فعل ، وكانت فتنة خلق القرآن ، والتي انتهت بسجن الإمام المجاهد " أحمد بن حنبل " ـ رحمه الله ـ ، والذي رفضها رفضًا قاطعًا ، وثبت على موقفه في لحظةٍ فاصلةٍ في التاريخ الإسلامي ؛ ولذلك أغرّوا به الخليفة العباسي" المأمون" ـ وكان معتزليا على مذهبهم ـ ، وأغروه بفرض آرائهم ، أي جعلها من" ثوابت الدين الإسلامي " ، وهو ما يعارض منهج النقاش العقلي الذي التزموه وقبول الآخر وصولاً إلى الرأي الأصوب ويتناقض وحقيقةً أن فكرهم ، والذي مع ضخامته ،هو في نهاية الأمر

(١) الطريق إلى اليقظة الإسلامية . ص ٩٩ ، ١٠٨ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط١ . ١٩٩٠م .

فكرٌ بشري محدود ، وقد يمثل ـ فقط ـ مجرد مرحلة من مراحل تجديد الفكر الإسلامي ، ولايرقى إلى صفة الاستمرارية والخلود ، والتي تختص بها ثوابت الدين الإسلامي ـ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المطهرة ـ ، وهي نسيج رباني من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ لايرقى إليه فكرٌ بشري مهما بلغ هذا الفكر .

ودامت محنة خلق القرآن في الأمة الإسلامية فترةً ليست بالقصيرة في عهد الخلفاء العباسيين الذين كانوا على مذهب الاعتزال، وذلك من نهاية حكم الخليفة المأمون ٢١٨ هـ-٨٣٣ م،واستمرت في عهد المعتصم،ثم عهد ابنه الواثق.

وفي عهد الخليفة الواثق قام بقتل المحدث " أحمد بن نصر الخزاعي" ؛ لأنه لم يقل بخلق القرآن ، ولما جرى الفداء للأسرى المسلمين والروم سنة٢٣١ هـ ـ ٨٤٦م أمر ألا يفتدى من أسرى المسلمين إلا من قال بخلق القرآن ، فمن رفض ترك في أيدي الروم، وقتل الواثق من لم يقولوا بخلق القرآن من أهل الثغور .

وظل الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ صابراً محتسبًا ، ثابتًا على رأيه في فترة فاصلة في تاريخ الإسلام ، مدركاً لحقيقة الفارق الجوهري بين الفكر البشري والتصوير الإلهي الذي له صفة الخلود .

ثم حدث أن تولى الخلافة خلفاء عباسيين انتصروا لاتجاه الأخذ بالنصوص ، ورفض العقل والرأي ، وكانت البداية مع الخليفة المتوكل " ٢٣٢هـ ـ ٨٤٧ م ؛ فابطل القول بخلق القرآن ، واخرج الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ من بيته الذي كان محدد الإقامة به ، وغضب على أحمد بن داؤود، زعيم التيار العقلاني ـ المعتزلة ـ وزج بهم في السجون مع الملاحقة للفارين منهم ، وانقلب الحال واصبح " المحدثين" هم اصحاب الرأي الأوحد ، ولكن الأمر أخذ يتطور في الاتجاه المغالي حتى وصل اقصاه في عهد الخليفة " القادر بالله "ـ ٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م ـ إلى تحريم التيار العقلاني .

وهذان الموقفان ـ موقف المعتزلة أولاً ، ثم بعد ذلك موقف أصحاب الأخذ بالنصوص ـ يمكننا أن نسند إليهما البداية الحقيقية لانحراف الأمة الإسلامية عن أمر دينها ، وابتعاد المسلمين تدريجيًا عن منهج الوسطية الإسلامية ، وبداية ضمور طاقات الإبداع وملكات الاجتهاد ، الذي أدي فيما بعد إلى ابتداع المماليك ـ لأول مرة في مسيرة الحضارة الإسلامية ـ الازدواجية القانونية والقضائية . . فأبقوا " حكم الشريعة " في الأحوال الشخصية وقضاء العامة ، أما الدولة " الدواوين السلطانية " والعسكر " أي الطبقة الحاكمة " ، فإنهم استعاروا لقضائهم وتنظيم شؤونها ، والفصل في منازعاتها القانونية ما كان سائدًا من القوانين والنظم في المواطن الأصلية التي جلبوا منها ، والتي وضعها جنكيز خان " ٥٦٢ـ ٦٢٤ هـ / ١١٦٧ ـ ١٢٢٧ م " الوثني[١] . وكان ذلك شاهداً على التحولات التي مثلت التراجع الحضاري للأمة الإسلامية .

ومنذ ذلك التاريخ والهوة تتسع بين القانون الإسلامي ـ فقه المعاملات ـ ، وبين واقع االمسلمين .

وقنع فقهاء السلطان بالتبرير لما حدث ويحدث، وقنع فقهاء العامة بالتفصيل في فقه العبادات ، وهذا ثابت تاريخيًا ، ويتضح من الغنى الزائد في " فقه العبادات " ، والفقر المخل في " فقه المعاملات " الذي جمد وتحجر .

ونحن لانقصد الإساءة لهؤلاء الخلفاء أو المماليك ، فلقد كانوا مسلمين ، وقاموا بادوار عظيمة في حياة الأمة الإسلامية في صد المغول والتتار، والتصدي للصليبين، وحموا الأمة الإسلامية ووجودها في فترات فاصلة في التاريخ الإسلامي، وما حدث مما ذكرناه لانستطيع محاسبتهم عليه ، فهذه استنتاجات

---

(١) ذكر ذلك المقريزي في الخطط ص٦٠ ، ٦٣ . طبعة القاهرة ، والاقتباس هنا من كتاب "الطريق إلى اليقظة الإسلامية . ص ١١٠ د/ محمد عمارة . بتصرف . دار الشروق ط١ ١٩٩٠ م

فكرية بعد قرون طويلة من الأحداث، وتدخل بشكل ما كحلقة من حلقات تاريخ الأمم والدول في ظل ظروف تاريخية واجتماعية معروفة لنا تمامًا الآن ، ولكن توصيفنا هنا هو محاولة لدراسة التاريخ الإسلامي للكشف عن بداية الداء، وعن الأسباب الحقيقية التي أدت إليه ، وعن المسؤلية الكبرى على علماء المسلمين ؛ لنتخلص من هذه الإزدواجية ، وحتى نعرف الواجب الملقى على عواتقنا لنقوم به ، ولنحدد أهدافنا ، ونضع الأساليب الإسلامية الكفيلة بالوصول إليها، وأيضًا لتكون خطوة في طريق إخراج المسلمين من دائرة التخلف والتراجع الحضاري ، وإجلاء الإسلام في صورته التي نزل بها على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ـ ﷺ ـ ؛ ليكون هاديًا للبشرية إلى قيام الساعة .

وحتى يكون التشخيص دقيقًا، فإن أمر تجديد دين الأمة الإسلامية لم ينطفأ مطلقًا في هذه الأمة ؛ فهو من كمال الدين ،ولكن يمكننا القول أنه كان متجزيء هنا وهناك مع اتساع الأمة الإسلامية وتقطع أواصرها بين الشرق والغرب ، وهذا التجديد هو الذي حافظ على المجتمعات الإسلامية،وأبقى المسلمين متمسكين بجذور الدين الإسلامي، والحضارة الإسلامية ، وأعجز على مرَّ التاريخ كل أعداء الإسلام ، وقد يئسوا من النيل من الإسلام ، وصدق الله العظيم في كتابه الكريم القائل : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وعلى علماء الأمة الإسلامية في هذا العصر أن يتنبهوا ؛ فلقد بدأ الصراع يتكشف عن علمانين عرب يطرقون كل السبل لهدم الدين الإسلامي ، وهم يعيشون بين المسلمين، ويدعون أنهم مسلمين،ويتقولون على الإسلام ماليس فيه، وهو منه ومنهم براء ، مستعينين بالقوى الغربية والقوى المعادية ، وبدعمها المادي والعلمي و . . . وقد وضحت اتجاهاتهم ونوايهم وخططهم في جميع الدول

الإسلامية ، عربية وغير عربية ، ووضحت لنا أهدافهم لهدم العقيدة الإسلامية ، وطمس الشريعة الإسلامية ، في حياة المسلمين .

فهل يظل المسلمون خلف حدودهم الإقليمية قابعين في دوامة خلافاتهم أو البدع التي ابتلعتهم قرونًا طويلة ،ولا زالت تسيطر عليهم منذ الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ؟ ، وتلك الخلافات والبدع لم تحسم في الماضي ، ولن تحسم مستقبلاً إلا بالرجوع إلى ثوابت الدين الإسلامي ، ذلك النسيج الإلهي الخالص من كل فكر بشري .

والدعوة هنا لعلماء وحكام الأمة الإسلامية ليخرجوها من هذه المتاهة التاريخية ، ومن هذا الجمود العقلي والتراجع الحضاري ؛ فدور المسلمين قد حان لقيادة البشرية في مرحلتها المقبلة ، في إطار عولمة شاملة بدأت تطل من كل بقاع الأرض .

تأليف

فايز عزيز محمد إسماعيل

عفا الله عنه





الفصل الأول

المراد من تجديد الدين الإسلامي

الفصل الأول
المراد من تجديد الديـــن الإسلامي

مهـــاد :

للتصور الإسلامي خصائص متميزة ، وكلها تنضام وتتجمع عند خاصية واحدة هي التي تنبثق منها وترجع إليها سائر الخصائص.. هي "خاصية الربانية " .

إن الإسلام تصوير رباني جاء من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل خصائصه وبكل مقوماته، وتلقاه الإنسان بـ خصائصه تلك ومقوماته لا ليزيد عليه من عنده شيئًا،ولا لينقص كذلك منه شيئًا،ولكن ليتكيف هو به، وليطبق مقتضياته في حياته .

وهو ـ من ثمَّ ـ تصوير غير متطور في ذاته ، إنما تتطور البشرية في إطاره ، وترتقي في إدراكه والاستجابة له ، وتظل تترقى وتنمو وتتقدم ، وهذا الإطار يسعها دائمًا ، وهذا التصور يقودها دائمًا ؛ لأن المصدر الذي أنشأ هذا التصوير هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان ، وهو الخالق المدبر الذي يعلم طبيعة هذا الإنسـان ، وحاجات حياته المتطورة على مدى الزمان ، وهو الذي جعل لهذا التصور من الخصائص ما يلبي هذه الحاجات المتطورة في داخل هذا الإطار .

فلا يجوز عقد المقارنات مع التصورات التي هي من صنع البشر ، والتي هي محدودة وقاصرة ، ومحكومة بالشهوات البشرية والمنفعة .

أما التصوير الإسلامي فقد وضعه الذي يرى بلا حدود من الزمان والمكان ، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور، ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات ، ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها ، وفي جميع أزمانها وأطوارها أصلاً ثابتًا

تتطور هي في حدوده،وترتقي وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الإطار ، وهذه السمة هي طابع الصنعة الإلهية في الكون كله ، لا في التصوير الإسلامي وحده، وهذا على الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ أمرٌ يسير؛ ولينظر الإنسان في خلقه والذي يصلح للمعايشة منذ بدء وجوده ، وإلى أن يشاء الله، ولينظر الإنسان في الأرض التي يحيا عليها وبها، وكيف هي كافية له،وتلبي كل احتياجاته وتطوره.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) ﴾

[المرسلات :ـ٢٥-٢٦]

ولينظر الإنسان في الكون من حوله ليجد هذه السمة ، والتي تنطق بكمال الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لذا فالمسلم يستطيع أن يقول وهو مطمئن : إن التصور الإسلامي هو التصور الاعتقادي الوحيد الباقي بأصله " الرباني " وحقيقته الربانية ، فالتصورات الاعتقادية السماوية التي جاءت بها الديانات قبله قد دخلها التحريف ـ في صورة من الصور ـ ، وقد أضيفت إلى أصول الكتب المنزلة شروحًا وتصورات وتأويلات وزيادات بشرية قد أدمجت في صلبها ؛ فبدلت طبيعتها "الربانية "، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصول، ولم يشب نبعه الأصيل كدر ، ولم يلبس فيه الحق بالباطل. قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر:٩].

وهذه هي الحقيقة التي تجعل للإسلام قيمته الفريدة . وفي الوقت ذاته يعتبر الفكر البشري في ميزان هذا التصور أداة قيمة وعظيمة ، ويوكل إليه إدراك خصائص هذا التطور ومقوماته ـ مستقاة من المصدر الإلهي ـ، وتحكيمه في كل ما حوله من القيم والأوضاع دون زيادة عليها من خارجها، ودون نقص كذلك منها.. ويبذل منهج التربية الإسلامية لهذه الأداة العظيم من الرعاية والعناية لتقويمها وتسديدها وابتعاثها للعمل في كل ميدان هي مهيأة له الشيء الكثير[١].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته . سيد قطب . دار الشروق . ١٩٨٩ م . القاهرة ط ١١ . بتصرف

المبحث الأول مفهوم التجديد في اللغة والإصطلاح

نشأ مصطلح تجديد الدين من حديث صحيح من لفظ النبي - ﷺ - فقد رَوَى ابو داوود في سننه في "كتاب الملاحم" عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن الرسول - ﷺ - : " **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** "(١) .

والهدف من الحديث هو بعث الأمل في نفوس الأمة الإسلامية ، والتأكيد على أن الدين الإسلامي هو خاتم الأديان ، وأنه مستمر إلى قيام الساعة ، فلا خوف من ضياعه أو فتوره ،فالله - سبحانه وتعالى - يقيض لهذه الأمة كل فترة زمنية - قرن من الزمان - من يجدد شبابها ، ويحي مواتها ، وهذا الاعتقاد يؤكد صلاحية الإسلام في كل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(أ) معنى التجديد في اللغة :

ومفهوم التجديد في اللغة كما تشير المعاجم نقيض الخلق أي القديم ، ويقال : جدد الشيء : صيره جديداً ، أي جعل القديم جديداً ، وأعاده إلى حالته الأولى ، وجدد الثوب أي أعاده إلى أول أمره (٢) .

---

(١) رواه الطبراني في كتاب المعجم الأوسط، ورواه الحاكم في كتاب المستدرك، ورواه البيهقي في كتاب المعرفة ، وصححه الحافظ العراقي وابن حجر ، وصححه ناصر الدين الالباني " صحيح الجامع الصغير ، وسلسلة الاحاديث الصحيحة للألباني ج ٢ ص١٥٠ ، رقم ٥٩٩ . وقال في صحيح الجامع : حديث صحيح ج٢ ص ١٤٣ ، رقم ١٨٧٠ ، طبعة المكتب الإسلامي .

اما قوله : " رجال مسلم : فنعم، وانظر في ذلك : تهذيب التهذيب ج ٦ ص٧١ ، ج ٤ ص ٧ ، ج ٤ ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦، ج ١٢ ص ١٧٣ .

وقال السخاوي " المقاصد الحسنة " ص ١٢١ سنده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات ، ثم قال : وقد اعتمد الائمة هذا الحديث .

(٢) انظر الجوهري تاج اللغة وصحاح العربية " الصحاح " دار العلم للملايين ، و " لسان العرب " ٢ /٢٢ ، محمد بن مكرم بن منظور . بيروت ط ١ . ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م. دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر . نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري . و " المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي " أحمد ابن علي المقري الفيومي . المكتبة العلمية بيروت .

فالتجديد في معناه اللغوي يتكون من ثلاثة معان متصلة ، وهي :

[١] أن االشيء المجدد قد كان في أول أمره موجوداً وللناس به عهدة .

[٢] أن هذا الشيء قد طرأ عليه ما غيره وأبلاه فصار قديمًا .

[٣] أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يبلى ويخلق.

وورد ذكر التجديد في القرآن الكريم بمعنى الإحياء والبعث والإعادة . قال تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق : ١٥] .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة : ١٠] .

وهذه المعاني تنسجم وتتفق مع المعنى اللغوي للتجديد .

وقال الكميت في شعره :

هل للشباب الذي قد فات مردود ... أم هل لرأسك بعد الشيب تجديد

فالتجديد هو الرد إلى الأصل الأول .

(ب) معنى التجديد في الاصطلاح :

والتجديد في الاصطلاح ــ أي الشرع ـ يعني إعادة نضارته ورونقه وبهاءه ، وإحياء ما اندرس من سننه ومعالمه ، ونشره بين الناس .

وهكذا يبدو جلياً أن التجديد لايعني بحال من الأحوال اقتطاع شيء من الدين أو نبذه ، فهذا ليس تجديداً وإنما هو مسخ وتجريد ! .

ومعنى التجديد كما يقول العزيزي : إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب ، والسُّنَّة والأمر بمقتضاهما [١] .

فالتجديد المنشود ليس تغييراً في حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهوائهم ، أي تبرير الواقع ، ولكنه تغيير للمفهومات المترسبة في أذهان الناس عن الدين ، ورسم للصورة الصحيحة الواضحة ، ثم هو بعد ذلك تعديل

---

(١) السراج المنير شرح الجامع الصغير . أحمد محمد العزيزي الشافعي . ١ / ١٤ . دار الفكر ٣ / ٣٤٨ .

لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه هذا الدين (١) .

وقال المناوي - رحمه الله - في معنى "يجدد" : يبين السُنَّة من البدعة ، وما ذهب من معالم السُنن ، ويكثر العلم ، وينصف أهله ، ويكسر أهل البدعة .

وفي موقع آخر يقول : يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة ،وما ذهب من معالم السُنن،وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة، وهو يشمل العلم والعمل جميعاً(٢) .

ويقول أبو الأعلى المودودي : " ذلك أن التجديد لايكون عبارة عن التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية ، ولاهو عبارة عن إعمال خلط جديد من الإسلام والجاهلية ، بل التجديد في حقيقته هو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية ، ثم العمل على إحيائه خالصًا محضًا على قدر الإمكان "(٣) .

ويقول د/ يوسف القرضاوي : ... فمعنى التجديد لشيء ما ، هو محاولة العودة به إلى ماكان عليه يوم نشأ وظهر بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديداً ، وذلك بتقوية ماوهي منه ، وترميم مابلي ، ورتق ما انفتق حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى... وكذلك فتجديد الدين لايعني إظهار طبعةً جديدة منه ، بل يعني العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول - ﷺ - وصحابته وتابعيهم بإحسان (٤) .

هذا وقد تناول غالبية العلماء والمفكرين المسلمين أن التجديد لايكون إلا متى كان هناك حصول للبلى والضعف في الأمة الإسلامية .

---

(١) التجديد في الإسلام . ص٣٩ . سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي .

(٢) فيض القدير في شرح الجامع الصغير . عبد الرؤوف المناوي ٢ / ٢٨١ - ٢٨٢ _ ١ / ١٠ تحقيق الالباني رحمه الله - .

(٣) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . أبو الأعلى المودودي . ترجمة الرسالة الأولى / محمد كاظم سباق . ترجمة الرسالة الثانية / محمد عاصم الحداد. الدار السعودية للنشر والتوزيع . ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

(٤) من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا . د/ يوسف القرضاوي . بيروت : المكتب الإسلامي ١٩٩٥ م. ط٢ .

(ج) مفهوم جديد لمعنى تجديد دين الأمة الإسلامية :

وكل ما ذكره علماؤنا قديمًا وحديثًا في معنى التجديد والمقصود منه منطقي ، غير أن بيان معنى التجديد لايقف عند هذا الحد ، بل إن معنى تجديد دين الأمة الإسلامية يمثل في جانبه الآخر - أي الجانب الإيجابي - مقدرة الإسلام على التعامل مع ما يستجد في حياة الأمة الإسلامية ، بل والبشرية جمعاء ، وقدرته على مواكبة التطور البشري المستمر إلى أن يشاء الله - سبحانه وتعالى - ، وإفرازه ما يناسب كل عصر من خلال الثوابت الإسلامية - القرآن والسُّنَّة - ، وبواسطة العلماء الأثبات المتخصصين ، بما يحقق السعادة والأمن والسلام والحرية للبشرية جمعاء .

وبعد كل المطالعات حول معنى التجديد يمكننا أن نضيف معنىً لتجديد دين الأمة وهو :

أن التجديد يعني إظهار ثوابت الدين الإسلامي وأصوله الثابته ؛ أي - النسيج الإلهي للدين الإسلامي - منفرداً ، وعزله عن كل ما عداه من فكرٍ أو فعلٍ بشري يشذ عليه؛ لتتفاعل ثوابت الدين الإسلامي مع ما يطرأ على العصر الذي تمر فيه وتفرز له ما يعتمد عليه في استمرار حركته . مستنداً إلي القواعد والأصول الصحيحة في بيان مايستنبط منه،بواسطة العلماء المؤهلين لهذه المهمة العظيمة .



المبحث الثاني حـــول الحديث الشريف والمجــــدد

وبدايةً نشير إلى أننا نجد آراء تمثل أغلب العصور الإسلامية حول مسالة تجديد الدين ، حتى يمكننا القول أن هذه المسالة كانت في كل قرن من المسائل العلمية التي يدور حولها الحديث في مجالس العلماء ، وأنها كانت أحد موضوعات بحثهم وقد انتهت الآراء إلى أن التجديد يعني الإحياء والإعادة

ولأهمية مكانة العلم في الدين اقتصرت بعض أقوال السلف على تعريف التجديد بأنه إحياء العلم فقط،كما يقول الحافظ ابن كثير.ومن ذلك يمكننا أن ندرك أن الجهود التي تبذل في سبيل توثيق نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وكذلك العلوم التي نشأت لتحقيق هذا الغرض تدخل في معنى تجديد الدين، ويكون من أحد معاني تجديد الدين"حفظ نصوص الدين الأصلية صحيحةً نقية(١)

وقد اختلف العلماء حول الحديث النبوي الشريف ، فالمقصود برأس المائة أواخر كل قرن ، وأوائل القرن الذي يليه، فكلٌ يطلق عليه رأس ولانستطيع أن نجزم بأن رأس المائة يكون من " الهجرة النبوية ، أم من وفاة النبي ـ ﷺ ـ ، أم من بعثته ، وإن كان الرأي الأرجح أن العلماء أخذوا في حديثهم عن المجددين أن التاريخ الهجري هو الأساس ، وهو معقول ؛ لأنه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يؤرخوا به دون غيره ، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة

ويلاحظ أن العلماء قد جعلوا العبرة بوفاة المجدد في رأس القرن ، كما يوضح ذلك تاريخ وفيات الذين عينوهم للتجديد، فعمر بن عبد العزيز مات١٠١ هـ ، والشافعي مات ٢٠٤ هـ ،وابن سريج مات ٣٠٦ هـ ، والباقلاني٤٠٣ هـ ،

---

(١) مفهوم تجديد الدين . بسطامي سعيد دار الدعوة ط١ ١٩٨٤م

والغزالي ٥٠٥ هـ ـ رحم الله الجميع ـ .... وهكذا .

ولم يذكر عالم مثل بن تيمية ـ رحمه الله ـ رغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلامي بمختلف جوانبه لأنه توفى ٧٢٧ هـ .

ويجب التنبيه إلى الحديث الشريف " **إن الله يبعث** ...." والبعث هو الإرسال ، وموتهم على رأس القرن أخذٌ لا بعثٌ ، وهذا قول العلامة "المناوي" فتدبر بإنصاف ، ثم قال : ثم رأيت الطيبي قال : المراد بالبعث من انقضت المائة وهو بها عالم مشهور ، ومشار إليه . وبه قال " الكرماني " [١] .

من يقوم بالتجديد ؟ :

وأما من يقوم بالتجديد والإحياء ، فذلك موقوف على بيان معنى "مَنْ" هنا ، فقد أخذها بعض العلماء على أنها للمفرد ، واعتبروا أن المجدد فردا تبعثه العناية الإلهية لهذه الأمة ليجدد لها أمر دينها .

وقال البعض مثل : الذهبي ، والمناوي ، والعظيم آبادي ، وغيرهم : أن "مَنْ" في الحديث المذكور تصلح للجميع ، كما تصلح للفرد ، وهذا هو الأصل في وضعها في اللغة العربية . قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** (١٢٤) ﴾ [النساء : ١٢٤] . وهذا هو الرأي الأرجح ،والذي يتناسب مع المجددين في تاريخ الدين الإسلامي .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ : ...لا يلزم منه أن يكون المبعوث على رأس المائة رجلاً واحداً ، وإنما قد يكون واحداً ،وقد يكون أكثر منه ؛ فإن لفظة "من" تقع على الواحد والجمع ،وكذلك لايلزم أن يكون أراد بالمبعوث الفقهاء خاصة ـ كما ذهب بعض العلماء ـ فإن انتفاع الأمة بالفقهاء ، وإن كان نفعًا عامًا في أمور الدين ، فإن انتفاعهم بغيرهم أيضًا كثير مثل : أولي الأمر ، وأصحاب الحديث ،

---

(١) مقدمة " فيض القدير في شرح الجامع الصغير " ١ / ١٢ .. عبد الرؤوف المناوي ٢ / ٢٨١ – ٢٨٢ – ١ / ٢٠ . تحقيق الألباني ـ رحمه الله ـ .

والقراء ، والوعاظ ، وأصحاب الطبقات من الزهاد ... " [١] .

والواقع أن مفهوم تجديد الدين نفسه يتسع زمانيًا ، ومكانيًا ، وعددًا ، ويأخذ أشكالاً متعددة ومرتبطة بالدين ، بما يحفظ جوهر الدين الإسلامي على مرّ العصور ، وهو لايخضع أو يتقيد برأي عالم أومجموعة من العلماء ، وإن وافق قولهم الواقع في زمنهم أو زمن من سبقهم .

قال رسول الله - ﷺ - : " **لاتزال طائفةٌ من أمتي على الحق لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله** " [٢] .

فقد يقوم بتجديد دين الأمة الإسلامية فردًا أو مجموعات متناثرة ، كلٌ في موقعه ، كل في مجال اهتمامه واختصاصه ، فاختلاف العمل الإسلامي وتعدد الجماعات العاملة لتجديده أمرًا محمودًا - وقد فرضته الظروف التاريخية ، وانتشار المسلمين في بقعة كبيرة من الأرض - بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص ، لا اختلاف تضاد وتناقض، وبحيث يكمل بعضهم بعضًا ، وتجمعهم القضايا الكبرى .

كما أن الحديث الشريف لم ينف وجود مجددين في أواسط القرن وأواخره ، بل هو الواقع الملحوظ لمن يقرأ تاريخ هذه الأمة ويجد من المجددين من أمثال : ابن تيمية ، وابن الجوزي ، والشاطبي ، وابن الوزير ، وابن حجر ، والسرهندي ، والدهلوي ، والشوكاني ..... وغيرهم من الأعلام .

ويذكر المناوي : أنه قد يكون في أثناء المائة من هو أفضل من المبعوث على رأس القرن ، وأن تخصيص رأس القرن إنما هو لكونه مظنة اتخام علمائه غالبًا وظهور البدع ونجوم الدجالين [٣] .

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ١١ / ٣٢٠ ، ٣٢٤ . محمد بن الأثير الجزري . تحقيق محمد حامد الفقي . والاقتباس من كتاب: "التجديد في الإسلام" ط ٤ . الرياض: المنتدى الإسلامي ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) رواه البخاري في كتاب « الاعتصام » باب قول النبي ﷺ : « **لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق** » رقم ٧٣١١ ، ورقم ٧٣١٢ ، ج ١٣ ص ٢٩٣ . ورواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « نزول عيسى عليه السلام » ، رقم ١٥٦ ، ج١ ص١٣٧ .

(٣) فيض القدير في شرح الجامع الصغير . عبد الرؤوف المناوي ١ / ١٢ ، ١٣ . تحقيق الألباني - رحمه الله -.

ولاحظ ان المجدَّد له " هو دين الأمة الإسلامية " وهي أمة واحدة مهما اختلفت أجناسها والوانها وشعوبها وأوطانها ولغاتها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٢] .

والمُجَدَّد هنا هو "الدين" وكلمة الدين هنا هي نفسها كلمة الإسلام ، وإذا أطلقت تعني أحد أمرين :

[١] المنهج الإلهي الذي بعث به رسول الله ـ ﷺ ـ ،وأنزل به كتابه من العقائد والأخلاق والشرائع لينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض . وهذا المعنى ـ بالنظر إلى أسسه وأصوله ـ ثابتٌ لايقبل التغيير، ولا التجديد من حيث هو حقيقة خارجية .

[٢] الحالة التي يكون عليها الإنسان في علاقته بالمعنى الأول فكرًا ،وشعوراً ، وعملاً وخلقًا ، وفي هذا المعنى يقال : فلان ضعيف الدين أو قويّ ،حسن الإسلام أو رديء الإسلام. والدين هنا متغير متحرك فهو يزيد وينقص، ويضعف ويقوى، ويصفو ويكدر،ويستقيم وينحرف،بحسب فهم الإنسان له والتزامه بتعاليمه. وهذا هو الذي يقبل التجديد،ولا غرو أن جاء الدين في الحديث الشريف مضافًا إلى الأمة، وليس مضافا إلى الله ـ عز وجل ـ" . . . .ليجدد لها دينها " .

فالتجديد ينصب على دين الأمة ، وليس على دين الله تعالى ؛ لذلك لايجوز لمسلم أن يتخوف من استعمال كلمة "تجديد الدين" في إطار مدلولها الصحيح.

ونشير هنا إلى أن لفظ التجديد في حد ذاته يشير إلى ما يستجد في حياة المسلمين وتطورهم ، مع ارتباطه بالأصل والثوابت التي « تميِّز » جوهر الإسلام ، وهذا هو المقبول عقلاً،وإلا أصبح تبديلاً لا تجديداً، وأصبح استحداثًا لا تجديداً .

والإسلام نفسه رفض ويرفض كل المحاولات التي تهدف إلى الإندماج به أو الإساءة إليه ، وسرعان ما تنفضح هي وأصحابها .

ومفهوم "التجديد" من حيث ارتباطه بالأصل والثوابت الإسلامية ثابتٌ لا خلاف عليه ، ولا تعدد في رؤية العلماء له ، أما من حيث تطبيقات التجديد فهي مرتبطة بالعصر والبيئة التي يعيش فيها المسلمون ، ولكي تتضح هذه الفكرة نحيل القاريء إلى النظر إلى الإسلام عبر تاريخه الطويل ، وأن ينظر بعين الباحث عن الحق والحقيقة ، فسرعان ما سيجد في الإسلام إعجازاً مستمراً لم يتوقف لحظة ، يجب أن يؤمن معه .

وكل من يتدبر أمر الإسلام وشريعته الجامعة المانعة على مر العصور ، والذي يقيم حياة البشر في أية ظروف بيئية في الصحراء القاحلة ، وفي البداوة الجافة ، وفي القرى الزراعية ، أو في المدن الحضارية يجد الإسلام يحمل في داخله سر بقائه وخلوده الذي أودعه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فيه بأسس وقواعد ثابتة يستخرج منها المسلمون ما ينظم أمور حياتهم وحياة البشرية كلها ،الاجتماعية، والفكرية ، والروحية .. إلخ على أرقى مستوى أخلاقي وتعاوني .

والشريعة الإسلامية هي الأصلح لإقامة حياة بشرية لمجموعات منعزلة ، أو متفاعلة ، تحتوي على قوميات متعددة أو حتى متنازعة . ومنذ اللحظة الأولى صرّح الإسلام مع بداية ظهوره في أرض العرب الصحراوية القاحلة أنه لكافّة البشر ، وأنه الدّين الخاتم . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ .

[الأنبياء : ١٠٧] .

وقد أكّد الإسلام منذ هذه اللحظة هيمنته على كل ماعداه من الأديان ، وأنه اكتمل قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ ولا سبيل لأحد عليه إلى قيام الساعة .

قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ .

[المائدة : ٣] .

ومع مرور السنين أراد الكثيرون النيل من الإسلام ، ولكن لم يستطيعوا شيئاً حيال انتقال الإسلام عبر العصور بثوابته وأصوله ، ووقفوا عاجزين أمامه رغم ما تعرض له العالم الإسلامي من عدوان ، ورغم ما مرَّ ويمرّ به من ضعف ، ورغم ما ظهر من فكرٍ معادٍ للإسلام ، إلا أن الإسلام ظل يفرز مِنَ العلماء مَنْ يقومون على أمر تجديد دين الأمة الإسلامية .

وهذه الحقيقة التي أثبتها الزمن وحوادث التاريخ والأيام،ولايعاندها إلا مكابر؛ قد انتقلت ثقةً في قلوب المسلمين جميعًا ، فنجدهم على مدار التاريخ مهما اشتدت المحن وعظمت الخطوب ، نجدهم يوقنون أن الإسلام يتجدد مع حياة المسلمين ، ولابد أن يسود ويظهر على ما سواه .



المبحث الثالث
مفتاح التجديد وضوابطه

(أ) مفتاح التجديد.

ومفتاح التجديد هو الوعي والفهم، أي الفقه ، ولا نقصد المعنى الاصطلاحي للفقه ، وهو ما يتعلق بمعرفة الأحكام الفرعية من الوضوء والصلاة والرضاع والزواج والطلاق ....إلخ " ، وإن كان هذا مطلوبًا ومحمودًا ، ولكن نعني بالفقه هنا مفهومه القرآني والنبوي ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

وقول الرسول ـ ﷺ ـ " **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** ...... "[١] .

والفقه كما يدل عليه القرآن والسُّنَّة فقهان :

[١] **فقه في الكون** : أي الفهم عن الله فيما خلق ، الفهم لآيات الله في الأنفس والآفاق ولسُنَّته التي لاتتبدل في الكون .

[٢] **الفقه في الدين**: ويعني المعرفة التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحصة للإسلام من ينابيعه الصافية، بحيث يفهم فهمًا سليمًا خالصًا من الشوائب ، بعيداً عن الغلو والتقصير، مسترشدين بهدي الجيل الأول الذين كانوا أفهم الناس لمقاصد الإسلام،وأحرصهم على التزامه والعمل به، غير غافلين عمَّا تميَّز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير، مفرقين بين الكليات والجزئيات ، وبين الأصول والفروع من الأحكام، ومميزين بين ما شأنه الثبات والخلود وما شأنه المرونة والتغيير ، ومفرقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع .

---

(١) الجامع الصحيح . ٧١ و ٧٢١٢ .البخاري . درجة الحديث صحيح . متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه .

ومن الثابت أن دعوى تجديد دين الأمة الإسلامية على مرّ التاريخ الإسلامي هي دعوة واحدة في جوهرها ، حيث تلزم الدعوة المسلمين في كل عصرٍ بالرجوع إلى جوهر الإسلام وثوابته، وإلى ما كان عليه الصحابة ﷺ ، ونبذ كل ما علق بالدين وليس منه ، فدعوة تجديد الدين هي في الحقيقة دعوة سلفية ، وهي تأخذ لون عصرها وبيئتها وزمانها الذي تعيشه ، فالإسلام نزل للبشر وشمل الامتداد المكاني لجميع أقطار الأرض ، وامتد وشمل كل الزمان إلى قيام الساعة .

وفي كل مراحل التجديد نجد جميع العلماء يؤكدون استحالة الخلاف أو الصدام بين النظر العقلي والنظر الشرعي في الأمور القطعية .

(ب) ضوابط التجديد :

إن المجدد في الإسلام يتعدى نطاقه المحدود إلى الأفق الأوسع ؛ ليؤثر في مجريات الأمور والأحداث من حوله ؛ وليقود الأمة المسلمة في معركة الحياة ، ومن ثم يحدث التوازن في مسيرة الحياة البشرية كلها ؛ وليأخذ الإسلام دوره في الوجود ؛ لأن البشرية متلهفة إلى العدالة والإيمان .. أكثر من حاجتها إلى الطعام والشراب والهواء .

قال الرسول ـ ﷺ ـ : " **لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على تلك** " [١] .

قال الإمام النووي : " ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، ومنهم شجعان مقاتلون ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض.

وزاد الحافظ ابن حجر على كلام الإمام النووي ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً ، إلى أن لايبقى إلا فرقةً واحدة ببلدٍ واحدٍ فإذا انقرضوا جاء أمر الله [٢].

---

(١) الجامع الصحيح . البخاري . درجة الحديث صحيح . وله روايات أخرى بنفس المعنى بلفظ مختلف .
(٢) التجديد في الإسلام . ص ١٩ .سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي . شبكة الإنترنت .

وينقسم المسلمون في شأن التجديد إلى أصناف ثلاثة :

(١) **رافضي التجديد** :الذين يريدون أن يبقي كل قديم على قدمه . وحكمتهم المأثورة : " ما ترك الأول للآخر شيئًا " ! ، وشعارهم المرفوع " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ! ، وهم بجمودهم هذا يقفون في وجه أي تجديد ، ويعتبرون أن مجرد كلمة التجديد بالنسبة للدين هرطقة ، وهم ينقسمون إلى فرقتين :

الفرقة الأولى : فئة مقلدي المذاهب المتعصبين لها ، والذين يرفضون أي خروج عليها ، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا جماعة في هذا العصر ، إلا في إطار ما قررته مذاهبهم وحدها ، بل في حدود ما حرره المتأخرون من علماء المذاهب إلى أقوال وآراء أخرى داخل المذهب نفسه !.

والفرقة الثانية : هم "الحرفيين" الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص ، ولا يمعنون النظر إلى مقاصدها ، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات ، ونجد هؤلاء يقيمون معارك حامية من أجل أمور هامشية في الدين .وكلا الفريقين مخلصون للإسلام ، ولكنهم يسيؤون إساءات بالغة وقاتلة للإسلام [١] .

(٢) **ويقابل هؤلاء مجموعة «الغلاة في التجديد»** :الذين يريدون أن ينسفوا كل قديم كأنما يريدون أن يحذفوا " أمس" من الزمان . وتجديد هؤلاء هو التغريب بعينه ، وهم يدعون إلى اقتباس كل شيء من الغرب بخيره وشره ، وحلوه ومره .

(٣) **الفئة الثالثة وتقف في الوسط برفض جمود الأولين وجحود الآخرين:** تقبل التجديد وتدعوا إليه على أن يكون تجديداً في ظل الأصالة الإسلامية ، وهذا موقف دعاة الإسلام الحقيقيين ، وشعارهم" الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح ، الانفتاح على العالم دون الذوبان فيه ، التشديد في الأصول والتيسير في الفروع " [٢] .

---

(١) من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا . د/ يوسف القرضاوي . بيروت . المكتب الإسلامي، ط. ٢ ، ١٩٩٥م .

(٢) نفس المرجع السابق .

ويجب أن نعي أن الأخطار التي تواجه العالم الإسلامي من الدعوة إلى تجميد ما من شأنه التغيير والتطور والحركة ، هو ما يدفع المجتمع المسلم إلى مزيد من الانحطاط والشرود .وكذلك الدعوة إلى تطوير وتغيير الثوابت في الإسلام تقود إلى عزل الأمة الإسلامية تدريجيًا عن دينها والانسلاخ من العقيدة الإسلامية؛ فهم يريدون تطوير الدين نفسه ، أي تغييره. وكل هذه المحاولات لاشك أنها لاتصب في مصلحة الإسلام ، بل نشدد القول هنا: أن البشرية تكون أشد احتياجًا إلى الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ كلما توغلت في التطور المادي ، وكلما تقدمت خطواتها نحو العولمة ، وتناطح الحضارات والثقافات والمصالح .

ومن ضوابط التجديد :

[١] البعد عن منطقة القطعيات في الشريعة ، مثل وجوب الفرائض الأصلية : كالصلاة والزكاة والصيام ، وتحريم المحرمات اليقينية :كالزنى وشرب الخمر والربا، وأمهات الأحكام القطعية :كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن الكريم، وأحكام الحدود والقصاص،ونحو ذلك مما جاءت به النصوص القطعية فيه .وهذا ما يمثل الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة ،فلا يجوز أن يبحث باحثٌ مثلاً:

- هل يجوز السماح بالخمر أو الزنى من أجل زيادة السياحة ؟! أو نجمد الحج توفيراً للعملة الصعبة ؟! .
- أو تعليق الزكاة والاكتفاء بالضرائب الوضعية ؟! .
- أو تعطيل الصيام من أجل زيادة الإنتاج ؟! .... إلخ .

[٢] رفض اجتهاد التبرير للواقع إن جاز أن يطلق عليه اجتهاداً ،لأنه استسلامًا للواقع القائم في المجتمعات غير الإسلامية ؛ لإرضاء حاكمٍ ما ، أو دولةٍ ما ، أو ثقافةٍ ما : كاجتهاد الذين يحاولون منع الطلاق وتعدد الزوجات ، أو تسويغ الفوائد الربوية ... وغيرها ، بحجة أن الإقدام على تفسير كلام الله ـ عز وجل ـ لا ينبغي أن يكون حكرًا على أناس دون غيرهم من حيث هم أناس.، ذلك أن القرآن

جاء خطابًا للناس كلهم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وآرائهم ؛ إذًا فالإقدام على فهمه مهمة جميع هؤلاء الناس .

وهذه الدعوة تكون صحيحة ، غير أن الإقدام على هذه المهمة له شروط لا يرتاب فيها عاقل، ولا استغراب في ذلك، وهو كقولنا إن اقتحام علوم الطب وقواعده ، والتقدم بالوصفات العلاجية إلى المرضى ينبغي أن يكون حكرًا لمن تخصص بالطب ونال خبرةً كافية ، وعُرف بالإخلاص والأمانة فيه . ولننظر لأي فرد من البشر عندما يربط أحد كلامه الذي يقوله أو يؤلفه بمعانٍ متناقضة شتى ، حسب ما يروق له أو لغيره ويتفق مع رغبته ومزاجه ، ثم يصف هذه الفهوم المتناقضة كلها بالحقيقة والصواب ، فلا شك أنه سيشعر بالمهانة البالغة والسخرية ، فكيف يكون ذلك مع كلام الله ـ عز وجل ـ ؟ .

وقد أخبر القرآن الكريم والرسول ـ ﷺ ـ ، بأن هناك مذاهب فكرية شتى ستتبعثر منفصلة عن هدي القرآن وسُنَّة الرسول ـ ﷺ ـ .

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : " **افترقت اليهود على إحدى ـ أو اثنين ـ وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى ـ أو اثنين ـ وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة** " (١) .

[٣] أخذ الموقف الصحيح للإسلام الذي يجمع بين الثبات والمرونة في أحكامه وتعاليمه .

- الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة في الوسائل والآليات .
- الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة في الفروع والجزئيات .
- الثبات على الأخلاقيات والدينيات ، والمرونة في الماديات والدنيويات .

---

(١) رواه أبو داوود في السنن برقم (٤٥٩٦) ، والترمذي في الإيمان رقم (٢٦٤٢) ، وقال : حسن صحيح . ورواه ابن ماجة في الفتن مختصرا رقم (٣٩٩١) ، ورواه ابن حبان والحاكم، وصححه على شرط مسلم. ووافقه الذهبي رحمهم الله جميعًا ـ .

وهذا ماقال به الرسول - ﷺ - : " **أنتم أعلم بأمور دنياكم** " (١) .

ونجد الصحابة - رضي الله عنهم - يستنون أنظمة وأعمالا لم تكن في عهد الرسول - ﷺ - مثل تدوين الدواوين ، وجمع القرآن في مصاحف وتوزيعه على الأقاليم ، وتخصيص أناس لوظيفة القضاء وحدها ، وإدخال نظام البريد ، وغير ذلك من الأمور التي لاريب في فائدتها ، وقد سنّها الراشدون المهديون الذين تعد سنّتهم جزءاً من الدين يهتدى بها ، ويعض عليها بالنواجذ ؛ فالإسلام يرفض الجمود ويدعو إلى الحركة المستمرة الهادفة العاقلة .

ومن متطلبات التجديد أنه يصبح ضرورة ملحة عندما يتهاوى فكر ما من الداخل ، أو عندما تصيبه شيخوخة من داخله مما يتطلب معه تدخلاً سريعًا من أجل استئصال مواطن الضعف والمرض فيه ، بما يضمن له سلامة الاستمرار ، ونقصد هنا الفكر والفهم البشري ، والذي يكون في حاجة إلى الرجوع إلى ثوابت الدين الإسلامي حتى يصحح مساره ، لأن اية محاولة تجديد لكي تبقى في فلك الإسلام ولاتتجاوز حدوده فإنها ينبغي أن تتبع ثوابته واصوله .

قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

ومادام النص قد انتهى برسول الله - ﷺ - وقد أعلن اكتمال الدين مع وعد الله - سبحانه وتعالى - بحفظه وبيانه .

قال رسول الله - ﷺ - : " **.. بعثت أنا والساعة كهاتين " ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى" ، ويقول :أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ،وكل بدعة ضلالة ..** "(٢) .

ويتفق جميع العلماء أن أي تعديل من اي نوع في الإسلام كعقيدة فإن ذلك يعد انحرافًا ، ويدخل تحت باب الابتداع ، ولابد من وجود ضوابط وقواعد تحكم الفكر ، وهو ليس كمطلق الفكر ، وإنما هو فكرٌ ينتسب إلى الإسلام ، وهو دين

---

(١) رواه مسلم في الصحيح .

(٢) المسند الصحيح . الإمام مسلم . ٨٦٧ . درجة الحديث صحيح . من رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

الالتزام بالقواعد والأصول ، وكلما كان الفكر الإسلامي أكثر التزامًا بتلك القواعد والأصول كلما كان أقدر على التطور وعلى الإبداع ، إذ أن الإبداع لايعني مطلقًا الانفلات من ضوابط وقواعد الدين ، أو مجرد الخروج عليه . وهكذا نقرر أن ليس كل تجديد أو تطوير " ابتداعًا " ، كما أنه ليس مجرد التقليد يعد اتباعًا ، وتحديد ذلك راجعٌ إلى المحك الذي نقيس كل مسألة وفقًا له (١) .

(ج) شروط تتوفر في المجدِّد :

يحتج البعض بالقول المأثور : "لا رهبانية في الإسلام" بمعنى أنه لا وجود في الإسلام لنظام كهنوتي يمنع غير رجال الاكليروس - كما في المسيحية - من القول في الدين ، بيد أنهم ينسون أو يتناسون القاعدة الشرعية التي تجعل دعوتهم تلك صادقة باطلة ، وتلك القاعدة تقضي " بأن الله لا يُعبد بجهل " ومعناها : أن القول في الدين يستلزم التوافر على عدة معرفية ليست للجميع ، وإنما تكون للعلماء المتخصصين .

وهذه القاعدة يقوم معناها في حفظ الدين في جانبين هما :

[١] يتمثل في حفظ الدين من فتنة الجهال ، وأدنى خطرها خلط الشرع بما ليس فيه من الخرافة والشعوذ والبدع. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦].

[٢] حفظ الدين من خطر الغلو فيه ، وهو شَرَكٌ ما أكثر مايقع المؤمنون فيه ، بل إن الطريق الذي يسلكونه محفوف به ، وأكثر ما يكون الغلو في الدين بسبب الجهل بالشرع ومقاصده .

والغلو في الدين منهيٌ عنه بصريح القول ، وبالبيان التام في القرآن الكريم :
قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ . [النساء : ١٧١] .

---

(١) الفكر الإسلامي بين الابتداع والابداع . مقال د/ محمد احمد عبد القادر . عن الابتداع .. النشأة والتطور . شبكة الإنترنت .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾ [المائدة : ٧٧] .

وكما يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في "الاعتصام" : الغلو في الدين خروج على كمال الدين ، ومخالفة للنهج النبوي أحيانًا عديدة ؛ لأن بعض الصحابة هَمَّ أن يُحرِّم على نفسه النومَ بالليل ، وآخر الأكل بالنهار ، وآخر إتيان النساء ، وبعضهم هَمَّ بالاختصاء مبالغة في ترك النساء" ، وفي أمثال ذلك قال النبي ـ ﷺ ـ : **«من رغب عن سُنَّتي فليس مني»** .

وما نريد أن ننبه عليه من الغلو ومعناه وخطره، هو أن الغلاة بمختلف أصنافهم هم أول من يكونوا فاقدين للأهلية والشرعية في القول في تجديد دين الأمة الإسلامية؛ذلك أن التجديد على الحقيقة انفعال مع العصر واستجابة لمقتضياته، وإرادة لجعل المسلمين في حال من القدرة على الانخراط فيه، مع التمسك بثوابت الدين ،والحال أن الغلاة أشد مايكونون انصرافًا عن العصر وأهله،وابعد عن معنى التجديد ودواعيه،وهم لايختلفون كثيراً من حيث الإضرار بالإسلام والمسلمين عن أولئك الذين يدفعون بحديث التجديد إلى حد ينال من أركان الدين وثوابته.

فإذا أقصينا من دائرة الشرعية للتجديد هذين الطرفين القصيين ـ الجهال والغالين ـ ، فإن مجال التطلع إلى التجديد وإرادته قولاً وعملاً يتسع ليشمل علماء الدين الأثبات المتخصصين دون غيرهم .

و نحن بحاجة هنا إلى وضع الضوابط والاحترازات المفيدة من ناحية علمية حول شخص المجدِّد وما يتوفر فيه من شروط؛بحيث نستطيع أن نميزّ الأصوات المحقة من الأصوات المبطلة،ولا يلتبس علينا هذا بذاك،ومن هذه الشروط ما يلي :

[١] شروط علمية وثقافية مثل اللغة العربية وعلومها،والعلم بالكتاب والسُّنَّة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن ، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها . . . إلخ .

يقول العظيم آبادي : إن المجدد للدين لابد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة ، وناصرًا للسُّنَّة قامعًا للبدعة [١] .

[٢] معرفة الناس وأمور حياتهم ، والواقع الذي يعيشونه ، وإلمامه بثقافة عصره .

[٣] يجب أن يكون عدلاً مرضي السيرة ، يخشى الله فيما يصدر عنه ، ويجب أن يكون متحرراً من الخوف بكل ألوانه .

يقول العالم الجليل أبو الأعلى المودودي : من الخصائص التي لابد أن يتصف بها المجدِّد هي : صفاء الذهن والبصر النافذ ، والفكر المستقيم بلا عوج ، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط ومراعاة الاعتدال بينهما ، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة والعصبيات الراسخة على طول القرن ، والشجاعة والجراة على مزاحمة سير الزمان المنحرف [٢] .

[٤] إن التجديد لابد أن ينطلق من وضوح في الاعتقاد والإيمان ، والأسماء والصفات والعبادة والتشريع ، بحيث ينطلق من سُنَّة الرسول ـ ﷺ ـ ، وهو المنطلق الأساسي للتجديد ، فالدين ليس عاطفةً هوجاء تقول لا تفرقوا الصف ، ولا تكفروا المسلمين . والدين ليس تصفيقًا لكل من يهتف باسم الإسلام ، ولو كان يرفع راية الإسلام بيد ، ويسعى بالأخرى للإجهاز عليه . فالدين وحيٌ منزّلٌ مضبوط محفوظ يُحتكم إليه في تقويم الناس ، والمجدد يُحيِي ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة .

[٥] لابد في المجدِّد من العلم الشرعي الصحيح، واشترط البعض " الاجتهاد " كشرط أساسي للمجدِّد ، وإن كان اشتراط الاجتهاد ليس عليه دليل . وكونه

---

(١) عون المعبود شرح سنن ابي داود . ١١ / ٣١٩ . محمد شمس الحق العظيم آبادي . تحقيق / عبد الرحمن بن محمد بن عثمان . بيروت : دار الكتب العلمية . ط١ .

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . ص٥٢ ابو الاعلى المودودي . الدار السعودية للنشر والتوزيع .

طويل الباع في العلوم ، وواسع الخطو في جميعها ، فهذا ضروري للتجديد ، لأن من مهمات التجديد العمل بالسُّنَّة ، والتصدي للبدع .

[٦] أن يكون المجدِّد صاحب إرادة في التغيير فاعلة وثابتة ، فهو يرفض الواقع المنحرف ، أما الذين يرتضون الواقع السيء ويباركونه ويرون أنه أزهى عصور الأمة ؛ فهيهات أن يكونوا من التجديد في شيء .

[٧] أن يكون المجدِّد موضوعيًا في دوافعه ورغائبه في تفسير كتاب الله ـ عز وجل ـ ، وليس مدفوعا ابتغاء العبث أو تسريب فساد .

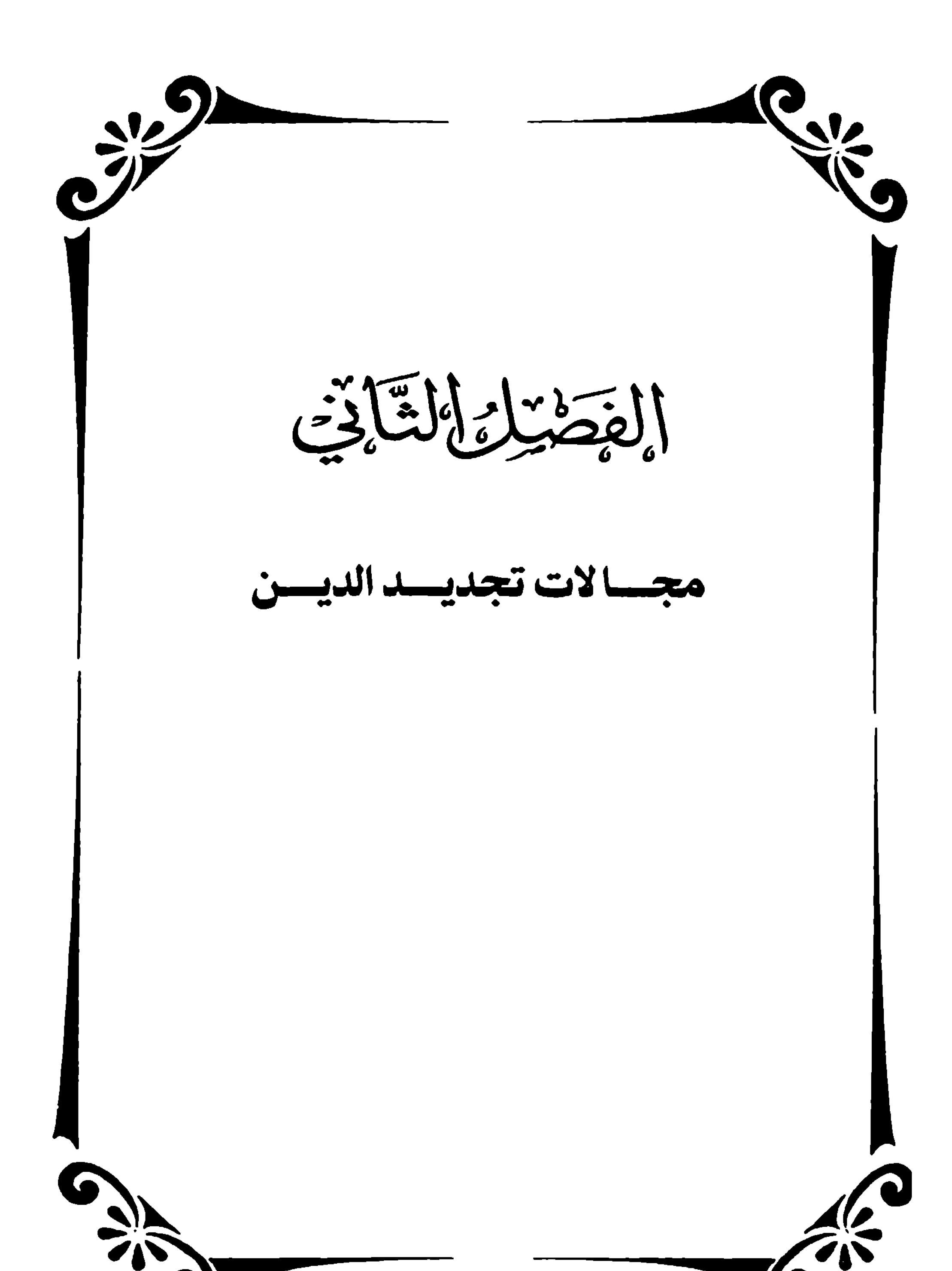
[٨] أن يشمل تجديده معاني الفكر والسلوك في المجتمع ، وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التي ينبغي أن يقوم بها المجدد ، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر .

[٩] أن يعمّ نفعه أهل زمانه ، وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية تمتد قرنا من الزمن ، فلابد إذن أن يكون منارةً يستضيء بها الناس ، ويسترشدون بهداها[١] .

[١٠] ويمكننا أن نضيف هنا هذا الشرط " أن يلم المجدِّد بكل جوانب مجال التجديد الذي يتناوله " .



(١) من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا . د/ يوسف القرضاوي . بيروت . المكتب الإسلامي، ط ٢ ، ١٩٩٥م .



الفصل الثاني

مجالات تجديد الدين

الفصل الثاني

مجالات تجديد الديـــن

من الثابت لدي كافة المسلمين أن الرسول ـ ﷺ ـ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية ، والذي انقطعت بعده علاقة السماء بالأرض عن طريق الوحي الإلهي ، وأن الدين الإسلامي جاء للبشرية جمعاء ، فهو عالمي بالمعنى الأوسع للكلمة ، فهو لكافة البشر إلى قيام الساعة ، وهذه الحقائق لاخلاف عليها بين من يدينون بدين الإسلام .

ولما كان الأمر كذلك اقتضت حكمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل معجزة القرآن الكريم خالدة ، ودليلٌ قائمٌ على صدق الرسول ـ ﷺ ـ وعلى صحة الدين الإسلامي ، وأن شريعته من عند الله ـ عز وجل ـ؛ لذلك فمعجزة القرآن الكريم تخاطب العقل الإنساني وتقنعه، ولا تجعله يقف أمامها مشدوهًا أو متعجبا كما كان الحال في كافة معجزات الرسل قبل النبي محمد ـ ﷺ ـ فقد كانت فوق قدرة العقل ، وفوق تصوره ، أما القرآن الكريم كلام الله ومعجزته إلى خلقه فهو كامل متجدد بذاته يثبت إعجازه واستمراريته على مرّ العصور ؛ حيث يكشف عن معجزاته كلما تطور العقل االبشري ، وكلما وصل العلم باكتشافاته إلى مراحل أعلى ، ويكشف عن قدرته التشريعية والتربوية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان بتصوير كامل لم يعهده الفكر البشري . وقد وضع الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم هذه القدرة ، والتي تظهر معجزة القرآن الكريم على مرّ العصور ، وأنه دين الله للبشرية جمعاء ، وهذه الحقيقة لايكابر فيها إلا حاقد أو متكبر أو جاهل .

وقد وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده في كتابه الحكيم وسُنَّة رسوله الكريم الشريعة التي لايصلح المجتمع في كل مراحل تطوره وصولاً للمجتمع العالمي المتعدد القوميات والديانات واللغات إلا بها .

والشريعة الإسلامية تستمد إعجازها وخلودها من إعجاز الدين ومن خلوده ، وقد حوت الشريعة الإسلامية الأسس والقواعد العامة في "نسيج رباني " ، وتركت للمسلمين ـ العلماء المتخصصين ـ أن يستنبطوا قوانينهم وتشريعاتهم وأفعالهم من خلال تلك الأسس والقواعد العامة للإسلام ، بحيث لا تناقضها أو تشذ عنها، وليس ذلك قهراً ، أو تسلطًا على العقول ، ولكن لأن حياة البشر وأمنهم وسعادتهم لا تتحقق إلا بها ، وهذه الحقيقة اضحت واضحة لامكابرة فيها ، ولا جدال حولها إلا لمصالح آنية قاصرة ، والبشر كلهم مضطرون إلى ذلك عاجلاً أم آجلاً. وحتى لايدَّعي البعض أن حديثنا هذا مجرد كلمات أو خطاب عاطفي ، وحتى تطمئن قلوب المسلمين إلى حقيقة أن الإسلام سوف يسود كما وعد الله العلي القدير ، وكما قال رسوله الكريم الذي لاينطق عن الهوى ـ ﷺ ـ ؛ يجب أن نلمس فكر وفلسفة الغرب ، والتي تسير دولها وتبرر أفعالها ، وتؤكد صدق دعوة الإسلام .

فنجد فلسفة "هيجل" قد غلبت التغيير على الثبوت ، فالجديد يقضي على القديم تماما حتى ولو كان الموروث من الثوابت الدينية والأخلاقية ، وقد جعلت " الصراع " هو قانون " الفكر " ، فهي تؤيد وتبرر سحق أديان وموروثات الأمم في الثقافة والحضارة .....إلخ

ثم جاءت الداروينية ـ نسبة للعالم دارون ـ ورأت أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون "تنازع البقاء" ، وفي هذا التنازع قانون يقضي "بأن البقاء للأصلح" ، والأصلح هو الأقوى عندهم ، والفناء للضعيف .

فبررت غلبة القوة وحدها ، فالاستعمار الاستيطاني الذي يبيد السكان

الأصليين - كم في حالة الهنود الحمر- تبرره " الداروينية " ! وكذلك تبرر كل عمليات الاستعمار ، وما ارتكبه من مجازر وعمليات سلب ونهب للدول الضعيفة ، وكذلك تبرر الاعتداء على الفلسطينيين وطردهم ، إلى غير ذلك من الأعمال الغير إنسانية والغير أخلاقية التي تنتظرها البشرية ! فالداروينية جعلت " الصراع " قانون الطبيعة .

ثم جاء " ماركس " وقرر أن " الصراع الطبقي " قد أصبح هو القانون الذي يحكم التطور ، بل اعتبر " التناقض والصراع " هو المطلق الوحيد ، وكل ما عداه فهو نسبي، يزيد وينقص ، بل ويزول بتغير الظروف والملابسات ! كما أنكر الأديان تماماً .

فإذا تأملنا فكر وفلسفة العقول التي تقود تلك الحضارة الحديثة وما نشأ وينشأ عنها في فكر السوق والتنافس ، وتضارب المصالح مع وجود القوة العسكرية المدمرة بيد معظم أطراف الصراع ، أدركنا الخطر المحتوم والمصير المجهول للبشرية كلها ، و أيقن العالم أجمع وليس المسلمون فقط أن الجميع في أمسّ الحاجة إلى الدين الإسلامي " عقيدته وشريعته " ؛ لذلك وجدنا مؤلفات مفكري وفلاسفة الغرب يتحدث عن: "صراع الحضارت" ،"نهاية العالم"،"نهاية التاريخ" ، وتتناول رواياتهم الأهوال التي ينتظرها العالم في المستقبل القريب ، لذا فإن المسلمين مطالبون أكثر من أي وقت مضى للقيام بدورهم التاريخي والمصيري والذي ابتعثهم الله من أجله وبشرهم به .

قال تعالي : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

فدور الإسلام هو قيادة البشرية في عولمتها المقبلة عليها ، وهو النتيجة المباشرة عندما تجدد الأمة الإسلامية دينها .

والتجديد في الدين ليس فكريا فحسب كما يدور في فهم الكثيرين ، ولا ريب أن تجديد الفكر وإحياء الاجتهاد وتصحيح الفهم يأتي في طليعة التجديد المنشود ؛ فإن العلم يسبق العمل ، والفكرة تسبق الحركة ، ولكن التجديد يكون في ميدان الفكر ، والعمل ، والحكم ، والجهاد ... إلخ .

فقد يكون تجديد الولاة ببعث روح الجهاد في الأمة وإعادتها إلى عز بعد ذل ، وهيبة وكرامة بعد إهانة .

ومن الأمثلة البارزة على التجديد الذي يكون ببعث روح الجهاد في الأمة :

❁ ما قام به الملك المجاهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي . ٥١٠ هـ : ٥٦١ هـ .

❁ وما قام به بعده الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي . ٥٣٢هـ ـ ٥٦١ هـ .

❁ وتجديد الدين ثابت بالنص والاجتهاد مع علو شأنه فرعاً منه ، ولوناً من ألوانه ، فالاجتهاد في الجانب الفكري والعلمي ، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري ، والجانب الروحي ، والجانب العملي ، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام وهي " العلم ، والإيمان ، والعمل " .

❁ والتجديد يكون في مجال الدعوة والثقافة والفقه ، والتربية والتكوين والاصلاح الاجتماعي ، والمجال الاقتصادي ، والمجال السياسي . فاختلاف مجالات التجديد هواختلاف تنوع وتخصص لا اختلاف تضاد وتناقض ، فيكمل بعضها بعضًا ، ويشد بعضها أزر بعض ، وحتى لاتختلط الأمور على البعض فنوضح لهم أنه ليس من مجالات التجديد الأمور التالية :

[١] الطريق الذي سلكه الفيلسوف الهندي المسلم محمد إقبال . والنتائج التي توصل إليها في محاضراته " تجديد الفكر الديني في الإسلام " ليست إلا تفسيرا كليا للدين بمجموع مكوناته : الألوهية ، النبوة ، البعث ، الجزاء ... إلخ

فهذا التفسير الذي يلتقي في معظمه مع مذهب الفلاسفة الاتحاديين الذين يرون الخلق مظهراً يتجلى فيه الخالق ، ليس تجديداً للعقيدة أو كما سماها : " الفكر الإسلامي " .

[٢] وكذلك ليس من التجديد في الدين ذلك المنهج الإسلامي الذي اختطه بعض الدعاة استجابة للضغوط الواقعية والمتغيرات الاجتماعية والدولية ـ كما زعموا ـ واقتنعوا بموجبه بضرورة استبعاد بعض القضايا الشرعية والعقدية المسَلَّم بها لدى الأمة وعلمائها منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم حتى اليوم، ثم رأوا أنه لايستقيم منهجهم إلا إذا هدموا الأسس التي بنيت عليها تلك القضايا ؛ ليتسنى لهم أن يتحركوا بحرية ؛ فرفعوا عقيرتهم بالمطالبة بتجديد هذه الأسس، وتلك الأصول . فلابد في نظرهم من إعادة النظر في (أصول الفقه ، أصول الحديث ، علم الجرح والتعديل) ، بل من إعادة النظر في العقائد الإسلامية ، وإخضاعها للنظرة العقلية المعاصرة . وسوف نخصص لهم فصلاً للرد عليهم موضحين خطأ مذهبهم وحقيقة فكرهم [١] . ونتناول هنا بعض مجالات التجديد .



(١) التجديد في الإسلام . ط ٤ . الرياض . المنتدى الإسلامي . ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

المبحث الأول التجديد في الفقه

إن الإسلام هو كلمة الله الخاتمة ، وآخر اتصال بين السماء والأرض عن طريق الوحي . ولقد اقتضت هذه الحقيقة صلاحية الإسلام لكافة المجتمعات وكافة العصور، فامتدت رسالة الإسلام طولاً فشملت آباد الزمن ، وامتدت عرضًا حتى آفاق الأمم ، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة التي جاءت لبناء الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة بناءً فكرياً بالعلم النافع ، وبناءً روحياً بالتزكية والتطهر والتحلق والتحقق ، وبناءً جسديًا بالعافية ، وبناءً وجدانيًا بالقيم الجمالية التى تسمو بها الإنسانية ، وبناءً خلقيًا يجسد معاني الإسلام على أرض الواقع سلوكًا حيًّا .

هذا هو الإسلام من نبعه الصافي عن نبينا - ﷺ - عن جبريل عن رب العالمين - سبحانه وتعالى - سنداً صحيحًا عاليًا ، كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -.

وخاصية التجديد لدين الأمة الإسلامي هي خاصية ملازمة له بحكم صلاحيته لكافة البشر في كل أصقاع الأرض ، ولكافة الأزمان .

والإسلام على مرّ العصور يفرز علماء مخلصين يظهرون حجة الله على البشرية؛ ولتكون الأمة الإسلامية شهداء على الناس يوم القيامة ، كما قال قرآننا المجيد .

فتجديد دين الأمة لم يتوقف، وإن اختلف في مراحله ، وهذه طبيعة البشر في كل أمور حياتهم . والتجديد في دين الأمة الإسلامية والدعوة إليه ليست بدعًا من القول ، فقد أرشدنا الرسول - ﷺ - إلى هذه الحقيقة، قال رسول الله - ﷺ - : " **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** "[١] .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . ناصر الدين الألباني . رقم ٥٩٩ . وسند الحديث صحيح ، رجاله ثقات، رجال مسلم ، ولذا صححه غير واحد . الرياض : مكتبة المعارف ١٩٩٦ م.ط١ .

وقد تناقل سلفنا الصالح وعلماؤنا الأثبات هذه الحقيقة على مر العصور ، وقاموا بها على خير وجه ، وخلفوا ميراثا من العلم لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل له نظيراً .

وفي عصرنا الحاضر بدأت تطل من نواحي الأرض دعاوى لتجديد دين الأمة الإسلامية منها المخلصة ـ علماؤنا الأثبات ـ وهم سائرون على درب السلف الصالح ، ومنهم الجهال القاصرون ، ومنهم المغرضون الحاقدون .

وإذا كان العصر الحديث وطبيعة التطور الذي نعيشه يفرض علينا بإلحاح القيام بمهمة التجديد ، فإنه يفرض علينا بصورة أقوى وأشد العودة إلى الثوابت الإسلامية ، والتشبث بها وعدم الحيدة عنها ، والانطلاق منها للتعايش مع العصر الذي نعيشه،وعدم الاندفاع نحو تيار الحضارة الغربية الحديثة ومغرياتها الكثيرة.

وبدايةً نتناول هنا وباختصار الحديث حول علم الفقه :

أولاً : علم الفقه :

وعلم الفقه عبارة عن إدراك الأحكام الشرعية العملية من الأدلة التفصيلية ، أو هو مجموعة الأحكام الشرعية المستفادة من أدلتها التفصيلية .

❁ **والقواعد الفقهية هي :** مجموعة من الأحكام المتشابهة التي ترجع إلى قياس واحد يجمعها ، أو إلى ضابط فقهي يربطها ، فهي بمثابة النظريات العامة للفقه الإسلامي ؛ إذ هي في مضمونها جامعة لأحكام جزئية ، وذلك مثل : قواعد الملكية في الشريعة ، وقواعد الضمان ، وقواعد الفسخ وغيرها .

❁ **وموضوع علم الفقه هو :** الحكم في كل جزئية من أعمال الناس بالحل ، أوالتحريم ، أو الكراهة ، أو الوجوب ، أو الاستحباب ، وما يعتري الأحكام من صحة وفساد .

فالفقيه يبحث مثلا في: صلاة المكلف وصومه وزكاته وحجه من حيث الصحة وعدمها .

- والفقه يستمد أدلته من الكتاب والسُّنَّة والاجماع والأدلة التبعية الأخرى.
- وأما الغاية من الفقه فهي معرفة أحكام المكلفين من حيث الوجوب والحرمة والكراهة ، أو الندبية ، أو الإباحة ، ومن حيث الصحة والفساد ، ومن حيث كونها رخصة ، أو عزيمة فيقع ذلك على الوجه المطلوب قصد الفوز بنعيم الدنيا ، وسعادة الآخرة .

وحتى يميز الخبيث من الطيب في هذا الباب ـ تجديد الفقه ـ ، وحتى يلتزم المعاندون والحاقدون حد الأدب ، ويدرك الجهال الحقيقة ؛ يجب أن يعلم كافة المسلمين أن الدين الإسلامي في ثوابته وفي أصوله وجوهره ليس فيه تجديد ،فهذه الثوابت هي النسيج الرباني الذي يملك وحده خاصية الاستمرار والصلاحية ، وأما في جانب المتغيرات والفروع فالمجال مفتوح وفق ضوابط الأصول والثوابت . وهو ما نتناوله بالتوضيح لتتم الفائدة به ـ إن شاء الله تعالى ـ .

ثانياً : الثوابت والمتغيرات :

اشتملت الشريعة ـ ذات المصدر الإلهي ـ على أحكام ثابتة لا تتغير، وأحكام قابلة للتغير والتطور ؛ تحقيقًا لمبدأ مرونة الشريعة ، وإعمالاً لعقول علماء الأمة ، وانسجامًا مع تغير الأعراف والمصالح ، ووفاءً بحاجات الناس ؛ لتصبح الشريعة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان [١] .

و الثابت من الشيء هو الذي يفيد الديمومة والبقاء واللزوم والاستمرار، قال تعالى : ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم:٢٤] ، وأما المتغير يفيد التحول من حالة إلى

---

(١) تجديد الفقه الإسلامي . د/ جمال عطيه و د/ وهبه الزحيلي . ص ١٧٢ . الكلام لـ د / وهبه الزحيلي . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر ٢٠٠٠ م. ط١ .

حالة سواءً كانت حالة ظرفية مكانية ، أو زمانية تتعلق بالبيئات والعوائد وتتعلق بالأعراف والمصالح .

والثوابت هي الأمور الكلية والأصول المجمع عليها ، والتي لا يجوز الخلاف فيها ، أما المتغيرات فالمراد بها الأمور الجزئية الاجتهادية التي يجوز الخلاف فيها بين العلماء ، وضابط ذلك أن ما كان فيه نص غير محتمل أو إجماع فهو من الثوابت ، وما لم يكن فيه نص أو إجماع فهو من المتغيرات ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، فأكثر مسائل العقائد هي من الثوابت ، وأكثر مسائل الأحكام هي من المتغيرات (١) .

والسؤال هنا :

هل هذا المصطلح ـ الثابت والمتغير ـ هو نبت واقعنا اليوم جراء هذه التحديات، أم أن لهذا المصطلح من أصولنا الشرعية وقواعدنا الكلية ما يسنده؟ .

وحتى لانبادر بالإنكار فإن رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ أشار في محكم التنزيل إلى أنه أنزل الكتاب منه آيات محكمات،وأُخر متشابهات .قال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾** [آل عمران ٧] .

مُحكمات تعبر عن الأصول القطعية التي تمثل الوحدة الفكرية ، وتمثل الأرضية المشتركة الجامعة .

وأُخر متشابهات التي تحتمل أكثر من وجه في التفسير يتعدد فيها الاجتهاد ، ويتنوع فيها النظر (٢) .

ونجد أن السلف الصالح من أهل العلم والأصول والتحقيق والنظر قد أشاروا

---

(١) وللوقوف على الأمثلة راجع كتب العقائد وكتب الأحكام ، مثل كتاب : « العقيدة الطحاوية » في العقائد ، وكتاب : « بداية المجتهد » في الأحكام .

(٢) محاضرة " الثوابت والمتغيرات في المنهج الإسلامي " . معالي د/ عصام البشير . وزير الشؤون الإسلامية بالسودان . بتصرف . تحميل الندوة من شبكة الإنترنت .

إشارات وإن اختلفت في الألفاظ إلا أنها تدل على المضمون .

وقد فرقوا بين نوعين من الأحكام :

[١] الأحكام الأصلية الثابتة ثبوت الجبال الراسيات ، وقالوا هذا الدرب من الأحكام لامعنى فيه لتبدل الزمان وتغير الأحوال .

[٢] الأحكام التي بنيت على المصالح والاجتهاد والعلل الظرفية والأعراف ، والعوائد التي لم ينشئها الشرع ، وقد أشار إليها الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات" ، وأشار إلى ذلك الإمام العز بن عبد السلام - رحمه الله - في "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" ، وأشار إلى هذا الإمام المحقق المالكي "شهاب الدين القرافي" - رحمه الله - قال : إن الأحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيفما دارت ، وتبطل معها إذا بطلت ، كالنقود في المعاملات ، والعيوب في الأعواض ونحو ذلك ، فلو تغيرت العادة في النقد والسكة إلى سكة أخرى ، يحمل الثمن في البيع على السكة التي تجددت العادة بها دون ما قبلها... وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام ، فمهما تجدد العُرف فاعتبره ، ومهما سقط فاسقطه ، ولاتجمد على المسطور في الكتب طول عمرك ، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لاتجره على عرف بلدك ، واسأله عن عرف بلده ، وأجره عليه ، وأفته دون عرف بلدك ، والمقرر في كتبك ، فهذا هو الحق الواضح .

والجمود على الدين أبداً ضلال في الدين ، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضيين [١] .

وأشار إلى هذا الإمام ابن القيم - رحمه الله - في مقدمة الجزء الثالث في كتابه "إعلام الموقعين عن رب العالمين" .

" فصل في تغيير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والأحوال والعوائد والنيات " .

---

(١) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام . ص ١١ . شهاب الدين القرافي . تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة . بيروت : دار البشائر الإسلامية .

قال فيه :

هذا فصلٌ عظيمُ النفع جداً ، وقع بسبب الجهل به غلطٌ عظيم في الشريعة ، أوجب من الحرج والمشقة ، وتكليف ما لا سبيل إليه ، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به ، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجَور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله - ﷺ - أتم دلالة وأصدقها . ومن أفتى الناس بمجرد المنقول من الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضلَّ وأضل ، وكانت جنايته على الدين أعظم مِن جناية مَن طب الناس كلهم - على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم - بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم ، بل هذا الطبيب الجاهل ، وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم ، والله المستعان [١] .

أي أن الفتوى تتغير بتغيير الظروف والأحوال والعوائد والأمكنة والمقاصد ، وساق ما يقرب من مائة مثال على مشروعية هذه القاعدة النافعة صاغها بروعة أسلوبه ، وقوة منطقه ، ونصاعة حجته .

وقال أيضا : " حيثما وُجدَت المصلحة ، أو وُجدَت أماراتُ العدل ، وأسفر عن وجهه فَثَمَّ شرع الله ودينه " . ووجدنا ذلك أيضًا عند العلامة - الحنفي المذهب - ابن عابدين - رحمه الله - في " نشر العرف فيما بني من الأحكام على العرف " ،

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية . ٣ / ١٤ . ابن قيم الجوزية . بيروت : دار إحياء العلوم . قدم له وراجعه . بهيج غزاوي .

وشرح القواعد الفقهية للزرقا " ص ٢٢٧ " ، وفي مجلة الأحكام العدلية المادة ٣٩ "قاعدة " لاينكر تغير الأحكام بتغير الزمان " .

وهذه القاعدة إحدى القواعد المتفرعة عن قاعدة " العادة محكمة " .

وأشار إلى ذلك الكثير من العلماء الأثبات . ولكن ما تجدر الإشارة إليه هو أن الفهم الدقيق لأسس تلك الأحكام في كونها عرفًا لا نصًا ، وأن ذلك العرف قد تغير ، ثم استنباط حكم جديد بحسب العرف الجديد ، كل هذا لابد له من مجتهد يقوم به .ـ وتجنيبًا للأحكام الشرعية من الأهواء والأخطاء الفردية قال العلماء : ينبغي أن يكون الاجتهاد في هذا النوع من الأحكام اجتهادًا جماعيًا وليس فرديًا ، فالجماعة أكثر دقة من الفرد ، وأكثر قربًا إلى الصواب ، وأقل احتمالاً في الخطأ .

ومن الأمثلة على تغير الحكم لتغير عُرفه ، أن النبي ـ ﷺ ـ فرض صدقة الفطر صاعًا من تمر ، أو صاعًا من شعير ، أو صاعًا من زبيب ، أو صاعًا من أقط ، وهذه كانت غالب أقواتهم في المدينة ، فإذا تبدّلت الأقوات أعطي الصاع من الأقوات الجديدة .

إذًا فهذا التعبير وهذا المصطلح ليس بدعا من الزمان ، ولا شاذًا من الآراء والأمثال ، بل له أصوله ومنطلقاته الشرعية ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى استقرار المعاني المتعلقة بهذا الأمر ؛ حتى لايقع الاختلال في مسيرة الدعوة ، وحتى لايقع الاضطراب في مناهج العاملين في الحقل الإسلامي في إطار الدعوة ؛ لأن من الخطورة بمكان أن يتحول الثابت إلى المتغير ، أو نجعل المتغير في إطار الثابت .

فلقد اضطرب حال الأمة الإسلامية بين الذين جعلوا الإسلام كله في أحكامه الأصلية والفرعية هي من الثوابت التي لاتتغير ولاتتبدل ، فضيقوا ما جعله الله واسعًا ، وأوقعوا الأمة في الحرج والضيق والعسر والمسغبة . وهم أهل الانكفاء

والتقوقع الذين حصروا كل القيم في دائرة الثوابت ، واعتبروا أن الدعوة إلى استيعاب المتغيرات هي نوع من التحلل من أصول الشريعة ومحكماتها .

ووجدنا في الطرف الآخر من ميع الثوابت ، وجعلها مطاطة رجراجة قابلة لأن تتحول مع ضغط الواقع ، ومع تحديات الحضارة المعاصرة تحت باب التجديد والتحديث ، ومنه دخل المغرضون والحاقدون على الإسلام لمحاولة هدمه وهدم المجتمعات الإسلامية ، ووقعنا فيما يسمى " بالتغريب " تأثراً بالوافد شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وتحت باب المعاصرة أراد هؤلاء أن يجددوا كل شيء كما عبر عنهم مصطفى صادق الرافعي ـ أديب العربية ـ قائلاً : إنهم يريدون أن يجددوا كل شيء ، الدين ، واللغة ، والشمس ، والقمر " ، وحتى قال شوقي فيهم :

لاتحذوا حذو عصابة مفتونة	يجدون كل قديم منكر
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عمر
من كل ساع في القديم وهدمه	وإذا تقدم للبناية قصر

فضاعت القضية بين إفراط هؤلاء وتفريط أولئك، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه ، وإذا أردنا أن نحدد معايير موضوعية للثابت والمتغير لابد أن ننطلق من نصوص الكتاب الكريم وصحيح السُّنَّة المطهرة ،وما أجمع عليه نظار الأمة ومجتهدوها .

[أ] الأحكام الأصلية الثابتة :

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب ، وإذا أردنا أن نضع هذه المحكمات في عناوين نقول : إنها تقع في خمسة أبواب تشكل جماع الثوابت وهي (١) :

(١) **الأصول العقائدية :** فالعقيدة التي هي المدخل الفاصل بين الإيمان

---

(١) محاضرة " الثوابت والمتغيرات في المنهج الإسلامي . بتصرف . معالي د/ عصام البشير . وزير الشؤون الإسلامية بالسودان . تحميل المحاضرة من شبكة الإنترنت .

والكفر ، وبين الجنة والنار . كوجوب الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

(٢) **المقاصد الكلية:** نحن نعلم أن الأمور التي جاءت الشريعة لرعايتها هي: جاءت لحفظ الدين الذي هو قوام حياة الإنسان وفلاحه وسعادته في الدارين ، وجاءت لحفظ النفس ، وجاءت لحفظ العقل الذي هو مناط التكاليف ، وجاءت لحفظ المال الذي به قيام وقوام حياة الإنسان ، وجاءت لحفظ العرض ، ولحفظ النسل . وهذه هي المقاصد الكبرى التي جاءت الشريعة لرعايتها ، ووضعت من الأحكام والقواعد ما يصون هذه المقاصد ، وهي إما أن تكون : مقاصد حاجية لرفع الحرج ودفع المشقة ، وإما أن تكون : مقاصد تتعلق بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات . فالمقاصد الكلية كالعدل ، وكرامة وحرية الإنسان وأمنه كلها من المقاصد التي جاءت الشريعة لرعايتها وتثبيتها .

(٣) **الأحكام القطعية :** والحكم القطعي هو الذي ثبت بدليل قطعي في كتاب الله ـ عز وجل ـ ، أو في سُنَّة النبي ـ ﷺ ـ ، وأجمعت عليه الأمة أنه لايحتمل أكثر من وجه في التفسير .

(٤) **الفرائض الركنية :** وهناك فرائض تتعلق بالفرد والأسرة والجماعة والدولة والأمة . هذه الفرائض الركنية هي مما جاءت الشريعة لتثبيتها ، ولا معنى فيها لتبدل الزمان .

(٥) **القيم الأخلاقية :** وهي التي تتعلق بأخلاق الناس ، كالصدق والوفاء بالعهود واحترام المواثيق وأداء الأمانة ، كل ذلك مما بعث النبي ـ ﷺ ـ ليتممه في حياة البشر ، قال ـ ﷺ ـ : " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " (١) .

---

(١) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف . ابن رجب الحنبلي ٣٠٥ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . ناصر الدين الألباني ٤٥ . الرياض : مكتبة المعارف . ط١ . ١٩٩٦ م . درجة الحديث صحيح .

بل إن القيم الأخلاقية هي الثمرة الحقيقية لدلالة الإيمان والانعكاس الحقيقي للإيمان في الحياة . فالإيمان ليس دعوة باللسان ترددها الأفواه ، وإنما هو نية تنعقد في القلب ، وكلمات تنطق بها الألسنة ، وأفعال تدل عليها الجوارح ويؤيدها السلوك العملي ؛ ولذلك قال رسولنا الكريم ـ ﷺ ـ : **" وما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق "** [١] .

هذه هي معاقد أصول الدين ، هذه هي كلياته ومحكماته وثوابته وقطعياته ، والتي تمثل أرضية جامعة ووحدة في التصور الاسلامي لاتختلف بين عصر وعصر ، وبيئة وبيئة ، ومكان ومكان ، وجنس وجنس .

والسؤال هنا : هل يقتصر أمر الدين على هذه المجامع والكليات ، أم أن هناك دائرة أرحب ؟

[ب] المتغيرات :

أي الأحكام التي بنيت على المصالح والاجتهاد والعلل الظرفية والأعراف والعوائد التي لم ينشئها الشرع .

ونحن نعلم ما قرره علماؤنا أن النصوص متناهية ، وأن الحوادث متجددة ، وأن التجارب في اضطراد .

فإذا قلنا شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان ، فإن هذا الإجمال يحتاج إلى إبانة ، ويحتاج إلى تفصيل ، إن رعاية الشريعة للزمان والمكان لابد أن تكون مصطحبة معه من القواعد الكلية والنصوص الجزئية ما يستوعب هذا التغيير الذي يطرأ على مسيرة البشرية ؛ فكان من حكمة الله أن جعل من الأخر متشابهات ، وأن جعل من القواعد الكلية العامة ما يكمل دائرة الثوابت ، أو ما يعبر عنه العلماء بالظنيات ، والظنيات تحتاج أكثر من وجه في التفسير ، فالقرآن

---

(١) سُنن ابي داود . ٤٧٩٩ ، الآداب الشرعية . ٢ / ١٩٥ ابن مفلح . بيروت : دار الجيل . ط ١ . ١٩٩٧ م . حققه وعلق عليه : عصام فارس الحرستاني . وللحديث روايات عديدة بلفظ مختلف .

نزل بلسان العربية وبخطابها وبدلالتها .

ونحن نعلم أن العربية فيها الحقيقة والمجاز،ومنها الخاص والعام ، وفيها المحكم والمتشابه ، وفيها ما يفهم بالعبارة وما تدل عليه الإشارة ، وفيها مايجيء بالفحوى وما تدل عليه المقاصد ، فاللغة العربية حمالة أوجه ، وهذا يفتح بابًا للاجتهاد والنظر .

ويجب أن يعلم الذين يريدون جمع الناس على رأي واحد في أحكام العبادات ، والمعاملات ، ونحوها من فروع الدين أنهم يريدون شيئًا لا يمكن بلوغه ، ومحاولتهم رفع الخلاف لاتثمر إلا توسيع دائرة الخلاف ، وهي محاولة تدل على سذاجة بينة ؛ ذلك أن الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية غير الأساسية ضرورةٌ لابد منها ، وإنما أوجب هذه الضرورة طبيعة الدين ، وطبيعة اللغة ، وطبيعة البشر ، وطبيعة الكون كله .

والخلاف بغير تعادٍ قد أقره الإسلام، أما الخلاف الذي نهى عنه الرسول - ﷺ - وحذّر منه الهلاك هو التعادي . فالاختلاف بين المسلمين - اختلاف المذاهب الفقهية - هنا ضرورة ، وهو رحمة ، وهو ثروة فكرية للمسلمين لايعرف قيمتها إلا أهل العلم والبحث .

وقد كان هذا الخلاف موجودًا في عصر الأئمة المتبوعين الكبار " أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وابن حنبل ، والثوري ، والأوزعي .... وغيرهم ، ولم يرد فيه شرًا ، ولم يحاول أحدٌ منهم أن يحمل الآخرين على رأيه بالعنف ، أو يتهمهم في علمهم ودينهم من أجل مخالفتهم له .

وروى الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه " الرواة عن مالك " قال : قال هارون الرشيد للإمام مالك بن أنس : يا أبا عبد الله نكتب هذه الكتب ، ونفرقها في آفاق الإسلام ؛ لنحمل عليها الأمة ، قال : يا أمير المؤمنين : إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة ، كل يتبع ماصح عنده ، وكل على

هدى ، وكل يريد الله تعالى .

وقال شيخ الإسلام بن تيمية ـ رحمه الله ـ : صنف رجل كتابا في الاختلاف ؛ فقال الإمام أحمد : لاتسمه " كتاب الاختلاف" ، ولكن سمه " كتاب السعة " . أي يسميه بهذا دلالة على تعدد المروي عن النبي ـ ﷺ ـ ، وبساط السُّنَّة فسيح فيه سعة .

قال : ولهذا كان بعض العلماء يقول : إجماعهم حجة قاطعة ، واختلافهم رحمة واسعة (١) .

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقول : ما يسرني أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ لم يختلفوا ؛ لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالاً ، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ، ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة (٢) .

وهذا ما قال به مجلس المجمع الفقهي الإسلامي . فقد قرر المجمع الفقهي :

أن اختلاف المذاهب الفكرية القائم في البلاد الإسلامية نوعان:

[أ] اختلاف في المذاهب الاعتقادية .

[**ب**] اختلاف في المذاهب الفقهية .

فأما الأول : وهو الاختلاف الاعتقادي ، فهو في الواقع مصيبة ، جرّت إلى كوارث في البلاد الإسلامية، وشقت صفوف المسلمين، وفرقت كلمتهم ، وهي ما يؤسف له،ويجب ألا يكون،وأن تجتمع الأمة على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، الذي يمثل الفكر الإسلامي النقي السليم في عهد الرسول ﷺ ، وعهد الخلافة الراشدة التي أعلن الرسول ﷺ أنها امتدادٌ لسُنَّته بقوله : "**عليكم بسُنَّتي ، وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ** " .

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠ ، ٧٩ ، ٨٠ . شيخ الإسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية . ط ١٣٩٨هـ ، جمع وترتيب عبد الله العاصمي ، وابنه محمد .

(٢) الاعتصام من أهل البدع والضلالات . ٢ / ٣٩٥ الشاطبي . بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٨ م .

وأما الثاني : وهو اختلاف المذاهب الفقهية ، في بعض المسائل ، فله أسباب علمية اقتضته ، ولله ـ سبحانه ـ في ذلك حكمة بالغة ، ومنها الرحمة بعباده ، وتوسيع مجال استنباط الأحكام من النصوص ، ثم هي بعد ذلك نعمة وثروة فقهية تشريعية تجعل الأمة الإسلامية في سعةٍ من أمر دينها وشريعتها ، فلا تنحصر في تطبيق شرعي واحد حصراً لا مناص لها منه إلى غيره ، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحد الأئمة الفقهاء في وقت ما ، أو في أمر ما، وجدت في المذهب الآخر سعةً ورفقاً ويسراً ، سواء أكان ذلك في شؤون العبادة ، أم في المعاملات وشؤون الأسرة ، والقضاء والجنايات ، وعلى ضوء الأدلة الشرعية .

فهذا النوع الثاني من اختلاف المذاهب ، وهو الاختلاف الفقهي ، ليس نقيصة ، ولا تناقضاً في ديننا ، فلا يوجد أمة فيها نظام تشريعي كامل بفقهه واجتهاده ليس فيها هذا الاختلاف الفقهي الاجتهادي .

فالواقع أن هذا الاختلاف ، لا يمكن الا يكون ، لأن النصوص الأصلية كثيراً ما تحتمل أكثر من معنى واحد ،كما أن النص لا يمكن أن يستوعب جميع الوقائع المحتملة ، لأن النصوص محدودة ، والوقائع غير محدودة ،كما قال جماعة من العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ فلا بد من اللجوء إلى القياس،والنظر إلى علل الأحكام،وغرض الشارع،والمقاصد العامة للشريعة، وتحكيمها في الوقائع، والنوازل المستجدة،وفي هذا تختلف فهوم العلماء وترجيحاتهم بين الاحتمالات، فتختلف أحكامهم في الموضوع الواحد، وكل منهم يقصد الحق ويبحث عنه ، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد ، ومن هنا تنشأ السعة ويزول الحرج. فأين النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبي ، الذي أوضحنا ما فيه من الخير والرحمة ، وأنه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعباده المؤمنين ، وهو في الوقت ذاته ثروة تشريعية عظمى ، ومزية جديرة بأن تتباهى بها الأمة الإسلامية .

ولكن المضللين من الأجانب ، الذين يستغلون ضعف الثقافة الإسلامية لدى بعض الشباب المسلم ، ولا سيما الذين يدرسون لديهم في الخارج ، فيصورون لهم اختلاف المذاهب الفقهية هذا كما لو كان اختلافاً اعتقادياً ، ليوحوا إليهم - ظلماً وزوراً - بأنه يدل على تناقض الشريعة ، دون أن ينتبهوا إلى الفرق بين النوعين وشتان ما بينهما .

وأما تلك الفئة الأخرى ، التي تدعو إلى نبذ المذاهب ، وتريد أن تحمل الناس على خط اجتهادي جديد لها ، وتطعن في المذاهب الفقهية القائمة وفي أئمتها أو بعضهم ، ففي بياننا الآنف عن المذاهب الفقهية ومزايا وجودها وأئمتها ما يوجب عليهم أن يكفوا عن هذا الأسلوب البغيض الذي ينتهجونه ، ويضللون به الناس، ويشقون صفوفهم ، ويفرقون كلمتهم في وقت نحن أحوج ما نكون إلى جمع الكلمة في مواجهة التحديات الخطيرة من أعداء الإسلام ، بدلاً من هذه الدعوة المفرقة التي لا حاجة إليها .

وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين " [١] .

وقد أكد العلماء على أن المتغيرات لها قواعد تربطها حتى لاينفلت الأمر . والاجتهاد يكون فيما لم يرد فيه نص ، ويكون من النص الشرعي ذاته ، ويخضع لقانون الدلالة في اللغة العربية ، وفقه اللغة ، وللقواعد التي تسمى بأصول الدلالات ، أو قواعد تفسير النصوص والمقارنة بينها ، ويتفاوت الجهد المبذول في فهم النص على ضوء هذه القوانين والقواعد ، ما بين يسر وعسر [٢] .

---

(١) في دورته العاشرة بمكة المكرمة في الفترة من : يوم السبت ٢٤ صفر ١٤٠٨ هـ / الموافق ١٩٨٧ م ، إلى يوم الأربعاء ٢٨ صفر ١٤٠٨ هـ / الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٨٧ م .

(٢) الإسلام تحديات وآفاق .ص ٢٢٠ . د/ محمد سعيد رمضان البوطي و د/ طيب تزيني ، والكلام لـ د/ البوطي . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر .ط٢ . ٢٠٠٢ م .

والقواعد الكلية المعمول بها في كل المذاهب الفقهية خمسة وهي :

[١] المشقة تجلب التيسير . [٢] الضرر يزال .

[٣] العادة محكمة . [٤] الأمور بمقاصدها .

[٥] اليقين لايزول بالشك (١) .

ومن هذه المتغيرات :

[١] **ما سمي بمنطقة العفو :** فقد أخبر النبي - ﷺ - أن الله تعالى فرض فرائضًا ، وشرع أحكامًا ، وحَدَّ حدودًا ، وحرم محرمات ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان ، أو من غير نسيان سكت عن أشياء ، والمسكوت عنه هو ما يسمى بمنطقة " الفراغ التشريعي " ، أو ما عبر عنه الحديث بمنطقة العفو قالوا : وما سكت عنه فهو عفو ، أو فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته إذ من أولى قواعد المتغيرات المسكوت عنه من الأحكام الشرعية ، وما عبر عنه الرسول - ﷺ - بمنطقة العفو ، والذي يعبر عنه القانونيون بالفراغ التشريعي ، وهذا مجال لاجتهاد المجتهدين ، ودخول الأحكام الاجتهادية والتي تتبدل بتبدل الزمان والمكان .

[٢] **ما بني على الأحكام من الأعراف والعوائد :** والأعراف والعوائد تتبدل وتختلف مع اختلاف المكان والزمان . ونحن نعلم أن الشريعة ما جاءت لتبطل كل ما كانت عليه الجاهلية ، وإنما جاءت لتقر الحسن وتتممه . قال الرسول - ﷺ - : " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " (٢) .

وقد نص العلماء على أن ما فعله الرسول - ﷺ - بحكم العادة ، والعرف لايدخل تحت السُّنَّة التشريعية .

---

(١) تجديد الفقه الإسلامي . د/ جمال عطية و د/ وهبه الزحيلي .ص ٢٠٠ . الكلام لـ د/ الزحيلي . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر .ط ١ . ٢٠٠٠ م .

(٢) لطائف المعارف . ابن رجب ٣٠٥ ، والسلسلة الصحيحة . الألباني ٤٥ . درجة الحديث : صحيح .

مثال : أكل الضب ، ومثال أكل الرسول - ﷺ - على الأرض أو بيده ... فهذا من مألوف وعرف الناس وعاداتهم .

[ج] قواعد فقه المتغيرات :

ومن قواعد فقه المتغيرات :

(١) قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد :

لأنك لاتجد خيراً محضاً أو شراً محضاً ؛ لذلك نلجأ إلى قاعدة الموازنات ، وأحياناً ما يكون شاذاً في زمن من الأزمنة يكون هو عين المقبول من العمل في زمن غيره .

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

إن الشريعة جاءت لدرء المفاسد ولتقليلها ، ولتحسين المصالح وتكميلها ، قال العز بن عبد السلام « قاعدة في الموازنة بين المصالح والمفاسد » : إذا تعارضت المصلحتان وتعذر جمعهما فإن علم رجحان إحداهما قدمت ، وإن لم يعلم رجحان فإن غلب التساوي فقد يظهر لبعض العلماء رجحان إحداهما فيقدمها ويظن آخر رجحان مقابلها فيقدمه ، فإن صوبنا المجتهدين فقد حصل لكل واحد منهما مصلحةلم يحصلها الآخر ، وإن حصرنا الصواب في أحدهما فالذي صار إلى المصلحة الراجحة مصيب للحق والذي صار إلى المصلحة المرجوحة مخطئ معفو عنه، إذا بذل جهده في اجتهاده، وكذلك إذا تعارضت المفسدة والمصلحة .

فإن قيل : كيف تصوبون المختلفين ، مع أن بعضهم قد أصاب المرجوح الذي لو اطلع عليه لما جاز له الاعتماد عليه . قلنا : ترك الرجحان رخصة على خلاف القواعد ، وفي الرخص تترك المصالح الراجحة إلى المصالح المرجوحة للعذر دفعًا للمشاق ، ولو قلنا بوجوب الاستدراك لأدى إلى مشقة عظيمة عامة بخلاف من أخطأ النص والإجماع والأقيسة الجلية أو القواعد الكلية ، فإن خطأ ذلك لا يقع إلا نادراً ، فمن له أهلية الاجتهاد فيجب استدراكه لندرته وقلته .

والحاصل أن الشرع يجعل المصلحة المرجوحة عند تعذر الوصول إلى الراجحة أو عند مشقة الوصول إلى الراجحة ، بدلا من المصلحة الراجحة ، كما يبدل الوضوء بالتيمم ، والصيام بالإعتاق ، والإطعام بالصيام ، والعرفان بالاعتقاد في حق العوام ، والفاتحة بالأذكار ، وجهة السفر في صلاة النافلة بالقبلة ، وجهة المقاتلة في الجهاد بالقبلة [١] .

(٢) سُنَّة "التدرج" :

والتدرج ليس في التحليل والتحريم، فالتحليل والتحريم أمرٌ قد فرغ منه من الله ورسوله ـ ﷺ ـ ، ولكن يتعلق الأمر بسياسة التطبيق على أرض الواقع .

والتدرج سُنَّة كونية ، وسُنَّة شرعية ، ولابد من إحياء سُنَّة التدرج . فلابد من مراعاة الزمان ، والمكان والأحوال في المجتمع المسلم حتى لايؤدي إلى خلل واضطراب وتقويض لأمنه الفكري والسياس والثقافي .

ولابد من إحياء سُنَّة التدرج ، وكل المجددين في الإسلام كانوا يراعون هذه السُّنَّة مثال : عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ـ خامس الخلفاء الراشدين ـ فعندما تولى الخلافة ، وبدأ يرد الحقوق إلى أهلها ، ويرفع المظالم عن الناس ، بدأ يفعل هذا بالتدرج ، وكان ابنه عبد الملك من الشباب الأتقياء الورعين المتحمسين فقال له : " يا أبت مالي أراك تتباطأ في إنفاذ الأمور ، والله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في سبيل الله اضرب ضربة واحدة " .

قال له : " يا بني إن الله ذم الخمر في القرآن مرتين ثم حرمها في الثالثة ، وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه جملة ، فتكون من وراء ذلك فتنة " .

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام . ص ٦١ . العز بن عبد السلام . دمشق : دار القلم . ط١ . ٢٠٠٠ م .

(٣) فقه المرحلية :

وهو مهم في إطار المتغيرات ، وهذه قاعدة يجب الا يختل فيها الميزان ، وتتبعها قاعدة أخرى وهي فقه الأولويات . والأولويات تختلف من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان. فمثلاً عندما يكون المسلمون أقلية تكون أولوياتهم مختلفة عنه عندما يكونون أكثرية ؛ ولذلك فرق الفقهاء بين دار الظهور ، ودار الغربة ، وفرقوا بين حال الاستضعاف وحال التمكين . وهذا كله يجعلنا نقدم الأهم على المهم .

وهذا ما فعله عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قال أحدهم : صدق لنا بمال نكسوا به الكعبة المشرفة . قال عمر : إني أردتُ أن أجعل هذا المال في أكباد جائعة فذلك أولى من كسوة البيت . هذه الأسبقيات ، فكل القضايا ليست في درجة واحدة . فلابد أن نقدم ما حقه التقديم ، ونؤخر ما حقه التأخير ، لانهوّن العظيم ولانعظم الهين .

ولقد عدد الدكتور القرضاوي تسعة ركائز لبناء وبلورة فقه الأقليات تلم بالنواقص ، وتضفي شروطا موضوعية وواقعية لنجاح الخطاب الإسلامي في الغرب ، ونجاح هذه الأقلية في التفاعل السليم مع محيطها ، وهي على التوالي : "لافقه بغير اجتهاد معاصر قويم ، مراعاة القواعد الفقهية الكلية ، العناية بفقه الواقع المعيشي ، التركيز على فقه الجماعة لامجرد فقه الأفراد ، تبنّي منهج التيسير ، مراعاة قاعدة تغير الفتوى بتغير موجباتها ، مراعاة سُنَّة التدرج ، الاعتراف بالضرورات والحاجات البشرية، وأخيراً التحررمن الالتزام المذهبي" [١] .

(٤) قاعدة التفريق بين المبدئيات والمرحليات :

وهذا يتعلق بفقه المصالح والتي يقدرها الإمام، لأنه أرعى لرعاية مصالح الأمة

---

(١) في فقه الأقليات المسلمة ، حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى ص ٤٠-٥٧ . د/ يوسف القرضاوي دار الشروق . ٢٠٠١ م

وإن خفي فهمه وإدراكه على عامة الناس فيما ليس متعلق بمبدئي بل بموقف مرحلي ، وهذا كله من فقه السياسة الشرعية. فليس كل ما نجده من منكر نحمل سيف لإزالته ، وهنا يسال الفقه : هل يترتب على زوال المنكر منكراً أعظم منه ، ومفسدة أشد خطراً منه ؟ فحينئذ يكون إنكار المنكر محرماً .

ويذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أربع درجات لإنكار المنكر وهي :

- حالة يكون فيها محرماً : إذا ترتب عليه منكرٌ أعظم منه .
- حالة يكون فيها موضع اجتهاد : إذا ترتب عليه منكر مساوٍ له .
- حالتان يكون فيها واجباً : إذا زال المنكر بالكلية أو خف .

مثال النهي عن إقامة الحد في الحرب كما فعل الرسول ـ ﷺ ـ خشية أن تأخذ الجندي الحمية فينقلب إلى معسكر الكفار ؛ لذا لم يقم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حد شرب الخمر على أبي محجن الثقفي ، وأبلى بلاءً حسناً ثم تاب بعد ذلك [(١)].

وقال سفيان الثوري ـ عليه رحمة الله ـ كلمة جعلها العلماء من بعده قاعدةً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال : لايامر بالمعروف ولاينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال : " أن يكون عالماً بما يامر، عالماً بما ينهي ، عدلاً فيما يامر ، عدلاً فيما ينهي ، رفيقاً بما يامر ، رفيقاً بما ينهي " .

فقد اشترط : العلم والعدالة والرفق .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بتعبير آخر : " العلم قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرفق معه ، والصبر بعده " .

هذه الموازنة التي تتصل بفقه الموازنات وفقه الأمر بالمعروف وفقه المرحليات هي إحدى قواعد منهج المتغيرات .

---

(١) محاضرة " الثوابت والمتغيرات في المنهج الإسلامي " معالي د / عصام البشير وزير الشؤون الإسلامية بالسودان . تحميل من الإنترنت.

فلا بدّ من مراعاة الضوابط الشرعية حتى لاتقع منكرات عظيمة ؛ لأن هذا الضرب لمعالجة أوضاع الأمة المعقدة المتراكمة لايجدي معه الفتوى الفردية فقط ، وتحتاج إلى اجتهاد جماعي من العالمين بالشرع والواقع ، والمدركين بمصالح الأمة مع الخبراء بالعصر والوقت ؛ وذلك لإخراج فقه صحيح يراعي مصالح وأمن واستقرار وتماسك الأمة الإسلامية ، وترابط قياداتها على امتداد العالم الإسلامي.

فإن المتغيرات تقتضي تنوعًا في الاجتهاد وتعدداً في الآراء .

ومن المقرر شرعًا أن هذا الضرب من الاختلاف الفقهي أو الفكري أو الدعوي أو السياسي مادام محكومًا بمرجعية الشريعة ، وما دام في إطار المتغيرات لايجوز فيه الإنكار على وجه التعنيف والحسبة وغاية مايقوله العالم : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ، فلاينكر من خالفه إنكار ذم وتعنيف .

وكثير من القضايا مما تحتمل أكثر من وجه ؛ لذلك لايجوز أن ندعي العصمة أو القداسة لرأي من الآراء أو اجتهاد من الاجتهادات ، وكما قرر إمام دار الهجرة الإمام مالك ـ رحمه الله ـ : " ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر ، يقصد الرسول ـ ﷺ ـ " .

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : رأي النبي ـ ﷺ ـ يحتج به ، ورأي العَالِم يحتج له " .

وقد أدرك كل العلماء الكبار على مر التاريخ الإسلامي هذه القاعدة وأكدوا عليها :

✿ وجوب الاحترام والتقدير لاجتهاد أئمتنا السابقين واللاحقين ، دونما تقديس أو تبخيس .

✿ أن هذا الاختلاف لاينبغي أن يؤدي إلى قطيعة الرحم ، فالأئمة خالفوا بعضهم بعضًا ، ولم يكن الخلاف مؤديًا إلى قطيعة ؛ بل على العكس زاد من

التقدير والاحترام بينهم .

ونتناول الآن باختصار غير مخلّ الأسس الأخلاقية لفقه الاختلاف ؛ وذلك حتى تكتمل الفائدة - إن شاء الله تعالى - :

[د] الدعائم الأخلاقية لفقه الاختلاف :

ويجب علينا أن نتفهم طبيعة وظروف هذا العصر - عصر العولمة - حيث تنشأ التجمعات والتكتلات الاجتماعية والاقتصادية والساسية حول العالم ، وحيث تشتد وتيرة التأثير والتأثر الحضاري والثقافي .

فهذا العصر لن يقبل بوجود خلاف التعادي بين المذاهب والمجتمعات الإسلامية سواءً العربية وغير العربية . وأصبح من الضروري علينا جميعًا أكثر من ذي قبل أن نعمق الدعائم الأخلاقية لفقه الاختلاف ، والتي يجب أن تسود بين عامة وعلماء المسلمين في شتَّىٰ ديار الإسلام وهي :

[١] الإخلاص لله وحده والتجرد للحق ، ومجاهدة النفس حتى تتحرر من اتباع هواها أو أهواء غيرها ، وإيثار ماعند الله على ما عند الناس .

قال تعالى :﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل : ٩٦] .

[٢] أن يتحررالمسلم من التعصب لآراء الأشخاص وأقوال المذاهب وانتحالات الطوائف .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

[النور : ٥٤] .

فالمرء لايقيد نفسه إلا بالدليل ، فإن لاح له الدليل بادر بالانقياد له ، وإن كان على خلاف المذهب الذي يعتنقه أو قول الإمام الذي يعظمه أو الطائفة التي

ينتسب إليها .

[٣] إحسان الظن بالآخرين ، وهو من المباديء الخلافية الهامة في التعامل بين المسلمين مع بعضهم البعض، كما ينبغي أن لا يكون سلوك المسلم واتجاهه قائمًا على تزكية نفسه واتهام غيره ، والله سبحانه وتعالى ينهانا أن نزكي أنفسنا .

قال تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢] .

[٤] ومن أسباب التواصل والتقارب ترك الطعن والتجريح للمخالف ، والتماس العذر له وإن كان مخطئًا في ظنّك ، وهذا هو نهج السلف الصالح في اختلافهم في الاجتهاد ، فلم يجرح بعضهم بعضًا ، بل أثنى بعضهم على بعض برغم ما اختلفوا فيه ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومن أبرزها تلك الرسالة التي بعث بها "الليث بن سعد" فقيه مصر وإمامها وعالمها إلى الإمام مالك يعرض عليه فيها وجهة نظره فيما خالفه في أدب جَم ، وسلوك رفيع [١] .

ومن الأخطاء التي يقع فيها كثيرٌ من المتدينين وعامة المسلمين أنهم لايسمحون للشخص الذي يثقون بمنزلته في العلم أو في الدين بأي زلة تزلها قدمه في الفكر أو السلوك ، وتراهم بزلة واحدة يهدمون جهاد إنسان وجهوده طوال عمره ، ويهيلون التراب على تاريخه كله .

والثابت أن من بذل جهده في معرفة الحق على علم وفهم فأخطأ الطريق إليه لم يكن عليه جناح ولم يوجه إليه لوم ، وإلا كلفناه ما لا طاقة له به .

[٥] ومن العوامل التي تقرب أصحاب الرأي المختلف البعد عن المراء المذموم

---

(١) لمراجعة هذه الرسالة كاملة الاطلاع على " أدب الاختلاف في الإسلام " . د/ طه جابر العلواني . كتاب الأمة رقم٩ ص ١٢٠ .

-لدد في الخصومة . فالإسلام أمرنا بالجدال بالتي هي أحسن ، وذم الذي يراد به الغلبة على الخصم بأي طريقة ودون التزام بمنطق ، ولا خضوع لميزان بين الطرفين ، وأوصانا الرسول - ﷺ - بترك المراء ولو كنت محقًا .

[٦] ومن أساليب الحوار بالحسنى التركيز على نقاط الالتقاء ومواضع الاتفاق بينك وبين من تحاوره ،ومن الدعائم الأساسية في أدب الاختلاف الحوار بالحسنى، هو الجدال بالتي هي أحسن .

قال تعالى :﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ .

[النحل : ١٢٥] .

ونود الإشارة هنا إلى أمرين في هذا السياق لتكتمل الفكرة حول تجديد الفقه وهما :

[١] دعوى تجديد أصول الفقه :

ومما يدعو للغرابة مطالبة بعض المثقفين - مدعي الثقافة الإسلامية - بتجديد " علم أصول الفقه " ، والبحث عن أصول تلائم العصر ، ولكن ما يثير الدهشة أن بعض المثقفين الإسلاميين تبنوا هذه الدعوة ، وقال البعض : نحن لاندعو إلى وضع علم أصول جديد، بل ندعو إلى تطوير علم الأصول القائم ... والحقيقة أن مثل هذه الادعاءات تخلق نوعًا من البلبلة والفوضى بين المسلمين .

والحقيقة أن مَثلُ هؤلاء كمن يطلب من علماء اللغة العربية تغيير قواعد النحو والصرف ، أو يطلب تجديد علم العروض للشعر العربي القديم .

ويجب أن يعي هؤلاء أن " علم أصول الفقه " ليس ابتكارًا عقليًا صرفًا، إنه قواعد وأصول مشتقة من ثوابت الدين الإسلامي ومن جوهره الثابت - القرآن والسُّنَّة - ، تمامًا كاشتقاق قواعد النحو والصرف من اللغة العربية ، وكاشتقاق

الخليل بن أحمد الفراهيدي قواعد علم العروض من الشعر العربي القديم .

وحقيقةً لا ادري ماذا يقصدون ؟! فإذا كان لدى أحد منهم أو مجموعهم أصول وقواعد جديدة لعلم أصول الفقه فليشر إليها أو ليأت بها مباشرة ، وإن كان لدى أحد منهم استدراك على تلك القواعد والأصول فليأت بها مباشرة ، وإن يرى تطويراً ما فليعرضه . . . !

وإن كان المقصود هنا أن لا تقبل الآراء فيه إلا بحجة ودليل ؛ فهذا ليس بجديد . فيجب أن ننتهي من مثل هذه السفسطة .

وخلاصة القول هنا والذي يدركه جميع علماء الإسلام أنه لا تجديد ممكن في أصول الفقه ، بل الممكن الانصراف إلى تعلم الشريعة لبلوغ درجة الاجتهاد ، أي درجة القدرة على النظر في الأدلة (المصادر) والدلالات اللغوية والأصولية المترتبة عليها ، أو المأخوذة منها بالطريق المباشر ، أو بطريق الاستنباط والاستقراء .

[٢] الاجتهاد الجماعي :

إن عملية الاجتهاد هي "عقد قران بين روح الشريعة ومقاصدها وبين الواقع المتطور والمصالح المتجددة [١] ، ومشاكل العصر وتشعب مهماتنا ، ومخلفات النقل ، واختلاف الإرادة والعقل لا ينهض لها مجتهدٌ واحد ولا أفراد مجتهدون لابد من اجتهاد جماعي ، لابد من مجلس للاجتهاد " [٢] ، وأصبح ذلك ضرورة ملحة اليوم مع انتشار الإسلام والمسلمين في كافة أرجاء الكرة الأرضية ، ومع تعقد الواقع وتباين أحوال الناس عموماً والمسلمين بصفة خاصة ، إضافة لطبيعة

---

(١) واما الاجتهاد الجماعي فالمقصود به اجتماع كوكبة من علماء الامة للنظر في حكم مسالة ما مما يجوز النظر والاجتهاد فيه ، والغالب حضور اصحاب الاختصاص معهم في ذلك ايضاً ، كان تكون المسالة طبية فيحضر معهم الاطباء الثقات وهكذا، ويمثل هذا الامر المجامع الفقهية الموجودة في العالم الإسلامي ونحوها . وهذا النوع من الاجتهاد ليس جديداً على الامة .

(٢) جريدة البيان الإماراتية ، السبت ٩ رمضان ١٤٢٢ الموافق ٢٤ نوفمبر ٢٠٠١م . د/ محمد عمارة .

العصر الذي نعيشه ـ عصر العولمة ـ ، والذي رغم هذا الاتساع في انتشار الإسلام والمسلمين إلا أنه قرب بينهم ، بل أصبحت الكرة الأرضية قرية صغيرة بكل ما تعنيه الكلمة ، وأضحت الأمة الإسلامية تحتاج إلى اجتماع ، وهو ما يسميه العلماء والمفكرين بالاجتهاد الجماعي [١] ؛ فقد تغيرت الأحوال في الجهتين : جهة الحياة فأضحت معقدة ، وجهة الثقافة الموسوعية فقد توضحت معالم التخصصات الدقيقة ، فلم يعد بإمكان المجتهد الفرد أن يلم بحقائق الأشياء وحده .

وأصبح الاجتهاد غير مقصور على علماء الشريعة وحدهم ، ويتطلب أن يشمل خبراء الدنيا التطبيقية بجانب علماء الدين ، وأن تتبلور المؤسسات الفكرية التي تجمع الخبرات في علوم الدين والدنيا معًا ليعود للاجتهاد تألقه ، ملبيًا احتياجات الناس مع مراعاة الواقع المتجدد . وهذا المنهج لا يتحقق إلا في الصلة العلمية المتينة بين الخبرة العلمية التشريعية والخبرة العلمية التطبيقية والتنفيذية .

وأمام كل ذلك كان لابد أن يتخذ الاجتهاد الإسلامي أسلوبًا جديداً ليلبي احتياجات هذا الواقع الجديد ، وهنا تظهر بجلاء قدرة التشريع الإسلامي الرباني على معايشة كل العصور ، ويتجلى مبدأ من مبادئ الإسلام العظيمة وهو مبدأ الشورى ، حيث إن رأي الجماعة أقرب إلى الصواب من رأي الفرد مهما ارتفع شأنه في المعرفة وعلا كعبه في العلم ، فعند اللقاء الشوري " على مائدة وطاولة البحث " ، قد يلمح شخص جانبًا في الموضوع لا ينتبه له آخر ، وقد يحفظ شخص ما يغيب عن غيره ، وقد تبرز المناقشة نقاطاً كانت خافية ، أو تجلي أموراً كانت غامضة ، أو تذكر بأشياء كانت منسية،وهذه من فوائد الشورى ،

---

(١) المنهاج النبوي تربية وتنظيمًا وزحفًا . ص ٢١٩ عبد السلام ياسين . ١٩٨٢ م . المرشد العام لجماعة العدل والإحسان .

ومن ثمار العمل الجماعي دائمًا ، عمل الفريق أو عمل المؤسسة ، بدل عمل الأفراد ، وذلك ليس جديداً أو مستحدثًا على الفكر الإسلامي ، ويؤكد ذلك ما رواه الإمام سعيد بن المسيب - رحمه الله - عن علي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم تمض فيه منك سُنَّة؟، قال: **"اجمعوا له العابدين - أو قال العالمين - من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد"** (١) .

قال رسول الله - ﷺ -: **" إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة "**(٢).

قال رسول الله - ﷺ - : **" إن الله لايجمع أُمَّتي - أو قال : أمة محمد - على ضلالة ، ويد الله على الجماعة من شذَّ شذَّ إلى النار "** (٣) .

قال رسول الله - ﷺ - : **" يد الله مع الجماعة "** (٤) .

قال رسول الله - ﷺ - : **" الجماعة رحمة والفرقة عذاب "** (٥) .

وعن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضي به ، قضى به ، وإن لم يجد في كتاب الله ، نظر في سُنَّة رسول الله ﷺ ، فإن وجد فيها ما يقضي به ، قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناسَ هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم ، فيقولون قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سُنَّة سنها النبي ﷺ

---

(١) اخرجه الخطيب البغدادي من رواية الإمام مالك ورواه الطبراني في الأوسط كما قال الإمام ابن قيم الجوزية في اعلام الموقعين، ٢ / ٥٤ ، قال الهيثمي : رواه الطبراني في معجم الأوسط رجاله موثقون من أهل الصحيح .

(٢) رواه كعب بن عاصم الأشعري . سلسلة الأحاديث الصحيحة . " ١١٣ " ، ناصر الدين الألباني . درجة الحديث : حسن بمجموع الطرق .

(٣) الراوي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . صحيح الترمذي " ٢١٦٧ " . قال الألباني - رحمه الله - . درجة الحديث : صحيح . دون " من شذَّ "

(٤) الراوي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . صحيح الترمذي " ٢١٦٦ " . صححه الألباني - رحمه الله - .

(٥) الراوي . النعمان بن بشير . سلسلة الأحاديث الصحيحة . ٦٦٧ . ناصر الدين الألباني - رحمه الله - . درجة الحديث : إسناده حسن .

جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به (١) .

وكان عمر - رضي الله عنه - يفعل ذلك - يقصد مثل ما كان يفعل أبو بكر - فإذا أعياه أن يجد ذلك في الكتاب والسُّنَّة ، سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ؟ فإن كان لأبي بكر قضاء ، قضى به ، وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به (٢) .

وعن الزهري قال : " كان مجلس عمر رضي الله عنه مغتصًا عن القراء شبابًا وكهولاً ، فربما استشارهم ، ويقول : لا يمنع أحدكم حداثة سِنِّه أن يشير برأيه ، فإن العلم ليس على حداثة السن وقدمه ، ولكن الله تعالى يضعه حيث يشاء " (٣) .

ونقل عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه كان إذا جلس أحضر أربعة من الصحابة ، فاستشارهم ، فإذا رأوا ما رآه أمضاه (٤) ، ونُقِلَ مثل ذلك عن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - .

ولا تقتصر إعادة النظر هذه على أحكام "الرأي" ، أو "النظر" وهي التي أنتجها الاجتهاد فيما لا نص فيه بناءً على أعراف أو مصالح زمنية لم يعد لها الآن وجود أو تأثير ، بل يمكن أن يشمل بعض الأحكام التي أثبتتها نصوص ظنية الثبوت كأحاديث الآحاد ، أو ظنية الدلالة .

فقد يبدو للمجتهد اليوم فيها فهماً لم يبد للسابقين ، وقد يظهر له رأي ظهر لبعض السلف أو الخلف ، ثم هجر ومات ؛ لعدم الحاجة إليه حينذاك ، أو لأنه

---

(١) نقله الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن أبي عبيد في كتاب القضاء ، كما في إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل - بيروت طبعة ١٩٧٣م ، ١ / ٦٢ وما بعدها.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن القيم : تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ، بيروت طبعة ١٩٧٣م ، ١ / ٦٢ وما بعدها.

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال كتاب العلم من قسم الأفعال ، باب فضله والتحريض عليه ، (٢٩٣٥٤) . المتقي الهندي. نسخة إليكترونية من " صيد الفوائد " شبكة الإنترنت .

(٤) انظر ابن رضوان المالقي ، " الشهب اللامعة في السياسة النافعة " ، دار الثقافة ، الدار البيضاء طبعة ١٩٨٤م، ١٤٥ وما بعدها .

سبق زمنه ، أو لعدم شهرة قائله ، أو لمخالفته للمألوف الذي استقر عليه الأمر زمنًا طويلا أو لقوة المعارضين له وتمكنهم اجتماعيًا أو سياسيًا ، أو لغير ذلك من الأسباب . والمطالبة بأن يكون الاجتهاد في عصرنا اجتهاداً جماعيًا لا يعني الاستغناء عن الاجتهاد الفردي ، فهو الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات عميقة وبحوث أصيلة مخدومة ، بل إن عملية الاجتهاد في حد ذاتها عملية فردية قبل كل شيء .

إن الاجتهاد الذي ننشده وندعو إليه ـ بقيوده وشروطه الشرعية ـ يمثل حاجة ، بل ضرورة لحياتنا الإسلامية ، وعلاج مشكلاتنا المعاصرة .

والاجتهاد الجماعي علاج للمستجدات : لسببين هما :

السبب الأول : أن هذه المستجدات تكون في الغالب قضايا عامة يهم تنظيمها كل المجتمع ، ويمس أثرها كل فرد في علاقته بالآخرين ، أفراداً أو مجتمعًا أو دولة، وليست من القضايا الفردية التي تتعلق بكل فرد على حدة ، وعليه فإن أي خطأ في الاجتهاد للقضايا العامة يصيب أثره عموم الناس ؛ لذلك يجب في هذه القضايا أن يكون الاجتهاد جماعيًا ، لما فيه من دقة في البحث ، وشمول في النظر ، وتمحيص للرأي ، يتبلور ذلك من خلال اشتراك جمع من العلماء في النقاش وتبادل الآراء ، فيأتي حكمهم أكثر دقة في الاستنباط ، وأكثر قربًا للصواب من الاجتهاد الفردي .

السبب الثاني : أن الكثير من القضايا المستجدة ، قد يحيط بها الكثير من الملابسات والتشعبات والصلات بقضايا وعلوم متعددة ، مما يجعل القدرة على فهم كل جوانبها ومتعلقاتها لا يكتمل إلا أن يكون جماعيًا ، ويصعب على فرد استيعاب كل ما تتطلبه تلك القضايا من علوم ومعارف ، وتكون الرؤية الفردية في هذه القضايا قاصرة ، فلربما نُظر إلى تلك القضية ـ المعقدة والمتشعبة ـ من

زاوية ، وأهملـ بقية الزوايا فيأتي الحكم قاصراً [١] .

إن الاجتهاد الجماعي أصبح بلا شك سبيل لرتق ما انفتق من دين الأمة ، وهو يناسب طبيعة العصر الحديث ـ عصر العولمة ـ ، ويناسب مرحلة التطبيق العملي لعالمية الدين الإسلامي بمعناها الواسع ، وأصبحت الأمة الإسلامية أحوج إليه في كل شؤونها التعبدية ، والسلوكية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والدعوية ....



(١) سلسلة كتب الأمة . الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي . الشبكة الإسلامية ، قطر ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية .طبعة أولى ١٩٩٨ م . د/ عبدالمجيد السوسوه الشرفي .

المبحث الثاني: تجديد الخطاب الإسلامي

يتناول العديد من المسلمين في هذه الآونة الحديث عن ضرورة تجديد الخطاب الإسلامي ، ماهيته ، ومنهجه الإسلامي ، ومعالمه ، وخصائصه في عصر العولمة ، وإن تجديده أصبح في هذا العصر من الضرورات الملحة .

وسنبدأ بتوضيح طبيعة المرحلة ، وحقيقة الخطاب الإسلامي ، ثم نفصل الحديث حول تجديد الخطاب الإسلامي .

أولاً : طبيعة المرحلة :

يجب أن يدرك كافة المسلمين أن الاجتماع السياسي الإسلامي هو اجتماع عموم من ارتضى العيش طواعية في جنباته ، وفي ظل قانونه العام الناظم لعلاقات مع من فيه من عموم الأفراد والجماعات أياً كان دينها أو عرفها أو لونها ، وإن ننظر لاعتبارات عدة من أهمها :

[أ] ظهور صيغ وأطوار حديثة من الاجتماع البشري تقوم على خلاف ما تعارفت عليه المجتمعات قديماً ، وأقصد بذلك على وجه التحديد نظم الليبرالية العلمانية كما تجلت في الغرب المعاصر .

ولبيان هذا التحوُّل التاريخي في التنظيم السياسي والاجتماعي نكتفي بمقابلات سريعة بين ما "اشتُهر به" كلا النظامين الليبرالي والإسلامي .

فنجد الفصل بين السلطتين الروحية "الدينية" والزمنية في النظام الليبرالي ، مقابل تأسيس الثانية على الأولى في الإسلام ، والعقد الاجتماعي مقابل الشرع الإلهي ، ووطن الجمهور مقابل ديار الإسلام.... إلى ما هنالك من متقابلات في

فلسفة الاجتماع أو آلياته الإجرائية والتنظيمية .

[ب] ظهور خطاب عقائدي " إسلامي " غال داخل بعض حركات الإحياء الإسلامي في نظرته إلى ما تجب أن تكون عليه صورة وحال غير المسلمين في بلدان العالم الإسلامي من كتابيين (يهود ، ونصارى ، ومجوس) ، أو وضعيين (علمانيين ، وملحدين) .

ومبنى هذا الخطاب قائم على قضايا الاعتقاد لا مقتضي الاجتماع البشري ، أو التشريع الإسلامي .

ذلك أن الناس لديهم صنفان لا يتصور لصنف ثالث، أو رابع... بينهما تقام وتدور العلاقة بهذين الصنفين بين (موالاة واجبة) هي موالاة أهل الإيمان بحبهم ومعاونتهم ومناصرتهم والتقرب منهم و (معاداة واجبة) هي معاداة أهل الكفر والفسوق بمجانبتهم وهجرهم وزجرهم ، ومقاتلة الكافرين والإغلاظ عليهم وبغضهم وبغض كفرهم وضلالهم ، وتحذير المسلمين منهم ؛ وبذلك تتميز لدى أصحاب هذا الخطاب الصفوف فيصير المؤمنون في جانب والكافرون في جانب .

وهذا التصور على ما فيه من خَلْطٍ سرعان ما يصطدم بواقع التشريع القرآني والحديثي الذي ينظِّم وجود غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، فيلجأ إلى أحكام وتصورات تحتفظ بشحنة المعاداة المتوترة ، ويقيم أحكامًا لهم أقرب ما تكون إلى " مساكنة اللدود " منها إلى " تجاور الودود " ، وعلى أهل الذمة والحالة هذه إخفاء شعار دينهم ومنكرات دينهم ، وتأكيد بل ووجوب الغيَار والتميُّز عن المسلمين في اللباس والشعور (جمع شعر) ، والمركب ، و ترك إكرامهم وإلزامهم الصُّغَار الذي شرعه الله تعالى .

ويصرّ هذا الخطاب على اعتماد الهوية الدينية في تقسيم السكان رافضًا اعتماد مبدأ المواطنة الذي قامت عليه (الدساتير العلمانية الكافرة) قائلاً :

(ولا شك في كفر من قال بهذا القول ، لإنكاره المعلوم من الدين بالضرورة الثابت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع) ، وهذا المعلوم هو ما فهمه من أحكام أهل الذمة [١] .

[ج] إصرار بعض الفقهاء والباحثين المسلمين على التمسك بالفقه السياسي الموروث الخاص بأهل الذمة جملةً وتفصيلاً دون تفريق بين الأحكام القرآنية الثابتة وبين اجتهادات الفقهاء السابقين أو أئمة المسلمين وحكامهم .

وهذا النهج يُسقط في موقفه هذا ما آل إليه الواقع العربي والدولي من تغيرات وتحولات تحتاج بدورها إلى اجتهاد جديد يحافظ على المشروطية التاريخية للواقع الراهن بعيداً عما كان يَشْرُط واقع الاجتماع الإسلامي القديم من عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية، كما أنه نهج يُهدر جوهر النص الثابت المؤسسة أحكامه على تفاعله مع الوقائع المتجددة بحسب حال الأفراد والجماعات، أو مجالهم المحيط بهم ، أو طبيعة العصر ، وهي طبيعة المرحلة التاريخية التي تمر بها المجتمعات حالياً .

ومن الشبهات التي ضخمها المستشرقون هنا ما يتعلق بملابس أهل الذمة وأزيائهم ، وما روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اشترط عليهم ألا يتشبهوا بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وأن يضعوا في أوساطهم ، أو على أكتافهم شارات معينة تميزهم عن المسلمين ، وينسب ذلك إلى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أيضًا .

ومن المستشرقين المؤرخين من يشكك في نسبة الشروط أو الأوامر المتعلقة بالزي إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ لأن كتب المؤرخين الأقدمين

---

(١) الجامع في طلب العلم الشريف . ط ٢ ج ٢ . ص ٦٣٧ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ . ١٤١٥ هـ . عبد القادر عبد العزيز مفتي حركة الجهاد المصرية قبل أن يختلف مع أميرها أيمن الظواهري ، ليصبح فيما بعد مرجعًا لعدة جماعات إسلامية ترى العنف سبيلاً لتغيير الحكومات ، كالجماعة الإسلامية في الجزائر وغيرها من الجماعات . تم تحميل الكتاب من شبكة الإنترنت المكتبة الإسلامية .

الموثوق بها والتي عنيت بمثل هذه الأمور لم تشتمل عليها (كتب الطبري، والبلاذري ، وابن الأثير ، واليعقوبي . . . وغيرهم) .

على أن الأمر أهون من أن يتكلف إنكاره ورده لو عرفت دواعيه وأسبابه ، وعرفت الملابسات التاريخية التي وجد فيها ، فهو ليس أمرًا دينيّاً يتعبد به في كل زمان ومكان كما فهم البعض وظنوه شرعاً لازماً ، وهو - إن صح - ليس أكثر من قرار إداري أو أمر من أوامر السلطة الشرعية الحاكمة يتعلق بمصلحة زمنية للمجتمع آنذاك ، ولا مانع من أن تتغير هذه المصلحة في زمن آخر وحال اخرى ، فيُلغى هذا الأمر أو يُعدل .

ولقد كان التمييز بين الناس تبعًا لأديانهم أمرًا ضرورياً في ذلك الوقت ، وكان أهل الأديان أنفسهم حريصين عليه ، ولم يكن هناك وسيلة للتمييز غير الزي ؛ حيث لم يكن لديهم نظام (الهويات) ، أو البطاقات الشخصية المعروفة في عصرنا ، التي يسجل فيها مع اسم الشخص لقبه ودينه ، وحتى مذهبه في بعض البلدان ، فالحاجة إلى التمييز وحدها هي التي دفعت إلى إصدار مثل تلك الأوامر والقرارات ؛ ولهذا لا نرى في عصرنا أحداً من فقهاء المسلمين يرى ما رآه الأولون من طلب التمييز في الزي لعدم الحاجة إليه .

وكتب الدكتور الخربوطلي في توضيح هذه القضية ودوافعها ، فقال :

" ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلاً حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين ﭬ ، فقد كان هذا لا غبار عليه ، فهو نوع من التحديد للملابس في نطاق الحياة الاجتماعية ، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة ، وبخاصة أننا في وقت مبكر من التاريخ ، ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية وما تحمله عادةً من تحديد الجنسية والدين والعمر ، وغير ذلك ، فقد كانت الملابس المتميزة هي الوسيلة الوحيدة لإثبات دين كل من يرتديها ، وكان للعرب المسلمين ملابسهم كما

للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضًا ، وإذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد ، فنحن نقول لهم : إن الاضطهاد في هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء ؛ وإذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بأن لا يتشبهوا بغيرهم ، فمن المنطقي أن يأمروا غير العرب وغير المسلمين الا يتشبهوا بالعرب المسلمين (١) .

[د] إظهار تخوّف بعض الكتابيين والأقليات الدينية الأخرى وتيارات علمانية مختلفة من الموقف الإسلامي من " الأقليات " الدينية داخل المجتمعات الإسلامية ، وتكوّن صورة سلبية عن هذا الموقف بفعل بعض الأحداث المتفرقة التي تقع في البلاد العربية والإسلامية ، وقيام جهات غربية أو جهات معادية للإسلام باستغلال هذا التخوف وتضخيمه مستغلين الإعلام الغربي والقوة لسن قوانين الحماية وفرض العقوبات مع تحريض جمعيات حقوق الإنسان وغيرها ، بل قد يصل الأمر إلى طلب التدخل العسكري .

ونتيجة لهذا الاستغلال الغربي تصبح دعوى الحفاظ على القيم الدينية والأخلاقية تآمراً على الحرية والنظام العلماني ، وتمسك البعض بخصوصيته الإيمانية اعتداءً على حقوق "الأقليات" ،والتمسك بالهوية حرباً على العَصْرَانية والحداثة .

ثانياً : الاجتماع السياسي الإسلامي :

إن جملة الاعتبارات المتقدمة هي التي دفعتنا إلى إعادة النظر في طبيعة الاجتماع السياسي الإسلامي والتأكيد على حقيقة أنه اجتماع لأمة، بل اجتماع للبشرية في مستقبلها ، وليس مجرد اجتماع لجماعة المسلمين فقط .

قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء ١٠٧] .

---

(١) الإسلام وأهل الذمة . ص ٨٤- ٨٧ . د/ علي حسني الخربوطلي .

ولنتدبر كيف ستتحقق الرحمة للعالمين مع ضرورة وجود الاختلاف العقائدي كما قرر ـ سبحانه وتعالى ـ .

إن استئناف الأمة لحضارتها ودورها في التاريخ والسعي للتواصل بالرسالة الإسلامية مع العالمين لا يمكن أن يتم بإعادة إنتاج المنظومة التقليدية كما هي عليه .

واستقرار الاجتماع الإسلامي وتحقيق العدالة والمساواة المقررة فيه شرعاً لا تتم بالقبول الخَجِل أو المتردد للمخالفين لنا دينياً أو إثنياً ، أو بالبحث عن القيود والمزيد من الكوابح التي ستزيد من الفجوات بين أبناء الأمة الواحدة ـ أمة المؤمنين ـ ، إنها قيود ستساعد البعض على التحرر من المسؤولية الاجتماعية ، وتصرفه عن الاشتغال بالشأن العام ؛ ليصبح الداخل جُزُراً معزولة وهشاً وضعيفاً أمام أي تحدٍ خارجي وقابلاً للانفجار ، ويجعل الدور الإسلامي عاجزاً عن القيام بعالمية دعوته وتطبيق الإسلام في ظل هذه العالمية .

إن الاجتماع السياسي الإسلامي هو اجتماع الأمة الإسلامية حضارياً لا دينياً فقط ، أي أنه اجتماع كل من ارتضى طواعية من الأفراد والجماعات الانتظام ضمن هذا الاجتماع بغض النظر عن أصوله الإثنية أو الدينية أو الفكرية .

إنه اجتماع الوحدة من خلال التعدد ، والمشترك من خلال التنوع ، ولا يقر بالتعددية ويعترف بها فحسب ؛ بل يقوم على حمايتها والحيلولة دون الاعتداء عليها .

واختلاف العقائد والآراء فيه مؤسس على مشروعية مقدسة من قِبل الله ـ عز وجل ـ ، وليست عطاءً أو مِنّةً من أحد ، وعلاقات التراحم والتواصل والإحسان مع المخالفين ليست تسامحاً فردياً ، بل واجبات شرعية .

قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

والدولة الإسلامية في هذا الاجتماع دولة رعاية ، رعاية لكل مواطنيها ، وهي بذلك ليست كليَّةُ القُدرة المتسلطة ، لأن القُدرة والسلطة تتوزع في الاجتماع الإسلامي على جميع الفئات والطوائف والجماعات . سواءً كانت قدرة سياسية تتمظهر في التمثيل السياسي والمسؤولية الاجتماعية أو قدرة اقتصادية تتمظهر في حرية التملك والتصرف مع توزيع عادل للثروة من قبل الدولة .

إنه اجتماع لا يستبعد من المشاركة في بنائه أحداً بدعوى دينية أو ثقافية أو إثنية ، إنه لكل من يخدم صالحه العام ، ويمتلك الأهلية لذلك .

إنه اجتماع وفق القانون الذي ينظم علاقات الكل بالكل وفق أسس تشاركية تشاورية دونما تهميش أو إقصاء مع حفظ الخصوصية التشريعية وفق الثوابت الإسلامية .

إن صورة الاجتماع السياسي الإسلامي التي قدمناها مكثفة موجزة ، وركزنا من خلالها على بيان ماعليه "الأقليات" الدينية فيه من أهل الذمة من كتابيين وغيرهم ؛ يتضمنها الإسلام في وحيه وشرعه ونهجه .

وأما مصاديق هذا التصور السابق فسنعرض لأبرز ركائزها دون الاستغراق فيما تتضمنه من تفريعات وموضوعات إلا لماماً ،وعلى سبيل الاستئناس والاستشهاد ، وقد تناوله العديد من العلماء المتخصصين ـ قديمًا وحديثًا ـ بالبيان والتفصيل .

(أ) الوحدة الانسانية :

الوحدة الانسانية كرابطة تأسيسية مركزية لعلاقات بني الإنسان فيما بينهم ، وهي رابطة غير مهملة في الوحي الاسلامي ، بل رابطة معتبرة جاء ذكرها في أكثر من موطن في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية .

وفي وصف عملية الخلق الإلهي للإنسان يشير القرآن إلى أصل الخلق الواحد ، والذي يُطْلَق عليه بـ (نفسٍ واحدة)، حيث يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ① ﴾ [النساء : ١] .

وقال النبي ـ ﷺ ـ للجموع الحاشدة في حجة الوداع هذه الحقيقة الأساسية في وحدة البشرية : " **أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب**" (١) .

ووحدة الخلق من النفس الواحدة هي مصدر الكثرة والتنوع ﴿ **رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾ ، ولكنها كثرة لايلزم لكثرتها صراع وتناحر ، بل تستوجب قرآنياً تعارفًا وتآلفًا ، وهذا هو المعنى القرآني الأبرز في ذكر الوحدة ، فالكثرة ، فالوحدة ، فهو بيان قرآني لا للإخبار فحسب ، بل لدفع الإنسان أن يألف أخيه الإنسان ويتواصل معه بالتعرف إليه ، والتواصي على منهج الخالق الحق ، وفي هذا يقول القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ⑬ ﴾ الحجرات : ١٣] .

إنّ ذكرنا لهذه الرابطة الإنسانية كركيزة من ركائز تقبُّل غير المسلمين داخل الاجتماع الإسلامي هي لبيان خطأ من يحصر قاعدة الاجتماع على العقيدة دون غيرها من الأواصر والروابط .

فقد شاع الحديث من البعض داخل بعض حركات الإحياء الاسلامي خصوصاً عن آصرة العقيدة ورابطة الدين كرابطة وحيدة تجمع بين الناس ، ووفقها تُبنى المجتمعات ، وعلى أساسها يتم التناصر والولاء ،والحب والبغض ، والمنح والعطاء ، وسائر مناشط الحياة .

وتم في هذا السياق تسفيه كل الروابط الأخرى، والحط من قدرها ، من قومية ، أو وطنية، أو مواطنية أو اجتماعية أسرية ،أو حزبية . . . . إلى ما هناك من روابط،

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وذكره الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٦٤) .

وتم نعتها بأنها روابط غير إسلامية ، ولا وزن ولا قيمة لها في الاسلام ، وأنها روابط " أرضية جاهلية " (١) .

ويتم الاستشهاد في سياق الدفاع عن وجهة النظر هذه بحوادث من السيرة النبوية والقصص القرآني ، كحادثة سعد بن أبي وقاص مع امه ، وموقف أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - من ابنه حين أبلغه أنه لو كان لقيه في المعركة لقتله ، ومثال نوح - عليه السلام - مع ابنه ، وزوجة فرعون مع فرعون ، ولوط - عليه السلام - من زوجته ، وإبراهيم - عليه السلام - من أبيه ، وغيرها من الحوادث والوقائع .

ولا يخفى أن هذه الحوادث تَرِدُ في معرض علاقة أهل الإسلام مع أحد صنفين :

أحدهما : " محارب " ، والآخر " صادٌ عن سبيل الله متربص بالمؤمنين " ، وهما بذلك ليسا ممن استؤمنوا أو دخلوا في ذمة المسلمين فأصبحوا " أمة من المؤمنين " ، ولا تتاسس العلاقة الطبيعية لأهل الاسلام بغير المسلمين داخل الاجتماع الإسلامي على صورة هذه الأمثلة ، ثم إن رابطة الوحدة الانسانية المفضية إلى التعارف والتعايش المشترك لا تناظر علاقات الصراع التي تتكشّف من خلال الأمثلة السابقة .

إن مثل هذا الخطاب ينفي كل وشيجة أخرى غير وشيجة الملة الواحدة والعقيدة الواحدة ، وهو بذلك ينتج شخصاً يحمل بذور العداء دون تفريق بين الفئات إن كانت محاربة متربصة بالمؤمنين ، أو مسالمة مستأمنة . ودون تفريق بين الحالات إن كانت حالات صراع ، أم منافسة ، أم موادعة ، أم مسالمة ، أم تعايش .

ويصبح هذا الخطاب دائر بين قطبي الاسلام والكفر يضع المسلم في حالة عداءٍ واستعلاءٍ وشعور بالطهرانية، ويتحرك بروح الحَكَم والقاضي لا الداعية والرحمة المهداة للعالمين .

---

(١) نفرق هنا بين الوطنية بما هي شعور وعاطفة وحب وولاء ، والمواطنية بما هي تاسيس قانوني لرابطة الاجتماع بين الدولة والمجتمع .

(ب) حرية العقيدة :

كفل الاسلام حرية الاعتقاد لغير المسلمين داخل المجتمع الاسلامي ، وحال دون إكراههم على غير ما يعتقدون ، وقرر ذلك قرآنًا .

كما خاطب القرآن الكريم رسول الله ـ ﷺ ـ مرشداً أن الاعتقاد مسالة تقبل ذاتي طوعي لا تفرض بالقوة أو الإكراه ؛ بل بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

* قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ .

[الغاشية : ٢١-٢٢] .

* وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) ﴾ [النحل : ٨٢] .

* وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس : ٩٩] .

* وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾

[النحل : ١٢٥] .

وفي كتابه ـ ﷺ ـ إلى أهل اليمن : " ... **إنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها ، وعليه الجزية** " .

وحرية الاعتقاد كانت سنَن من بعده من الخلفاء الراشدين، إذ جاء فيما كتبه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى نصارى بني تغلب : (.... **أن لا يُكرهوا على دين غير دينهم**) .

وهذا الأدب القرآني هو ما تفيده كافة الأدلة الشرعية والسير التاريخية لدولة المدينة والخلافة الراشدة وعموم التاريخ الاسلامي ، وهو ما عليه العلماء الأثبات في الأمة الإسلامية .

وهو الأمر الذي يؤسس لحرية الراي والاجتماع والتنظيم في العصر الراهن .

(جـ) سُننيةُ الاختلاف :

تتأسس سُننية الاختلاف في الإسلام على ما تقدم من جَعْلِ الكثرة بعد الخلق من النفس الواحدة وحرية الاعتقاد ، إضافة إلى ذلك ما أفاض فيه القرآن الكريم من تصوير للاختلاف ومظاهره ودلالاته .

فالاختلاف ظاهرة كونية بارزة عيناً،وعلماً بين كل مظاهر هذا الكون وما فيه ، يوحده نسيج القدرة والخلق الإلهي ، وهو اختلاف دال على قدرة الله المطلقة في الخلق والإنشاء كيفما يشاء .

ففي اختلاف ألوان الثمار وأُكلها ، والشراب ومذاقاته ، والناس وألوانهم وألسنتهم ، والدواب والأنعام في صفاتها ، واختلاف الليل والنهار ، عظيم الدلالة على قدرة الله وربوبيته .

قال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة فاطر : ٢٧-٢٨] .

والاختلاف في الكون وما فيه ومَن فيه لا يقتصر على ما هو قهري في مجال الخلق والتكوين وما لا كسب للعباد فيه ، بل يشمل تفكير الناس ومناهجهم وعقائدهم ، وما هو اختياري في مجال الإرادة البشرية من الإيمان والكفر ، والاتباع والإعراض ، وكل ذلك واقع بإرادة الله وقدرته وعلمه ، وقوع السُنن التي لا تتبدل ولا تتغيَّر إلى أن يرثَ الأرض ومن عليها ، وليس لأحدٍ الزعم أنه قادر على رفع هذا الاختلاف أو إنهائه مهما بلغ من العلم والقوة ، وليس ذلك لأنها سُنَّة فحسب ، بل لأنها سُنَّة معقولة مدركَة من قِبَل من يَعقل التدبير الرباني وحكمته فيمن خلق ، فالخلق متفاوتون في مداركهم ومواهبهم ، وبتفاوتهم هذا

تختلف أفكارهم وأحكامهم ، كما تتعدد الأقيسة والموازين والمناهج التي يتوسلون بها النظر إلى الموضوعات . كما أن الموضوعات تتسم بالغموض في ذاتها ، وتتكشّف الحقائق جَلية بمقدار مازال عنها من الغموض ، وبقدر وضوح وغموض الموضوع محل التفكُّر والتدبُّر يختلف الحكم والتقدير والرأي ، ويقع الاختلاف .

وإضافة لما تقدم ؛ فإن تقليد البعض للسابقين ومحاكاتهم دون إعمال العقل أو الدليل يورث التعصب للمورّث ويضفي عليه قداسة ، فيغدو ما يتوارثه البعض عمَّن سبقوهم من آبائهم وكبرائهم دليل صحة وبرهان وصواب يصطدم بِمَن نَهَج منهج النظر والتعقُّل ، فيقع الاختلاف .

وقد لا يكون سبب الاختلاف تعدد الأفهام أو اختلاف المدارك أو تفاوت النظر في الأمور، بل قد يُعرف الحق في ذاته أنه الحق ويتم الإعراض عنه أو تناسيه، ويتم اتباع الهوى .

قال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[الجاثية:٢٣] .

وإذا عُلِمَ أن الهوى بخلاف الهُدى علماً وسلوكاً عرفنا سبباً آخر يُفضي إلى الخلاف الذي لا يمكن رفعه ، فالاختلاف ظاهرة كونية وطابع للخلق البشري .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ المائدة :٤٨] .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود : ١١٨-١١٩] .

قال كثيرٌ من المفسرين في تأويل ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ : أي للاختلاف خلقهم ، لأنه خلقهم مختلفين في الفعل والإرادة ، فلابد أن تختلف مواقفهم في العقيدة

والديانة [١] .

وأمضى الله بذلك التعدد وشاء الاختلاف ، أي في الكفر والإيمان ، وافتراق الناس في الأديان والأخلاق والأفعال ، وبيّن أن الأصل هو الاختلاف ، فلا يأتين بعد ذلك من يود أن يؤسس اجتماعًا مليّاً خالصًا إلا إذا استطاع رفع الاختلاف الذي أخبر الله تعالى أنه سيبينه للناس يوم القيامة [٢] .

بل إن الاختلاف واقع بين أهل الملة الواحدة من أهل الإسلام ، وليس أدل على ذلك من تعدد المذاهب في الاعتقاد أو الفقه أو السلوك ، بل إن القرآن صرّح بأن من أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده مختلفين في أحوالهم ومقاماتهم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

بل إن معرفة الحق في الاختلاف أمر عزيز يستوجب دعاءً خالصاً وقربى خاصة لله ، كما كان يفعل رسول الله ـ ﷺ ـ عند قيامه من الليل للصلاة ، وفق ما جاء في حديث البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ :

"اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" .

(د) التعدد الديني وأهل الذمة :

بعدما بينّا سُنّيّة الاختلاف بشكل عام ، فإن الاختلاف في الاجتماع الإسلامي يأخذ صوراً شتى، أهمها الاختلاف العقائدي المفضي إلى التعدد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن . ٩ / ١١٤ . الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

(٢) وهذا لا يخالف أصل الدعوة إلى ما يعتقده المسلم أنه الحق والسعي للوحدة والتآلف والتقريب ، كما يتوهم البعض .

الديني المِلّي .

والتعدد الديني أقر وجوده الله ـ عز وجل ـ وبقي حقيقة واقعية إلى يومنا هذا ، وقد ذكر القرآن أهل الأديان في أكثر من موطن مَن القرآن الكريم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٦٢] .

قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

[الحج : ١٧] .

كما لا يخفى ما احتوته السُّنَّة النبوية من ترشيد للمسلمين في بيان حسن معاملتهم لأهل الكتاب ومَن في حكمهم ، وحفظ أموالهم وأعراضهم وأماكن عبادتهم،كما لا ننسي ما أقره القرآن الكريم من جواز طعام أهل الكتاب والزواج من فتياتهم ، الأمر الذي يعزز شبكة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والكتابيّين ، وإدماجهم دمجاً عضوياً في النسيج العام اجتماعياً واقتصادياً .

وأما مسألتي الصَّغار والجزية اللتان وردتا في الآية القرآنية ، قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

[التوبة : ٢٩] .

فهما مسألتين أسيئ فهمهما ، والصواب في الصَّغار أنه الخضوع لأحكام الاسلام في مسائل الحدود التي لا يختلف أي دين عن آخر بحرمة ارتكابها ، مثل القتل أو الزنى وغيرهما ، وجاء اللفظ على هذا النحو،لأن الحالة هي حالة مقاتلة، وتمرُّد على مجتمع المسلمين ، فوجب الرجوع والحالة هذه إلى الانتظام في سلك الاجتماع العام . كما أن الآية لا تتحدث عن صنف أهل الكتاب فحسب ، بل

عن الكافرين المحاربين أيضًا .

ومفاد ذلك : أن أصل القتال هو بروز آخرين بقتال المسلمين، كما يقول تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة : ١٩٠].

وآية الصغار هي شرح لعلاقة استثنائية مع هذه الأصناف، ومنهم أهل الكتاب، وإلا فإن قانون العلاقة بين المسلمين ومن يعيشون وإياهم في المجتمع الواحد هي القسط والعدل ، وليست المقاتلة .

قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾ [الممتحنة : ٨ – ٩] .

وأما الجزية فشأن متعلق بإمام المسلمين يرجع له تقديرها أو تغيير اسمها إلى صدقة ، كما فعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، أو ضريبة كما سماها الشافعي ، أو زكاة كما أشار بذلك الشيخ العلامة محمد أبو زهرة، وهي إحدى صور العلاقات المالية بين الدولة وبين مواطنيها المباشرة وغير المباشرة [١] .

ونشير هنا إلى أن إقامة اجتماع أخلاقي قيمي يحافظ على الإنسان المؤمن مسلماً كان أو مسيحياً ، وعلى الأديان بجوهرها القيمي الإنساني لا يستقيم والدعوة الى النظام الليبرالي "المعولم" الذي عصفت به أمواج متضاربة، وطغت عليه إمبراطوريات المال ، وتلاعبت به غوايات الاستهلاك الذي يغلّب الطلبات الفردية الإتّجارية على حساب المجموع ، وعلى الرغبة في المساواة وعدالة التوزيع؟.

---

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية مجلد ٣ ص . ١٤٦٥ – ١٤٧٠ ، محمد خير هيكل . بيروت : دار البيارق . ط١ ١٩٩٣ م ، واطلق الإمام الشافعي على الجزية اسم " ضريبة " كتاب الأم مجلد ٤ ص ٢٠٠ نقلا عن هيكل ، المصدر نفسه ص ١٤٥٢ .

ونتساءل :

❁ هل يمكن للأديان - في عصر العولمة الشاملة - أن تعيش في مجتمع ليبرالي يتخوف من القيم ، وينصّب عقل المنفعة والفائدة والحياة الخاصة بديلاً عن الإيمان وقيم الخير والحق والعلاقات الإنسانية ؟ .

❁ وهل تستطيع البشرية أن تعيش معًا في أمن ومساواة ، في ظل النظام والقيم العلمانية ؟! .

إن " الليبرالية العلمانية " ليست تحريراً للدولة من سلطان الدين؛ بل هي فصلاً للحياة عن الدين ، وفي مرحلتها المتطورة معاداة للدين ثم إلغائه ، إنها تحريراً لكافة الانتماءات المجتمعية فضلاً عن العقائدية ، وهي دعوة إلى الفردية التحررية التي تفضي إلى التحلّل من كل القيم الدينية والإنسانية تكريساً للاستهلاك الرخيص والاتّجار بكل شيء ، ولو كان الإنسان نفسه .

إن أهل الكتب من الديانات السماوية كافة مدعوّون إلى التواصل والتعايش والتعاضد ضد كل قيم المادية الجارفة التي تنزع عن الوجود كل معنى روحي وإنساني ، وتحل الشهوة والقوة محل كل مقدّس ونبيل ، وضد كل مشروع استعماري استيطاني (١) .

قال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

وبعد هذا التقديم المفصل نتناول تفصيل تجديد الخطاب الإسلامي .

---

(١) تم الاستفادة في هذا التقديم من : أنور طه . باحث فلسطيني من مقالات " الملتقى الفكري للإبداع " . شبكة الإنترنت .

ثالثاً : ماهية الخطاب والخطاب الإسلامي :

الخطاب هو ظاهرة اتصالية اجتماعية تتمثل في مجموعة المفردات التواصلية التي تعبر عن محتوى الرسالة الاتصالية التي يتداولها الشركاء في أية منظومة اجتماعية محددة ، والتي تتضمن رؤية منتج الخطاب لذاته في إطار المنظومة التي يحيا بها ، كما تتضمن الموقف العملي لمنتج الخطاب من كافة أبعاد الحياة ، والتعايش المشترك في تلك المنظومة المحددة ، استناداً لمرجعية من يقوم بإنتاج هذا الخطاب ، وفي إطار إدراكه لخصائص الظرف التاريخي الذي يمثل سياق حركته .

والخطاب الإسلامي هو تفاعل الإسلام مع العصر الذي يعيشه بكل أبعاده ومعطياته وشخوصه ومجتمعاته في كل المجالات، والتعبير عنه بكل الوسائل والأشكال الملائمة لذلك العصر .

والخطاب الإسلامي ليس هو الخطبة أو الدرس أو المحاضرة فقط ، فالخطاب الإسلامي أعم وأشمل ، فكل مايوصل مفهومك ورسالتك إلى الناس فهو خطاب سواءً عن طريق الخطبة أو الدرس أو المحاضرة ، أو كتاب أو موسوعة ، أو عن طريق برنامج إذاعي أو تلفزيوني ، أو رسالة على الإنترنت .... إلخ . والوسائل لإيصال الكلمة والدعوة والرسالة أصبحت متطورة ومتنوعة .

والخطاب الإسلامي يستند لمرجعية إسلامية من أصول دين الإسلام القرآن ، والسُّنَّة ، وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى ، سواءً كان منتج الخطاب جماعة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو غير رسمية ، أو أفراد متفرقون جمعهم الاستناد للدين ، وأصوله كمرجعية لرؤاهم ، وأطروحاتهم .

وفي إطار تعريف الخطاب الإسلامي ينبغي أن نشير إلى أمرٍ بالغ الأهمية في أن استخدامنا لكلمة الخطاب هنا هو استخدام مجازي ؛ حيث توجد خطابات

إسلامية متعددة بقدر تعدد الاجتهادات في مجالات الحياة المختلفة .

والخطاب الإسلامي بهذه الصورة مفهوم أوسع من الفقه الإسلامي ، وأوسع من الاجتهاد كمنتج علمي وأوسع من الفكر الإسلامي ، فهو يستوعب هذه المكونات جميعها ويتجاوزها ليضم كل الأعمال الدرامية الإسلامية والفن الإسلامي والأدب الإسلامي ، وكل أطروحة عملية تم إنتاجها في ضوء إعمال النظر في أصول الدين ، وفق الضوابط الصحيحة والشرعية .

وفي البداية لابد من التأكيد على أن الموقف الذي يميز بين القوى والتيارات وألوان الخطاب الإسلامي مع الحضارة الغربية وما سواها ليس مجرد ضرورة مصلحية يقتضيها البحث عن الأصدقاء وتجنب تكثير الأعداء - وإن كان ذلك ضرورة مشروعة ومطلوبة - ، وإنما هو موقف نابع من العدل الذي يعلمنا إياه ويفرضه علينا القرآن الكريم والرسول - ﷺ - ، ومؤشراً على عظم الإسلام وصلاحيته المستمرة،فهو تصوير كامل للبشرية عن رب العالمين حتى قيام الساعة .

والإسلام في خطابه المعجز لم يضع كل عالم الكفر في سلة واحدة ، وإنما يميز بين المحاربين منهم والمعاهدين الذين لم ينقضوا عهودهم مع المسلمين ، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين ، ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين المشركين ، بل وميّز الإسلام بين شرك الجاحد للحق الذي يعرفه وبين شرك الجاهل ، فإذا استجار المشرك الباحث عن المعرفة ، فعلى المسلمين إجارته وتقديم المعرفة إليه ، ثم إيصاله آمنا إلى مأمنه وتركه لضميره ، دونما إكراه .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة : ٦] .

بل لقد ميَّز الإسلام بين الدهريين الذين استبدلوا الدهر بالخالق - سبحانه وتعالى - وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق وخلقه للخلق ، لكنهم

أشركوا مع الخالق الوسائط التي زعموا أنها تقربهم إليه زلفى ! .

وتحدثت آيات القرآن الكريم عن هذا التنوع في أصناف المشركين ، فصاغت المنهاج العلمي في دراسة الواقع ، والموقف العادل في التعامل مع الآخرين .

ولقد ميَّز المنهاج الإسلامي في التعامل مع الكتابيين ، فميَّز بين اليهود الذين هم أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا والنصارى الذين هم أقرب الناس مودّة للمؤمنين ، كما أنه لم يضع جميع النصارى في سلة واحدة ، وإنما ميَّز بين الموحدين منهم الذين يتعبدون على شريعة عيسى - عليه السلام - قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] .

وبين الذين عبدوا المسيح - عليه السلام - وأمه والأحبار والرهبان من دون الله ، فوصفوا في القرآن بصفات الكفر ، ونجد المنهج القرآني الكريم يبلغ قمة العدل والإنصاف عندما يقول : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١١٣-١٠٥] .

بينما منهم الذين لايتناهون عن منكر فعلوه . قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

[المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

ويؤكد القرآن هذا المنهج العادل في التعامل مع الآخر - الكتابي - عندما يستخدم حرف التبعيض ﴿ مِنْ ﴾ للتمييز بين فرقهم ومذاهبهم،فيقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران :١٩٩] ، وعندما يتحدث

عن ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٩] ، أو ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ [البقرة : ١٠٩] . دونما إطلاق أو تعميم .

ومع اشتراك الفرس والروم - يوم ظهر الإسلام - في التجبر والظلم والهيمنة والاستعمار ، وإعلان الإسلام عن سعيه لتحرير الأرض من استعمارهم ، وتحرير الضمائر من تجبرهم وإكراههم ، إلا أن الإسلام لم يُسَوِّ بين الطاغوتين - الفُرس والروم - فميز القرآن بين الكتابيين منهم - الروم - وبين المجوس - الفُرس - عندما تحدث عن حزن المسلمين لانتصار الفرس على الروم وفرحهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس .

قال تعالى :﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ ﴾ [الروم : ١-٥] .

وجاء فقهاء الإسلام - انطلاقًا من منهاج القرآن في رؤية الآخرين - فميزوا بين أصناف الكفر ودرجاته ، فهناك كفر جحود للحق الذي عرفه الجاحدون ، وهناك كفر جهل وتقصير ، وهناك كفر من بلغته الدعوة ، وكفر من لم تبلغه الدعوة ، أو بلغته مشوهة دون إقامة الحجة عليه وإزالة الشبهات عنها .

وفي ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي - رحمه الله - :

إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم رحمة الله إن شاء الله تعالى ، أعني الذين هم أقاصي الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصناف :

- صنفٌ لم يبلغهم اسم محمد - ﷺ - فهم معذورون .
- وصنفٌ من بلغهم اسمه نعتًا وما ظهر عليه من المعجزات ، وهم المجاورون لبلاد الإسلام المخالطون لهم ، وهم الكفار الملحدون .

❁ وصنفٌ ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد - ﷺ - ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبا أن كذابًا ملبسًا اسمه محمدٌ ادَّعى النبوة ... فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول - الذين لم يبلغهم اسم الرسول - ﷺ - فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لايحرك داعية النظر في الطلب .

ذلك هو المنهاج الإسلامي في النظر للآخر - كل الآخر - وفي التعامل معه ومع الخطاب الصادر عنه ... فالبلاغ القرآني القائل : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ (هو عنوان المنهاج الإسلامي في هذا المقام)[1] .

وهناك بعض الآيات والأحاديث التي أسيء فهمها حول التعامل ومخاطبة غير المسلمين ، خاصة اليهود، ويتناولها الوعاظ والخطباء والعامة ونذكر منها :

[أ] آيات وأحاديث أسيء فهمها :

[١] قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقد اتخذ بعض المسلمين من الآية دليلاً على أن الإسلام ينهى عن مودة المسلم لغير المسلم بصفة مطلقة ، ويؤكدون ذلك بقوله تعالى في أول سورة الممتحنة قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ①﴾ [الممتحنة: ١] .

وقد ذكر العلماء الأثبات أن آية المجادلة هنا تنهى عن مودة من كان غير مسلم

---

(١) من مقال د/ محمد عمارة " الوحدة الإسلامية " ١٠- ١٢- ٢٠٠٤م . نشرة حدس . تحميل من الإنترنت .

ولو كان مسالمًا للمسلمين ؛ كما تنهى عن موادة ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، أي حارب الله ورسوله ، وشاقّ الله ورسوله ، فهذا شخص معادٍ للإسلام وأهله ، فكيف يطلب من المسلم أن يظهر له الود والمحبة ؟.

بل إن مودة غير المسلم ممنوعة في الإسلام وقد أجاز الشرع الإسلامي للمسلم أن يتزوج الكتابية،والحياة الزوجية في الإسلام تقوم على أسس وأركان ، منها : المودة والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم : ٢١] .

ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يجوز زواج الكتابية إذا كانت من قوم معادين للمسلمين ، واستدل العلماء لقوله بهذه الآية : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

والمفروض في الحياة الزوجية ما أثبتته الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ، فآية : ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تعني الأعداء المحاربين وغير المحاربين للمسلمين . قال تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] .

وقد ذكرت السورة قاعدة من أعظم قواعد السلوك والتعامل مع المخالفين ولو كانوا أعداء ، وهي :

أن العداوة ليست أمرًا دائمًا وأبديًا بالضرورة،فقد تستحيل العداوة إلى مودة وذلك بعد أن يُسلموا ، وهذا ما قررته السورة بصيغة الرجاء. قال تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة : ٧].

أي :الله قدير على تحويل القلوب من كراهية إلى مودة وذلك بعد أن يسلموا ـ كما بيَّنا ـ والله غفور رحيم يعفو عما سلف ، ويسامح عباده فيما مضى .

[٢] قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾ :

قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾** ﴾ [المائدة : ٥١] ، يجب أن يُفهم في ضوء السياق وأسباب النزول للآيات ؛ فالآية التي تليها تشير إلى أن اليهود والنصارى كانوا معادين للمسلمين، وكانوا في حالة من القوة والمنعة ؛ بحيث أصبح كثير من المنافقين ومرضى القلوب يحاولون التقرب إليهم والموالاة لهم على حساب دينهم وأمتهم وجماعتهم . وفي هذا لا ينازع منصف في أنه خطر على سيادة الأمة ووحدتها وتماسكها ، ولا سيما في مرحلة تكوينها وتأسيس بنيانها .

تقول الآية الكريمة التالية للآية المذكورة :

قال تعالى :﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾** ﴾ [المائدة : ٥٢-٥٣] .

فالواضح من هذه الآية الأخيرة أننا أمام جماعة من المنافقين الانتهازيين المخادعين الذين يخونون جماعتهم ويوالون أعداءها ، ويحلفون لهم كاذبين إنهم لمعكم ! ولذا يقول القرآن : ﴿ **حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ** ﴾ .

ولا غرو أن من يوالي الأعداء وينضم إليهم ويلقي إليهم بالمودة على حساب أمته أمر مجرَّم ومحرَّم وطنيًا ودينيًا ولا سيما في أوقات الصراع والحروب ، فهو في نظر الوطنية خيانة ، وهو في نظر الدين ردّة ، وهي معنى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

ومن هنا جاءت الآية التالية تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ [المائدة : ٥٤] .

● **كأن الآية تقول :** إن هؤلاء الذين خانوا قومهم وانضموا إلى أعدائهم ، وارتدوا عن دينهم ، سيعوِّض الله الأمة خيراً منهم بجيلٍ جديد أو أجيالٍ جديدة على نقيض هؤلاء .

فهذه الآيات في مطلق اليهود والنصارى عادين مسالمين للمسلمين ، ويهود ونصارى معادين لهم ، محاربين لدعوتهم ، كاليهود الذين نقضوا عهد رسول الله ﷺ وانضموا إلى أعدائه من الوثنيين المشركين ، الذين أغاروا على المدينة وأرادوا القضاء على الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ ، واستئصال شأفة المسلمين واقتلاع الإسلام من جذوره .

والآيات التالية في سياق النهي عن الولاء لليهود والنصارى تؤكد ذلك :

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) ﴾ .

[المائدة : ٥٧-٥٨] .

فهؤلاء قوم أعلنوا الحرب على الإسلام وأهله ، وهزؤوا بعقيدته ، وهزؤوا بشعائره ، وأعظمها الصلاة ، واتخذوها هزواً ولعباً .

واليهود والنصارى العاديون المسالمون ، فهم في نظر المسلمين أهل كتاب ، أجاز القرآن مؤاكلتهم كما أجاز مصاهرتهم .

قال تعالى: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥] .

وإذا كان أهل الكتاب لهم مكانة خاصة ومعاملة خاصة لدى المسلمين ، فإن النصارى منهم يعتبرهم القرآن أقرب مودة للمسلمين من اليهود الذين بارزوه بالعداوة برغم مبادرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعقد الاتفاقية معهم بُعَيد هجرته إلى المدينة ، وقد جعلهم فئة من أهل الدار يتناصرون في السّلم والحرب ، ويتواسون في السّراء والضراء .

ولعل الآيات التي صُدّرت بها سورة الروم ـ كما أشرنا من قبل ـ تدلنا بجلاء على قرب النصارى من المسلمين ، فقد قامت حرب بين الدولتين العظيمتين في ذلك الزمن : الفرس في الشرق والروم في الغرب ، وانتصر الفرس على الروم في أول الأمر ، فحزن لذلك المسلمون وفرح المشركون ؛ لأن الفرس مجوس يعبدون النار ويعبدون إلهين للخير والشر أو للنور والظلمة ، فهم أقرب إلى مشركي العرب عبدة الأوثان، والروم كانوا نصارى أهل كتاب، فكانوا أقرب إلى المسلمين.

وتجادل الفريقان وتراهنوا حول مستقبل الأمتين ، ولمن تكون الغلبة بعد ؟ ، وكان المسلمون بطبيعة الحال مع الروم ، والمشركون مع الفرس ، وبشر القرآن المسلمين بانتصار الروم ، وكيف عبّر عن مشاعر المسلمين بقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم ٤ – ٥] .

فهذا هو موقف الإسلام المبدئي من أهل الكتاب عامة ومن النصارى خاصة .

وهذا لا يمنع أن تأتي آيات من القرآن تنقد اليهود أو النصارى أو أهل الكتاب عامة فيما حرّفوا من كتبهم ، وما بدّلوا من عقائد موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ومن ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وما غيروا من شرائع أنبيائهم ، فالقرآن قد جاء مصدّقا ومتمّماً للتوراة والإنجيل ، كما أعلن ذلك في آيات كثيرة ، كما جاء

أيضًا (مصححًا) لها ، أو بتعبير آخر (مهيمنًا عليها) كما قال تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة :٤٨] .

كما ينقد القرآن مواقف أهل الكتاب ـ خصوصًا اليهود ـ من دعوة الإسلام ورسول الإسلام وأمة الإسلام ، ومع هذا يأمر الرسول ﷺ والمسلمين بالعفو والصفح ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) ﴾ البقرة : ١٠٩] ، ومعنى : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ : أي حتى يشرح الله صدورهم للإسلام ، أو يروا انتصار الإسلام وعلوّ كلمته أمام أعينهم .

وقد أكدت سورة المائدة ـ وهي من أواخر ما نزل من القرآن ـ ذلك في قوله تعالى في شأن بني إسرائيل، وقد نقضوا ما أخذ الله عليهم من ميثاق،قال تعالى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ المائدة : ١٣] .

فرغم ظهور الخيانة من أكثرهم أمر الرسول ﷺ أن يعفو عنهم ويصفح ، فهذا من الإحسان الذي يحبه الله تعالى . وهذا في نفس السورة التي نهت عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء .

ونلاحظ أن القرآن حين دان بني إسرائيل قال :﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وذلك ليؤسس منهج العدل مع الخصوم في الرضا والغضب، ولذلك استثنى فقال: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وهذا هو نهج القرآن معهم .

[٣] قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ :

قول الله تعالى في سورة البقرة : **﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾** [البقرة : ١٢٠] .

وهي من الآيات التي تُذكر كثيرًا ويُساءُ فهمها في العلاقة بين المسلمين من ناحية ، واليهود والنصارى من ناحية أخرى ، وكثيرون لا يتدبرون الآيات ولا يتاملون النصوص بعمق وتأمل يجدون في هذه الآية حائلاً للتفاهم والتعايش والتصالح مع اليهود والنصارى ، وينبثق هذا التفكير عن فهمٍ سليمٍ للآية الكريمة لعدة أمور :

أولاً: لأن الآية ليست خطاب خاص للرسول ﷺ **﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ﴾** بل جاءت للعموم .

وثانيا: بعد أن سلمنا بانها خطاب للجميع ، فإنها تدل على عدم رضاهم عنا ـ الرضا الكامل ، أو الرضا المطلق ـ حتى نتبع ملتهم . وهذا شان كل ذي ملّة متمسك بملّته حريص عليها . ونحن كذلك لا نرضى عنهم تمام الرضا حتى يتبعوا ملّتنا ؛ فهو موقف طبيعي ومتبادل بين أهل الملل ، أو أهل الأديان جميعًا .

وقد قال تعالى : **﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾** البقرة : ١٤٥] .

وثالثًا : إن هدفنا ليس إرضاء اليهود والنصارى حتى يكون عدم رضاهم حجر عثرة في طريقنا أو عائقًا دون تفاهمنا وتعايشنا ، بل هدفنا هو إرضاء الله ـ تبارك وتعالى ـ قبل كل شيء ـ وسواء رضي الناس عنا أم سخطوا ـ ولن نبيع رضوان الله تعالى برضى أي مخلوق كان ، ولا باي ثمن مادي أو أدبي ، ولن نفرّط مثقال ذرة في ابتغاء مرضاة ربنا مهما كانت المغريات .

ورابعًا : أن الإسلام ـ برغم وجود هذه الآية ـ لم يمنع المسلم أن يؤاكل اليهودي أو النصراني ، وأن يصاهره فيتزوج ابنته أو أخته أو قريبته وينجب منها أولادًا يبرون أمهاتهم وجدّاتهم وأخوالهم وخالاتهم ، ويعاملونهم بما يجب لذوي الأرحام وأولي القربى من الحقوق والحرمات . كما قال تعالى :

- ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .
- ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [سورة النساء: ١] .

[٤] حديث (لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام...) .

وأما حديث الرسول ـ ﷺ ـ : " **لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه**" [١] .

فهذا ليس مقيد بأيام الصراع والحروب ، بل بأيام الاستقرار والسلام أيضًا ، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يقرؤن السلام على كل من لقيهم وعرفوه من المسلمين ، عملاً بالأمر بإفشاء السلام .

فهو ليس مقيد بأيام الحرب، ويدل على ذلك ما رواه البخاري في الأدب المفرد، والنسائي عن أبي بصرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : "**إني راكب غداً إلى اليهود فلا تبدؤوهم بالسلام**" [٢] .

ويمنع الولد أن يسلم على أمه أو على خاله أو خالته أو جده أو جدته من غير المسلمين ، وأيضًا قد أمره الله بصلة الرحم وإيتاء ذي القربى ؟! ، وحسبنا هذا النص القرآني العام المحكم : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)** ﴾ [الممتحنة: ٨] ،فالقسط هو العدل، والبر هو الإحسان،وهو شي فوق العدل.

---

(١) رواه مسلم في الأدب (٢١٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن ماجه والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٦٤) ، المسند الصحيح للإمام مسلم (٢١٦٧) . الراوي أبو هريرة رضي الله عنه . خلاصة درجة الحديث " صحيح " .

العدل : أن تعطي الحق ، والبر أن تعطي فوق الحق ، العدل : أن تأخذ مالك من حق ، والبر : أن تتنازل عن بعض حقك أو عن حقك كله ، وهذا ما رغب فيه القرآن في التعامل مع غير المسلمين [١] .

[ب] أهمية تجديد الخطاب الإسلامي :

والحاجة إلى تجديد الخطاب الإسلامي هي من الخصائص الملازمة لتجديد دين الأمة الإسلامية ، والخطاب الإسلامي لم يتوقف عن التجديد في تاريخ الإسلام ، وإن اختلف بين مرحلة وأخرى وحتى في عصرنا الحديث لم يتوقف أمر تجديد الخطاب الإسلامي فقد برزت في هذا المجال أسماءٌ عديدة منها على سبيل المثال : " الشيخ جمال الدين الأفغاني ، الإمام محمد عبده، الشيخ رشيد رضا ، الشيخ ابن باديس في الجزائر ، الطاهر بن عاشور في تونس ، والإمام حسن البنا . . . "
ولكن في الفترة الأخيرة بدأ التاريخ البشري والحضارة الإنسانية تأخذ سمات خاصة ، وتطور سريع بشكل لم تعهده البشرية من قبل ؛ مما أوجد ضرورة ملحة في تجديد الخطاب الإسلامي من خلال الثوابت الإسلامية ؛ ليتفاعل مع طبيعة هذا العصر ، وقد برزت هذه الدعوة بشدة لعوامل كثيرة منها ما يلي :

[١] تغير شكل وطبيعة العالم خلال هذه الحقبة التاريخية نحو عولمة شاملة قربت المسافات وتخطت حواجز الطبيعة واللغة والثقافة . . إلخ ، وأصبح العالم قرية صغيرة بكل ما تعنيه الكلمة من معان، وتشابكت المصالح بين كافة الدول ، والمجتمعات . وأريد أن أعلق هنا تعليقًا مختصراً عن العولمة . . .

وأما الحديث عن العولمة وأنها تعني الأمركة، وتعني سيطرة أميركا وهيمنتها وغير ذلك على العالم ، في الحقيقة كل ذلك يعتبر أماني وأوهاما وخيالات يروج

---

(١) انظر: القرطبي ١١ / ١١٢ .

لها الأميريكيون أنفسهم ، ويرددها البعض دون إدراك لطبيعة هذه المرحلة التاريخية في حياة البشرية ، والأصوب هنا أن أمريكا ومن يدورون في فلكها يحالون محاولات يائسة لسرقة هذه العولمة ، وهذا غير جائز وغير ممكن ، ولاتستطيع أمريكا وكل أعوانها ذلك ؛ فالعولمة رحلة طويلة في تاريخ البشرية بدأت في الوصول إلى شكلها الكامل ومرحلتها النهائية ـ العولمة الشاملة ـ ، وهي حركة البشرية جمعاء . وهذه المرحلة لها خصائصها التي تفرضها على البشرية ، وتحتاج إلى منهج في التعامل يناسب طبيعتها العالمية التي تشابكت فيها الأمم ، والقوميات ، واللغات ، والمصالح ، والثقافات .... إلخ ، وأمريكا والغرب والشرق لا يملكون هذا المنهج العالمي ، ولاشك في أن البشرية في تطورها القريب ، وما قد ينتج عنه من مخاطر وتهديدات هي في أشد الحاجة إلى المنهج الإلهي الوحيد على الأرض ، والذي يمتلكه المسلمون ـ الإسلام ـ ، الإسلام كشريعة وعقيدة بمعناه وتصويره الكامل الشامل عن رب العالمين . والعولمة تتجاوز أميركا وغيرها .

إنها تحرك البشرية بأكملها ، تحرك البشرية بعقولها وبأجسادها وبثقافاتها ، تحركًا يفوق أية دولة أو تجمع ، إنها حركة التاريخ البشري والتطور الإنساني ، وكل محاولات أمريكا والغرب وغيرهما يمكن تصنيفها في إطار العبث بأمن وسلامة البشرية ؛ لتحقيق مكاسب فردية مؤقتة ناتجة عن نظرة بشرية تتمتع بالأنانية المفرطة ، ورؤية قاصرة حول مستقبل البشرية خلال هذه المرحلة الفاصلة في تاريخ البشرية .

[٢] هذه المرحلة ـ العولمة الشاملة ـ هي مرحلة الإسلام الذي أنزله رب العالمين ليكون رحمة للعالمين . والشيخ حسن البنا عبر عن ذلك في فترة مبكرة عندما قال : " ... فما يشهده العالم من بعث وطني ، ووحدات قومية ، واتحادات إقليمية ،وتنظيمات دولية هي خطوات على الطريق إلى العالمية المنشودة

.. فهذه العالمية أو الإنسانية هي هدفنا الأسمى وغايتنا العظمى وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح ، والدنيا صائرة إلى ذلك لامحالة ، ... وحسبنا أن نتخذ منها هدفاً،وأن نضعها نصب أعيننا مثلاً، وأن نقيم في هذا البناء الإنساني لبنة ، وليس علينا أن يتم البناء ؛ فلكل أجل كتاب " (١) .

ودعوتنا لتطوير خطابنا الإسلامي في عصر العولمة لا تعني مطلقًا تغير الثوابت والأهداف الإسلامية، بل هو يعني الرجوع إلى الثوابت الإسلامية ـ القرآن والسُّنَّة ـ ليتمكن المسلمون من أخذ المبادرة وتولي أمر البشرية خلال هذه المرحلة ؛ فدينُنا الإسلامي هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية ، والتي بها صلاح الأمر إلى قيام الساعة ، ولا بديل عنه. ونحن هنا بحاجة إلى تغيير أساليب الدعوة وطرائق البيان وفنون التعليم والذي منبعها الإسلام نفسه .

وذلك لأننا تعودنا الحديث إلى أنفسنا ، وأن غيرنا لايسمعنا ؛ أما الآن فإن ما يقال في مكان يصل إلى أطراف العالم كله في نفس اللحظة ، وقد دخلت الدعوة الإسلامية مرحلة التطبيق للدعوة العالمية الشاملة.

وكما قال علماؤنا : إن الخطاب الإسلامي في أصوله وأسسه لايتغير ، ولكن الذي يتغير هو الأسلوب والطريقة ، فهو خطاب يتغير من شخص إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ، ومن فئة إلى أخرى ؛ فإسقاط خبرات مجتمعات على غيرها تختلف عنها يؤدي لمشاكل متعددة تواجه المسلمين .

فخطاب الرجل غير خطاب المرأة ، وخطاب الشباب غير خطاب الشيوخ ، وخطاب أهل القرى غير خطاب أهل المدن، وخطاب الناس في الشرق غير خطاب الناس في الغرب ، وخطاب الناس في القرن الحالي غير خطاب الناس في القرون السابقة .... وهكذا . والكثير من العلماء لم يفطنوا لهذه الحقيقة في تغيير خطابهم ؛ لتلائم الدعوة كافة البشر في هذا العصر، فلا يمكن أن تكون أساليب

(١) دعوتنا في طور جديد . مجموعة الرسائل ص١٤٤ . الشيخ حسن البنا . تحميل الرسائل من الإنترنت .

الدعوة لمن يصعدون القمر هي نفس أساليب الدعوة لمن يسكنون الغابات والقرى!.

[٣] إن أمر تجديد الخطاب الإسلامي خلال هذه المرحلة من الأمور المهمة في نشر الدعوة الإسلامية بين كافة البشر ، وهو يحتاج إلى جهود ضخمة ، وإلى تعاون وتنسيق كامل داخل الدول وبين الدول الإسلامية وبين العلماء المسلمين في كافة بقاع الأرض ؛ حتى يتمكن المسلمون من أداء الرسالة التي ابتعثهم الله من أجلها - أي نشر دعوة الإسلام - ، ويزداد الأمر صعوبة لتأخر المجتمعات الإسلامية على مستوى العالم ، تأخرها العلمي والصناعي ، إضافة إلى الضعف السياسي والعسكري وعدم وجود تعاون بينها،فيجب أن نحدد الوسائل الملائمة للتعامل مع مستجدات العصر التي طرأت على الحياة عمومًا ، وحياة المسلمين بصفة خاصة.

[٤] إن الشباب المسلم يحتاج إلى طرح يتفاعل معه ، وهذا الطرح ينبغي أن يكون مقبولاً ، وليس حديثًا عاديًا ومملاً لا يؤثر على أحد ، بل وقد يكون سلبيًا في بعض الأحيان . فلابد أن يكون الخطاب الإسلامي قادرًا على التعامل مع هذه المستجدات ، فشباب المسلمين اليوم هم أداة نشر الإسلام على مستوى العالم.

[٥] مواجهة الفساد الإعلامي الذي أصبح ظاهرة خطيرة في عالمنا العربي والعالم الإسلامي والعالم أجمع ، وإظهار الإسلام بصورته الراقية التي ترفع من شأن الإنسان وتكرمه ، ولابد أن يتعامل المصلحون بصورة صحيحة ، وعن معرفة ودراية بكل مجتمع يتواجدون فيه ، ولابد من جذب الشباب بوسائل صحيحة تناسب العولمة الشاملة والتطور العلمي المذهل .

[ج] الأهداف العامة لمخاطبة غير المسلمين :

وأهم هذه الأهداف :

[١] بيان محاسن العقيدة الإسلامية وما فيها من مزايا البساطة والوضوح ورفع الحرج.

[٢] بيان محاسن الشريعة الإسلامية وما خصّها الله به من رعاية العدل

والتيسير، وإقامة المصالح بتوازن واعتدال .

[٣] بيان محاسن القيم والأخلاق الإسلامية ، وما تتميز به من شمول وواقعية وموازنة .

[٤] بيان محاسن رسول الإسلام ﷺ ، وما خصه الله من فضائل وكمالات إنسانية استحق بها أن يكون صاحب الرسالة العالمية الخالدة .

[٥] بيان محاسن القرآن الكريم الذي أودعه الله معالم هذه الرسالة ، وضمنه من جوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وحقائق المعارف ، وأصول الحكمة ، والعدل ما لا توجد في كتاب آخر ، وخصّه بالإعجاز ، والتفسير ، والإيجاز ، والخلود .

[٦] بيان محاسن الأمة الإسلامية التي حملت هذه الرسالة إلى العالم ، وخصوصًا صحابة النبي ﷺ الغُرّ الميامين ﷺ الذين فتحوا العالم بالبر والمرحمة ، وأقاموا فيه دولة العدل والإحسان .

[٧] بيان محاسن الحضارة الإسلامية التي أقامها المسلمون بما تميزت به من مصادرها الربانية، وأصولها الأخلاقية ، وتوجهاتها الإنسانية والعالمية . وقد سعدت البشرية بها وتعلمت منها في الشرق، والغرب نحو ثمانية قرون .

[٨] دفع الشبهات التي أثيرت قديمًا ـ والتي تثار حديثًا ـ ضد الإسلام وعقيدته، وشريعته ، وقيمه ، وقرآنه ، ونبيه ﷺ،وتاريخه ، وحضارته ، والرد عليها بالحسنى بمنطق علمي رصين يتجنب الإثارة ، ويعتمد على الحجة والبرهان[١] .

[٩] التركيز على دفع الشبهات التي يكثر اللغط فيها اليوم من غير المسلمين ؛ مثل اتهام المسلمين بالعنف والإرهاب ، وأن أصول هذا العنف كامنة في

---

(١) من كلمة الدكتور يوسف القرضاوي أمام ندوة قناة "اقرأ" الفقهية الإعلامية الثامنة لتأصيل قضايا الإعلام والفن" التي عقدت يومي ٨ ، ٩ ، ١٠ - ٢٠٠٥ في جدة بغرب السعودية ، ضمن محور مخاطبة غير المسلمين إعلامياً.

العقيدة الإسلامية نفسها ، التي تصف (إله المسلمين) بأنه (جبار وقهار) وأنه دمَّر أممًا وأهلها حين غضب عليها ، وأن القرآن ذاته يحمل الأساس العقائدي والفكري للعنف!! .

[١٠] الحوار بالحسنى مع العقلاء والعادلين المنصفين من الغربيين ، سواء كانوا من رجال الدين أم من رجال الفكر من الكتاب والمستشرقين والأكاديميين، أم من رجال السياسة وصُنَّاع القرار .

[١١] الرد على الأكاذيب وحملات التشويه المتعمدة التي تقوم بها جهات مشبوهة أو مأجورة أو حاقدة ضد الإسلام وأمته ، وتؤجج نار الكراهية والعداوة بينهم وبين المسلمين .

[١٢] علاج القضايا الشائكة في الفقه الإسلامي والفكر الإسلامي ، مثل : قضية فرضية جهاد الطلب التي يقرر جمهور الفقهاء أنها فرض كفاية ، وأنه واجب على المسلمين أن يغزوا بلاد الكفار كل سنة مرة على الأقل ، فإن لم يقم بذلك أحدٌ أثموا .

[د] معالم الخطاب الإسلامي في عصر العولمة :

بدايةً يجب الانتباه إلى أمرين في غاية الأهمية عند عملية تجديد الخطاب الإسلامي وهما :

[١] أن هناك حق أصيل في الاختلاف الفكري ، ولا يجدر بنا الانسياق وراء الضغوط غير المسلمة لدفع الخطاب الإسلامي للتناقض أو المخالفة مع أصول الشريعة .

[٢] أن التحاور بين الأطياف المختلفة للخطاب الإسلامي ليس الهدف منه توحيد الخطاب الإسلامي، ولكن الهدف وضع ضوابط لما يمكن تسميته بالخطاب

الإسلامي ؛ لئلا ينتحل هذه الصفة من لايتمتع بالأهلية الموضوعية والعلمية .

ولقد رسم لنا الإسلام معالم هذا الخطاب حينما رسم معالم المنهج الدعوي في آية موجزة من سورة النحل ، قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والخطاب ليس مخصصاً بالرسول ـ ﷺ ـ بل المراد به الأمة الإسلامية كلها، فكل مسلم داعية إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال تعالى :﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)** ﴾ .

[يوسف :١٠٨].

فإذا كنت تتبع الرسول ـ ﷺ ـ فأنت تدعو إلى الله حسب اختلاف ودرجة الدعوة.

[هـ] منهج الخطاب الإسلامي :

ومنهج الخطاب الإسلامي أو الدعوة الإسلامية كما رسمه القرآن الكريم يتضح في النقاط التالية :

أولاً : وجوب الدعوة على كل مسلم ؛ للأدلة الشرعية على هذا الوجوب ، كل حسب استطاعته .

ثانياً : ربانية الدعوة، فهي دعوة إلى الله ـ عز وجل ـ لا إلى قوم أو عصبية أو لغة ، ويلزم أن يتحرر الناس من ربوبية بعضهم لبعض ، وأن يكونوا جميعا عباد الله وحده .

ثالثاً : دعوة المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة . فهي دعوة لاتستفز الناس ، لاتخاطب الناس بما لايفهمون ، ولاتكلفهم ما لايطيقون .

والحكمة تعني مايلي :

[١] استيعاب الأدلة العلمية المقنعة ، والبراهين العقلية الساطعة .

[٢] أن نكلم الناس بلسانهم وليس بلغتهم فقط ، بل أن نحدث كل قوم بما يناسبهم وواقعهم ومشكلاتهم ومستوياتهم وتحدياتهم وآلامهم وآمالهم.

[٣] الرفق بتبني منهج التيسير في الفتوي ، والتبشير في الدعوة .

[٤] ترتيب الأصول والأولويات ثم ندعو إلى الفروع بعدها .

[٥] التدرج من العقائد والأخلاق إلى الفروع والأطراف .

وأمّا الموعظة الحسنة فهي :

مخاطبة القلوب والعواطف النبيلة لتحريكها نحو الخير ، ولقد أكّد القرآن على أهمية الموعظة الحسنة ، وهي التي تصدر بأسلوب جميل ، وبحسن اختيار الموضوع والأسلوب ، والتوازن بين الترغيب والترهيب بالصحيح من النصوص ، وليس بالقصص الخيالية ، والروايات المختلفة .

رابعاً : حوار المخالفين بالتي هي أحسن :

وهو من المعالم الواقعية في الإسلام ، حيث أمر بالموعظة الحسنة مع المسلمين ، والحوار مع غير المسلمين بالتي هي أحسن،أي الأفضل والأرقى والأسمى والأرقى، ومنه أيضاً اختيار الجوامع المشتركة مع المخالفين ، وهي كثيرة منها :

✿ مواجهة موجة الإلحاد والإباحية ، والجريمة وتلوث البيئة ، وحقوق الإنسان والحريات ، والأسرة ، والأمومة والطفولة ، والقواسم الأخلاقية الإنسانية ، ولا نركز على نقاط الخلاف ومواضع التباين .

✿ ومن الحوار بالتي هي أحسن عدم التحامل على المخالف ، أوتوهين معتقداته وآرائه ، وعدم إشعاره بالهزيمة والنشوة بالانتصار عليه .

✿ وبعد العمل بالموعظة الحسنة اتخاذ الأدعية في صلوات الجمع ، وفي قنوت النوازل وغيرها . فيجب على الوعاظ والخطباء أن يدعوا الله تعالى أن يهلك الكافرين من كل ملّة ، وأن يُيتم أطفالهم ، ويرمّل نساءهم ، ويجعلهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين .

خامساً : التمسك بالثوابت والأصول في عرض الإسلام :

وتلمس مقاصد الشارع ـ عز وجل ـ فليس من تجديد الخطاب الديني تقديم الإسلام مكسور الجناح منزوع السلاح ، أو أنه علاقة شخصية بين العبد وربه فقط ، وليس منهج حياة كاملة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة ، وليس منه حذف الآيات المتحدثة عن بعض المخالفين لنا ، أو حذف الحدود من النظام الجنائي ، أو الجهاد من العلاقات الدولية ، أو حذف الغزوات من السيرة ، أو غير ذلك من أمور الإسلام .

فالخطاب الإسلامي في استقامة طالما استلهم أصول الإسلام، ولم يهمل أصلاً ، ولم يتجاوز أصلاً ، وطالما التزم بالمناهج السليمة في التعامل مع هذه الأصول .

وبديل ذلك الالتزام يتمثل في التخبط ، وفقدان التماسك المنطقي الذاتي ، والابتعاد عن مقاصد الشارع إلى مقاصد بشرية قد تقصر عن إدراك عمق المصلحة البشرية كما أدركها الشرع .

هذا وقد تمييز الخطاب الإسلامي ببعض الخصائص خلال هذه الفترة ـ عصر العولمة ـ ونشير هنا إلى أهمها :

خصائص الخطاب الإسلامي في عصر العولمة :

وهنا يجب أن نراعي حال الذين نخاطبهم ، ومكان المخاطبين وزمانهم ،

وظروفهم ، ولسان قومهم ، حتى يكون بلاغًا مبينًا كما نص القرآن الكريم ، ويراعى طبيعة التقارب الذي جعل العالم كله قرية صغيرة مما يلزم تحري العبارات والموضوعات ، وما يقال للمسلم من أحكام فقهية غير مايقال لغير المسلم من البدء بالعقيدة الإسلامية ثم التدرج معه ، وما يقال للمسلم الجديد غير مايقال للمسلم العريق ، كما أن الحوار يختلف باختلاف المدرسة التي ينتمي إليها الداعية ويعبّر عنها ، كما ينبغي أن تراعي سُنَّة التدرج التي هي سُنَّة كونية ، وسُنَّة شرعية .

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن : " **إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم ، فإن أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب** " .

هذا مع جمع الخصائص التالية :

[١] يؤمن بالوحي ، ولايغيب العقل .

[٢] يحرص على المعاصرة ، ويتمسك بالأصالة .

[٣] يدعو إلى الروحانية ، ولايهمل المادية .

[٤] يدعو إلى الجد والاستقامة ، ولا ينسى اللهو والترويح .

[٥] يتبنى العالمية ، ولايغفل المحلية .

[٦] يستشرف المستقبل ، ولا يتنكر للماضي .

[٧] يتبنى التيسير في الفتوى ، والتبشير في الدعوة .

[٨] ينصف المرأة ، ولايجور على الرجل .

[٩] ينكر الإرهاب الممنوع ، ويتبنى الجهاد المشروع .

[١٠] يصون حقوق الأقلية ، ولايجور على الأكثرية .

[١١] ينادي بالاجتهاد ، ولا يتعدى الثوابت .

[١٢] يدعو إلى حوار بنّاء يقوم بين المسلمين وغيرهم ، يكون غير (مُسيّس) ولا مُوجّه لخدمة السياسة ، ويشارك فيه علماء أحرار مخلصون ، لا علماء مجندون لخدمة أهداف حكومة أو فئة معينة .

[١٣] يرد على الشبهات المثارة حول العلاقة بغير المسلمين ، ردًا علميًا بواسطة علماء يمثلون الوسطية الإسلامية ، ويجمعون بين محكمات الشرع ، ومقتضيات العصر [١] .

[١٤] تناول الدعاة والأئمة والخطباء موقف المسلمين الصحيح من غير المسلمين، وإزالة اللبس الواقع في أذهان الكثيرين .

[١٥] أن يكون الخطاب للتلاميذ في المدارس،وللجماهير في الإعلام خاليًا من بعض ما حوته كتبنا القديمة من مفاهيم مغلوطة تحمل طابع عصرها وبيئتها .ولا يجوز أن نعممها على الأجيال؛وقد انتهت بانتهاء ظروفها .

[١٦] يتجاوز الخطاب الإسلامي الحاجز اللغوي في وجه التبادل الفكري والثقافي، من خلال الاستفادة بالانجازات العلمية،والقدرات الاقتصادية .

---

(١) من وثائق الدورة العادية الحادية عشرة للمجلس الأوروبي للإفتاء الفترة من ١ :٧-١٤٢٤هـ الموافق ٧ يوليو ٢٠٠٣ م . برئاسة د/ يوسف القرضاوي . رئيس المجلس ، وكلمة الدكتور يوسف القرضاوي أمام ندوة قناة "اقرأ" الفقهية الإعلامية الثامنة لتأصيل قضايا الإعلام والفن" التي عقدت يومي ٨ و٩-١٠-٢٠٠٥ في جدة بغرب السعودية ، ضمن محور مخاطبة غير المسلمين إعلامياً. " بتصرف" .

ويجب أن يستحضر المسلمون جميعًا ، وبشكل دائم حقيقة أن الإسلام هو رسالة الله الأخيرة إلى العالمين ، دونما تمركز أو انحصار في بقعة جغرافية ، أو تجمع حضاري بعينه ، وهنا تنشأ ضرورة حاجة الخطاب الإسلامي إلى مختلف اللغات حتى يؤتي ثماره ، وحاجة المجتمعات الإسلامية غير العربية إلى ضرورة اعتماد اللغة العربية إلى جانب لغاتهم القومية ؛ لتكون هي اللغة الوسيطة بين المسلمين في شتى بقاع الإسلام ، وهذا أمر لامفرّ منه خلال هذه المرحلة التاريخية من عمر الدعوة الإسلامية ، وهذا الباب فيه تقصير كبير من المسلمين في البلاد العربية وفي البلاد الإسلامية غير العربية وأصبح غير مقبول خلال عصر العولمة ، ولاشك أننا جميعًا مسؤولون أمام الله عن هذا التقصير في حق الدعوة للإسلام .

كما أن الخطاب الإسلامي غائب حتى الآن فيما يخص المشاركة في قضايا ومشكلات إنسانية عالمية ، وعلى سبيل المثال فإن الحركة العالمية المناهضة للعولمة والهيمنة الغربية،والمنحازة للمستضعفين والمقهورين رغم تقاطعها مع التوجهات، والمقاصد الإسلامية لايوجد حضوراً إسلاميًا فيها .

كما لا نسمع عن أي مشاركة إسلامية ، أو تحرك ضد انتهاكات حقوق الإنسان في رواندا ، وأمريكا اللاتينية وغيرها، بل إن الحديث حول الانتهاكات الإنسانية تُتهم فيه معظم الدول الإسلامية ! .

وحتى في القضايا التي تخص المسلمين في البوسنة مثلا فإن التدخل كان للأمريكان والاوروبيين . . . إلخ ، وأين المسلمين من كشمير ، وأذربيجان ، والشيشان . . .إلخ .

فتناول المسلمين ـ خاصة العرب ـ لهذه الأمور ضرورة ملحة ؛ حتى ينطلق الخطاب الإسلامي إلى العالمية والإنسانية ؛ لأن الجهود المبذولة من المسلمين حتى الآن تبدو غير كافية .

قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وحتى تكتمل النظرة حول تجديد الخطاب الإسلامي فإننا نؤكد ثانيةً أنه على المسلمين جميعًا ضرورة العناية باللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ ، وإنزالها منزلتها الصحيحة بين المسلمين ، وهذا ليس من باب العصبية أوغير ذلك ، ولكن حتى تشكل اللغة العربية لكافة المسلمين الترابط ، والتمسك بالدين الإسلامي عن وعي وفهم ، وحتى تسهل حركة الدعوة الإسلامية في عصر أولى خصائصه التقارب بين البشر جميعًا .

قال تعالى :﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾[آل عمران : ١٠٣] .

ومن ضرورات الاعتصام بالدين الإسلامي والقرآن الكريم ؛ التمسك باللغة العربية وتعلمها .

وأتساءل هنا مباشرة :

لماذا لاينتبه العرب إلى ما يحدث من إقصاء للغة العربية في المجتمعات العربية ؟!.

ولماذا لا تتحول اللغة العربية داخل الدول الإسلامية إلى المناهج التعليمية بصورة شاملة وموسعة ، وتكون اللغة الثانية إلى جانب لغات تلك الدول في بلدان مثل " باكستان ، وأندونسيا ، إيران ، ونيجيريا " وغير ذلك من الدول الإسلامية ؟! .

بل مما يثير الغرابة أن المسلمين في غالبية الدول الإسلامية يستخدمون لغة وسيطة بينهم للتفاهم مثال : " الإنجليزية او الفرنسية " .

لقد أصبح هذا الأمر من العيوب الكبيرة في المجتمعات الإسلامية ، والغير مقبولة في هذا العصر ، ويجب أن ينظر علماء المسلمين إلى هذه القضية ، ويعملوا على وضع الحلول المناسبة لها بما يساعد على دخول الإسلام مرحلة العالمية الكاملة للدعوة الإسلامية .

والسؤال هنا :

كيف تكون هذه الدول إسلامية ، والقائمين على أمر الولاية ورعاية الدين لايجيدون العربية ؟! .

وهذه المسألة في غاية الدقة والأهمية في عصر العولمة الشاملة وتحتاج إلى التخلي عن العصبية والنعرات القومية بما يخدم الدين الإسلامي ، وتأدية رسالة تبليغه إلى كافة البشر ، فلقد زلل التقدم الحضاري كل العقبات أمام هذه المهمة التي ابتعث الله المسلمين من أجلها .

كما أن اللغة العربية إضافة إلى ذلك ستخلق بين المسلمين علاقات ثقافية ومعرفية وإعلامية تلائم العصر ، وستوجد ترابطًا سياسيًا واقتصاديًا ، وتبادلاً للمعرفة والعلم ، وتحقيق الأخوة الإسلامية ، والتكافل بين المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وستساعد على خلق نوع من الوعي والإحساس بقضايا المسلمين حول العالم ، وبايجاد نوعًا فريداً من الترابط بين المسلمين في شتى بقاع الأرض لم تعرفه البشرية من قبل إلا في الإسلام ، هو ترابط الأخوة الإيمانية .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات :١٠] .

وسيكون لها الأثر الطيب والنتائج العظيمة في تجديد الخطاب الإسلامي في هذا العصر ـ عصر العولمة ـ ، وفي الدعوة الإسلامية ونشرها في أرجاء الأرض ، والتصدي لكل معاول الهدم التي تريد أن تنقض على الدين الإسلامي .

المبحث الثالث تجديد التاريخ الإسلامي

لقد أصبح من الأمور الضرورية لتجديد دين الأمة الإسلامية إعادة قراءة الموروث التاريخي الإسلامي الضخم، فلقد أصبحت الحاجة ماسة لعملية التنقية والتوعية الثقافية أكثر من أي وقت مضى ، ولابد من بدء معالجة طويلة النفس دائبة لهذا التراث الضخم ؛ ترسم المنهج الصحيح ، وتعمق ابعاده حتى نعيد تشكيل العقل المسلم وتراثه وتاريخه الذي إهمل بشكل عام وكلي .

فبعد أن كانت العقلية المسلمة تدقق وتحقق لتقف على صحيح الرواية ، وانتجت علوم الحديث ، والجرح والتعديل ، وعلم الرجال ، وألّفت المصنفات ، ولمعت أسماء في تاريخ الإسلام ، قامت بدور عظيم في تجديد دين الأمة الإسلامية بحفظ سُنَّة الرسول ـ ﷺ ـ ، ووضعت الأسس والضوابط الكفيلة بإنجاز هذه المهمة مما لانظير له في أية حضارة بشرية أو أمة من الأمم ، فالتوثيق والتثبت من الأخبار عِلْمٌ تفرّد به المسلمون ، وتميزت به الحضارة الإسلامية .

ولكن مع مرور الزمن أخذت هذه الروح تخبوا حتى كادت أن تنطفيء في بعض الفترات التاريخية ، وكانت تعود على استحياء مع بعض المحاولات الفردية والقليلة في العالم الإسلامي ، ولكنها بدأت تظهر بقوة من جديد مع الصحوة الإسلامية ، وإن لم تصل إلى الصورة المطلوبة ؛ حيث يتوفر في عصرنا هذا من الوسائل والأدوات والعلماء القدر الذي يستطيع أن يُنْجز هذه المهمة كاملة ، ويستكمل ما بداه الأوّلون حول الحديث النبوي الشريف ، ويقوم بعملية توثيق للتراث والتاريخ الإسلامي ؛ فلقد استغل أعداء الإسلام هذه الغفلة ، ومازالوا ، وزوروا في التاريخ الإسلامي ، فأضافوا وحذفوا وبالغوا في أحداثه ، وكذبوا على

التاريخ عمداً وقصداً نحو إضعاف الإسلام ، وتشكيك المسلمين في تاريخهم ، وفي رموزهم التاريخية ، واعتمدوا في ذلك على روايات غير صحيحة ، وقاموا بتزوير الروايات ، واستغلوا غفلة وضعف المسلمين وظروف العصر وامكانياته لتثبيت هذا الزيف .

والمؤسف أن بعض عقول المسلمين لإهمالها أو نسيانها الأساس العلمي المتين الذي اعتمده علماء المسلمين - أي التوثيق - ، أو عمداً تناولت هذه العقول كل ما قرأته على أنه صدق وعلى أنه ثابت،وتناقلته فساعدت - دون أن تدري - على تجهيل المجتمع،وعلى نشر الخرافة، بل وظهر بين المسلمين من بنى أحكاماً على مثل هذه الروايات ، وتناوله الوعاظ في المساجد ، وتغلغل في بعض البلدان إلى مناهج التربية والتعليم. وانتشر هذا التزييف في أجهزة الإعلام حتى غدا هذا الكذب وهذا التزوير عند غالبية المسلمين من حقائق التاريخ الإسلامي الثابتة ؛ فشوهوا تاريخ خلفاء الأمويين والعباسيين خاصة الخليفة المجاهد "هارون الرشيد" ، ورسمت لهم صوراً تتعارض مع الروايات الصحيحة السند ، التي أوردها المؤرخون الأوائل.

لذلك يجب أن يتوفر جماعة من المسلمين - أصحاب الاختصاص - على بناء قاعدة لصحيح التراث والتاريخ الإسلامي، والتي هي بالفعل موجودة،ولكن تحتاج إلى إزالة ما علق بها ، وإظهارها على حقيقتها بأسلوب علمي ؛ لأنه لاسبيل أمام المسلمين لنشر دعوة الإسلام في عصرنا الحديث - عصر العولمة - إلا بالتزام الطريق الصحيح ، وبالحفاظ على ثوابت الأمة الإسلامية .

وعند إعادة قراءة التاريخ الإسلامي ننبه إلى بعض النقاط لتوضع في الحسبان عند كافة المسلمين ، وهي ليست جديدة ، ومن الممكن أن تكون مكررة ، لكن لابد من ذكرها هنا ، وهي :

[١] أن نعي الظروف في عصر الدولة الأموية والدولة العباسية حول الأحداث

التاريخية ، وتعميق الخلافات بين الفرق الإسلامية ، ومحاولة الوقوف هنا على الأشخاص الذين قاموا بهذا الدور .

[٢] النظر فيمن تؤخذ عنهم الروايات ، ومدى قبولهم أو رفضهم ، والنظر في الروايات ذاتها وما تحتويه.

[٣] أن يتم ذلك من خلال مجموعات من العلماء ، وليس بصورة فردية ، وأن تشمل هذه المجموعات مختلف الطوائف الإسلامية ، وأن تضع منهجًا علميًا تتقيد به للقيام بهذا الواجب الإسلامي الكبير .

[٤] عند دراسة المذاهب ، وتاريخها ـ مبادئها وأفكارها ـ لابد من التوسع فيها ، والرجوع إلى مصادرها عند أصحابها ، وعدم إطلاق أحكام عامة عليها لمجرد سلوك شخصي لفرد أو مجموعة ، أي عدم الحكم على المذاهب من خلال تصرفات أو أعمال يقوم بها الأفراد ، فالبحث العلمي والعقل يرفض ذلك .

[٥] يجب ان لا يبتلعنا الماضي وصراعاته ، والموروث الباطل عند البعض .

[٦] تمحيص الخبر والنظر في صحة الرواية ، ويجب ان ننتبه لتلك الروايات التي تملأ كتب التاريخ الإسلامي ، والتي قد تتناقض في المؤلف الواحد ، وأيًا كان الدافع وراء ورودها عند أصحابها ، فالحقيقة أنهم صرحوا بأنهم أوردوها من باب جمع الروايات وتدوينها على سبيل الأمانة في النقل لا على أنها روايات صحيحة أو ثابتة ، ولأهمية ذلك ، وحتى لايشعر القارىء اننا تجاوزنا ، أو بالغنا في ذلك فسوف نستعرض آراء كُتّاب وعلماء المسلمين الرواد ، حول ما كتبوه هم أنفسهم ، وقد استند الغالبية إلى ما أوردوه من روايات بالشرح والتعليق على سبيل ثبوتها وصحتها ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر لنعلم أننا نحن المقصّرون ؛ لعدم قيامنا

بهذا الدور، بل على العكس نستمر فيما لاطائل منه ولا فائدة ، بل ويزيد فرقة الأمة الإسلامية ويعمق جراحها .

أولاً : آراء المؤرخين السابقين والمعاصرين في الروايات التاريخية :

(أ) رأي الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ فيما نقله من بعض الأخبار :

يقول الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في مقدمة تاريخه ، وهو أعلم بما كتب :

"وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أن في راسمه فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذكرتها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه ، إذا كان العلم بأخبار الماضيين ، وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضيين مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجه في الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أتى في بعض ناقليه إلينا ، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا " (١) .

هذا هو قول الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ ، ومن المؤسف ان البعض جعلوا من عدالة الإمام الطبري عذراً للاخذ بما في تاريخه بدون تدقيق ولا تمحيص ، وقد أوصى هو نفسه بالتدقيق والتثبت ، فهو يشير صراحةً إلى ذلك ، ويبرىء نفسه من أن يعلق به الأمر في مثل هذه الروايات .

---

(١) تاريخ الطبري . جـ١ ص ٧و٨ . تحقيق / محمد ابو الفضل إبراهيم . دار سويدان بيروت . ١٩٦٧م / ١٣٨٧ هـ .

وهو نفس ما نبّه إليه ابن الأثير في كتابه" [١] .

(ب) رأي ابن العربي ـ رحمه الله ـ :

قال أبو بكر بن العربي : "لا تلتفتوا إلا إلى ما صح من الأخبار ، واجتنبوا أهل التواريخ ، فإنهم ذكروا عن السلف أخباراً صحيحة يسيرة ؛ ليتوسلوا بذلك إلى رواية الأباطيل، فيقذفوا في قلوب الناس ما لايرضاه الله تعالى،وليحتقروا السلف، ويهوّنوا الدين وهو أعز من ذلك ، وهم أكرم منا ، فرضى الله عنهم جميعا "[٢] .

(جـ) منهجية البحث عند ابن خلدون ـ رحمه الله ـ :

قال ابن خلدون ـ رحمه الله ـ في مقدمته : " . . . فلا تنقل بما يلقى إليك من ذلك ، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه ، والله الهادي إلى الصواب " [٣] .

وقال : " فقد زلت أقدام كثير من الأثبات ، والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء ، وعلقت أفكارهم ، ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر ، والغفلة عن القياس ، وتلقوها هم أيضًا كذلك من غير بحث ولا روية ، واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ مختلطًا ، وناظره مرتبكًا .

وقال أيضا : " وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أوسمينًا " .

وفي موقع آخر يقول : " . . .إن المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل ، ووهموا فيها ، وابتدعوها

---

(١) الكامل في التاريخ . ابن الأثير جـ١ ص ٣ . دار صادر . بيروت . ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٢) العواصم من القواصم . أبو بكر بن العربي . ص ٢٥٦ . تحقيق محب الدين الخطيب . دار الجيل . بيروت ١٩٨٧م - ١٤٠٨هـ

(٣) مقدمة ابن خلدون . ابن خلدون . تحقيق خليل شحادة ، وسهيل زكار . دار الفكر العربي ط٢ . ١٩٨٨ - ١٤٠٨ هـ .

.... فالتحقيق قليل " .

وردد هو وغيره مثل هذه الأقوال كثيراً وإن لم يستطيعوا الالتزام بهذا النهج . ونحن نعذرهم في ذلك لظروف العصر وصعوباته ، وقد تحدّثوا بأمانة علمية شديدة ، وبيّنوا ذلك ، وبذلوا أقصى جهدهم .

(د) ومن آراء المعاصريين المتخصصين :

[١] **د/ سيدة إسماعيل كاشف . تقول :** " .. وطبيعي أن كثيراً من الكتب الحديثة سطحي ، أو يقصد به تأييد وجهة نظر خاصة من دون التقييد بأساليب البحث العلمي الصحيح ..." (١) .

[٢] **د/ محمد جميل غازي . يقول في مقدمة كتاب " العواصم من القواصم ما نصه "** : "ولقد كان المجال التاريخي ولايزال - وسيظل - معبراً للتصورات الباهتة ، والروايات الموضوعة التي تؤيد حزباً ضد حزب، وتُعين فريقًا على فريق ! إن الرواية التاريخية أصبحت على لسان المحاربين كالسيف الذي في أيديهم يقتلون بها.. وإذا كانت الحرب الباردة تعتمد على الإشاعة والأكاذيب فإن الإشاعة والأكاذيب تحولت إلى روايات تاريخية ، بل إلى روايات حديثية ... يضعها الوضّاعون ثم يرفعونها بلا حياء ولا خجل إلى الرسول - ﷺ - ، أو يقفونها بلا حياء ولا استخزاء عند صحابته - رضوان الله عليهم - ... ، وتناولنا ذلك كله ، لأن الحاقدين من غير المسلمين أو ممن يدعون العروبة والإسلام تواتروا على تزييف التاريخ الإسلامي على مر العصور وتشويهه ، وتشويه الإسلام والمسلمين (٢) .

وخرجوا من ذلك بمقولة يروّجون لها فيقولون : " إن الشريعة الإسلامية غير

---

(١) مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه . ص ١٠٤ . د/ سيدة اسماعيل كاشف .مكتبة الخانجي , القاهرة ط ٢ . ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦ م .

(٢) كتاب العواصم من القواصم . ص٩ . المقدمة د/ محمد جميل غازي . تحقيق محب الدين الخطيب .

صالحة للتطبيق ، وأنها لم تطبق بعد عصر الخلفاء الراشدين " .

ثانياً : دعوى أن الشريعة الإسلامية غير صالحة للتطبيق الآن :

وهذه دعوى باطلة ، وكذب متعمد على التاريخ ، والإجابة على هذا تتمثل في :

(أ) لابد أن نفهم أولاً معنى تطبيق الشريعة الإسلامية، لأنه إذا فهم أحد من بني آدم أن تطبيق الشريعة يعني أن المسلمين أصبحوا معصومين فهذا التصور خاطئ .

إن الشريعة الإسلامية تطبق بأن تكون بيوتنا مصبوغة بالصبغة الإسلامية في أعم الأحوال ، ومجتمعنا ومرافقنا العامة مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، فمن غشي المجتمع عرف أنه في بلد إسلامية ، وأن تكون قوانينه وأنظمته المعمول بها إسلامية .

هذا هو معنى تطبيق الشريعة الإسلامية،فإذا علمنا معنى تطبيق الشريعة الإسلامية علمنا أنه لاعلاقة بين هذا ،وبين ما قد يرتكبه الناس من أخطاء،وما ينزلقون إليه من معاصٍ وذنوب وكان الناس ولايزالون خطّائين ، وخير الخطائين التوابون .

وكان عصر الرسول ـ ﷺ ـ وهو أعظم العصور توجد فيه الأخطاء والذنوب ، فوُجد من سرق ، وأقام عليه الحدّ ، ووُجد من زنى ، وأقام عليه الحد ، وكان ذلك في عصر الرسول ـ ﷺ ـ والصحابة الكرام ؛ هل نقول إذًا : إن الشريعة استعصت على التطبيق ؟ من يقول ! .

والثابت نقلاً وعقلاً، أنه لابد من ارتكاب المسلمين لكل المعاصي والأخطاء ؛ ولذلك وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحدود ، ونص على العقوبات ، وإلا لماذا ذكرها القرآن وبينها الرسول ـ ﷺ ـ ؟ .

فإذا أخذنا معنى تطبيق الشريعة هذا ، واستقصينا عصور التاريخ الإسلامي ، فلسوف نجد أن الشريعة كانت مطبقة في عصر الخلفاء الراشدين ، وفي عصر الأمويين ، وفي معظم عصور العباسيين ، وفي معظم الثلث الأول من عصر الخلافة العثمانية . ولايستطيع أن ينكر ذلك أحد .

وإلا فهل كان هؤلاء يأخذون قوانينهم من الرومان أو من فرنسا ؟! .

فالمعروف أن القوانين التي كانت تحكم الدولة الإسلامية كانت شرعة الله ، ومع ذلك فإن الناس خطاؤون سواء الخلفاء أو من دونهم أو العامة،وهذا لايعني شيئًا ، ولا يكون هذا خدشًا لمعنى تطبيق الشريعة في المجتمعات الإسلامية ، ولا يقول عاقل بهذا ، بل ذلك ما جاء الإسلام لعلاجه في المجتمع الإسلامي ، وقد شدّد على إقامة الحدود وتطبيق العقوبات المنصوص عليها ، وهي ولاشك تطبق على المسلمين . فالخطأ شيء والتخطيط له شيء آخر .

(ب) أننا عندما نلملم أخطاء بعض الخلفاء ، أو الكثير منهم ،مثلاً في العصر الأموي ، أو العصر العباسي ، فإن هناك من يبالغ في الحديث عن هذه الأخطاء ، وهناك من يضخمها ، وهناك من يعطي أذنه للأعداء . وعندما نراجعها نجد من يقول أن هؤلاء الخلفاء قد خرجوا على الشريعة الإسلامية ، وينبغي أن نعلم أن كثيرًا جداً مما قيل عنهم لغو وكذب مثل ما حدث من لغو وكذب وتضخيم للاحداث حول الفتنة بين علي ومعاوية - ﷺ - ، ولكن المصيبة أن المسلمين تلقوها وردّدوها ،كذلك تاريخ بني أمية ، وكذب المستشرقين عليهم ، وتضخيمهم بعض الاحاديث ، واختلاقهم بعضها ، وكذلك الكذب على خلفاء العباسيين وفي مقدمتهم " هارون الرشيد " فما أكثر ماكذبوا عليه .

والذين فعلوا ذلك من امثال « جورجي زيدان » ، والكتاب الغربيين أمثال « فيليب حتي » ، و« فون كريمر » ، و« جوستاف لوبون » نظرًا لعدائهم المعروف

للإسلام ، ولكن بعض المسلمين ـ التقليديين عبيد الغرب ـ تلقفوا كتاباتهم على أنها حق،وساروا وراءهم حذو النعل، وجعلوا أنفسهم أبواقًا لهم، وأخذوا ينفخوا في هذه القربة ، ولما جاء البعض ليدرسوا هذا التاريخ ، وجدوا أن فيما تصوروا أن هذا هو الواقع في الشرق والإسلام فقالوا : إن الإسلام غير صالح للتطبيق .

لكن بوسع المسلمين الآن تحقيق تاريخهم في مصادره الأصلية ، وبوسعهم كشف كل الزيف بمقارنة بسيطة لبعض الروايات . وقد ترك لنا الأوائل كل مايعيننا على إنجاز هذه المهمة الإسلامية الجليلة .

وكيف ينسى هؤلاء أن معاوية بن أبي سفيان صحابي جليل ، وكان من المجتهدين ، ومن كتبة الوحي . وبمقارنة بسيطة بين ما كتبه أبو بكر بن العربي في " العواصم من القواصم " ، وبين ما كتبه جورجي زيدان ستجد كمّ التزوير عند جورجي زيدان ، وستجد التناقض البيِّن في الروايات ، وستجد الكذب المتعمّد على التاريخ .

وانظر ترجمة الإمام الطبري لهارون الرشيد في كتابه " تاريخ الملوك " عندما يذكر أن هارون الرشيد كان يصلي مائتي ركعة في اليوم مالم يكن مشغولا بالغزو ، أو الخروج للحج ، أو السفر ، وأنه كان لايقطع أمرًا إلا بعد أن يعود لعلماء المسلمين وأئمتهم ، وأن مستشاره كان القاضي الجليل ، والعالم الكبير ـ وتلميذ الإمام أبي حنيفة ـ القاضي " أبو يوسف " ، وقد كان مرجعه دائمًا ، ويلزم كل مايقول به، وأنه كان شديد التمسك بكتاب الله وسُنّة رسوله ـ ﷺ ـ ، ومع ذلك نقول : فالرجل ليس معصومًا فقد يخطيء ، وقد يغضب فيسفك دمًا بغير حق .

وأما « فيليب حتى ، وجورجي زيدان » ، وأمثالهم يقولون أن الرجل كانت حياته وقفًا على لذائذه ، وكان لا يجلس إلا بين الحسناوات والخمر حتى أصبح

اسمه مرتبطًا بهذه الصورة .

وقد كذب هؤلاء لأسباب عدائهم للإسلام ، وحقدهم على هارون الرشيد لأسباب تاريخية معروفة حول ما فعل هارون الرشيد بالروم ، وبـ"نكفور" ملكهم ، فهو الخليفة الكبير الذي أخضع الرومان ، وهو الذي فتح هرقلة ؛ ولذا فمن العجب أن يقفز المسلمون فوق الطبري ، ويصدقون أمثال هؤلاء وأذنابهم .

وكيف يخلي المسلمون لهؤلاء الساحة يعبثون ويفسدون عقول المسلمين ؟!

فالتاريخ الإسلامي لدي عامة المسلمين مشوه،وقد تلاعب به هؤلاء وأذنابهم، ويجب أن نتحرر من هذه الكتابات لتاريخنا ولديننا ، ولتنتبه الأمة الإسلامية لحقائق وأمجاد المسلمين في ظل تطبيق الشريعة الإسلامية . وأن هؤلاء الغربيين ، وأذنابهم قديمًا وحديثًا يعتقدون أن الشريعة الإسلامية من وضع النبي محمد ﷺ ـ وقد بنو من خلال هذا الاعتقاد عدم صلاحية استمرار الشريعة الإسلامية، وهذا الانعكاس لأنهم رأوا أن أية شريعة بشرية لا يمكن أن يكتب لها الاستمرار، وذلك بحكم تطور البيئة ، وتغيير العصور والظروف . والدليل على ذلك عدم استمرارية القوانين الوضعية ، وظهور ثغرات فيها بصورة مستمرة تحتاج إلى تعديلات ، فلا يمر وقت طويل إلا وتكون تغيرت تمامًا ؛ فلا يستطيع بشر أن يأتي بشريعة تمتد لكل البشر في كل مكان ، وفي كل زمان .

لذلك فالحديث لأمثال هؤلاء لابد وأن ينطلق من أن هذه الشريعة هي من صنع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وليست من صنع البشر ، وأن الإسلام ليس هو التاريخ الإسلامي .. إنه ليس ما اعتاده المسلمون أو فعلوه .. إنه ليس الرجال .. رغم أن الإسلام ساهم في صناعة كل هذه الأمور .

لذلك يجب أن نحدثهم عن وجود إله واحد ، وعن الإيمان به ، ويجب أن

نخاطب عقول هؤلاء لغرس الإيمان في عقولهم ، وإيقاظهم لينتقل الإيمان إلى قلوبهم ، وبعد ذلك سيسهل الأمر ، فإن آمن هؤلاء فهم سيصدقون أن الله رحيم بالناس ، وهو حكيم ولايشرع إلا ما فيه الخير والصلاح للبشر ، وأنه على كل شيء قدير ، وإن لم يؤمنوا فلا حاجة للإسلام فيهم ليؤمنوا به وبشريعته وهم وما اختاروا . فكل من يؤمن بالله خليق بأن يؤمن بالشريعة الإسلامية . فيجب أن ننتبه للنقاش هنا ، فلا يعقل أن أناقش من لايؤمن بالله سبحانه وتعالى ، أو في شك منه أن يؤمن بشريعة الله سبحانه وتعالى ، وأنها صالحة للبشرية جمعاء إلى قيام الساعة . ويجب أن نعي هذه الحقيقة جيداً .

فإذا دار النقاش حول الشريعة الإسلامية وصلاحيتها ، يجب أن نتأكد أولاً أن من نناقشهم مؤمنون بالله حقًا ، موقنون بوجود الله حقًا . فإذا عرفت ذلك أيقنت أن الخطب يسير ، وأن النجاح قريب معهم ، ولكن إذا رأيت أن هؤلاء يعوزهم الإيمان بالله فلا يمكن أن تناقشهم في هذا الصدد قط .

وهذا يتطلب من المسلمين أمور هامة في سبيلهم لدعوة الإسلام ، منها :

[١] التوقف عن أسلوب الصراع والتعصب المذهبي ، ويتجه العلماء إلى تحقيق وإثبات الروايات التاريخية الصحيحة ، والعمل على الخروج من هذه الدائرة التي ابتلعت الأمة الإسلامية طيلة هذه القرون .

وقد آن الآوان لكبار العلماء والمفكرين ، وقيادات الأمة الإسلامية أن يشرعوا في وضع منهج إسلامي للتغلب تدريجيًا على كل أخطاء الماضي التاريخية ، وتذويبها في المجتمعات الإسلامية لتكون قاعدة لالتقاء المسلمين علي ثوابت الدين الإسلامي الحنيف ، والتي هي منهج رباني خالص ـ بينه الرسول ـ ﷺ ـ الذي لاينطق عن الهوى ـ من أي فكري بشري ، مهما عظم هذا الفكر ، فالحجة في الإسلام للدليل ، وليست للأشخاص مهما كانوا ؛ فالعصر الذي نعيشه

ـ عصر العولمة الشاملة ـ لايسمح بمثل حالة التفرق والتشرذم التي عليها الأمة الإسلامية اليوم ، فإما أننا مسلمون حقًا نسعي لإعلاء ونشر كلمة الله ، وإما أننا أصحاب أهواء وميول وتنذر بالخطر الذي حذر منه الرسول ـ ﷺ ـ عندما قال : "**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ ، **قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت** " (١) .

قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٤٦] . وعلى الأمة الإسلامية ممثلة في علمائها أن تختار طريقها .

وهنا أوجه لبعض علمائنا الأجلاء ـ في هذا العصر ـ عتابًا أرجو أن يتقبلوه:

فهم عندما يتكلمون على مستوى مختلف فرقهم أو مذاهبهم ـ الإسلامية ـ نجدهم يقررون حقيقة ثابتة عن الرسول ـ ﷺ ـ أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ، ولكنهم عندما ينشغلون بالخلاف المذهبي هجومًا ، أو دفاعًا عن علماء مذهب آخر ـ حتى لو كانوا ممن أصبحوا في ذمة الله منذ أزمان ـ نجدهم ينسون هذه الحقيقة التي قرروها ـ أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ـ ونجدهم يكيلون الاتهامات والتجريح حول خطأ في مسألة أو أكثر ، أو في اجتهاد له أدلته لأحد العلماء ، وهو لايعدوا تلك القاعدة المقررة إسلاميًا ، ولكن يسوقهم التعصب المذهبي البغيض إلى مثل تلك الذلة التي تزيد العداء ، وترسخ الفرقة بين المسلمين ،

---

(١) رواه أبو داود في صحيحه . ٤٢٩٧ وصححه الألباني ـ رحمه الله ، والذهبي في ميزان الاعتدال مختصر ٢ / ٢٩٥ . دار الكتب العلمية . ط ، وفي السلسلة الصحيحة ٩٥٨ . الألباني . والحديث صحيح بمجموع طرقه .

وتجعل العداء مستحكمًا بينهم ، ولعلهم يقولون لأتباع مذهبهم عند مصادفة الرأي ، أو الاجتهاد الخاطيء لما يعتقدون لعلهم يقولون : " **إن من اجتهد وأخطأ فله أجر** " .

[٢] يجب أن يسعى المسلمون نحو استخدام أسلوب المجمعات العلمية والزيادة منها في شتى التخصصات التي تضم نخبًا من مختلف المذاهب الإسلامية وعلماء الإسلام ؛ لبحث أمور المسلمين ؛ للعمل على إخراج المسلمين مما هم فيه ؛ ليقوموا بدورهم الذي ابتعثهم الله من أجله ، وقد نادي بذلك العديد من العلماء والدعاة على مستوى العالم الإسلامي ، وبقي أن تدخل هذه الدعوة حيز التطبيق ، كما يجب عدم التخوف من فكرة التجديد في دين الأمة المبني على ثوابت الإسلام وأصوله العلمية الصحيحة ، كما يجب التماس العذر لمن يخطأ ؛ فالعبرة بالدليل الذي يسعى به العالم ، أو المفكر لإظهار رأيه أو اجتهاده .

فضرورة التجديد تنبع من إثبات حقيقة الإسلام وإعجازه ، وأنه الدين الخاتم ، فلا تشريع سماوي بعده ، ولابد من ملائمته لكل زمان وكل مكان . بل الأكثر من ذلك ، فمع تطور البشرية وتقاربها في ظل وحدة عالمية تنتج عولمة تتدرج لتشمل كل مناحي الحياة ، ولن يسيرها إلا الإسلام القادر وحده على استيعاب كل القوميات ، وكل العقائد مع تشابك المصالح وتعقدها . وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع خلقه هملا ، ولم يتركهم سدى ، بل أعطاهم المعيار الذي به يقوِّمُون كل شيء في الحياة ، ووضع ذلك في الإسلام .

[٣] الإعداد لعمل إسلامي ضخم يقوم به نخبة من العلماء ، والدعاة الإسلاميين ، يكون هدفه تعقب كل مايثار حول الإسلام والتاريخ الإسلامي ، والرد عليه بالأدلة العلمية والشرعية سواء كان هؤلاء من غير المسلمين ، أو ممن

يدّعون الإسلام ، أو من هؤلاء المسلمين الذين اختلطت عليهم الأمور ، وفقدوا القدرة على التمييز بين ما هو إسلامي ، وما هو غير إسلامي .

[٤] ومن الضرورات في عصرنا - عصر العلم والعولمة وعصر تقديس العقل والافتتان به - العمل على نشر العلم والثقافة الإسلامية بعد تنقيحها ؛ لنقلها لجميع طبقات المسلمين ، واستغلال منجزات ومخترعات العلم الحديث في هذا الجانب ؛ حيث أصبح وسيلة في يد أعداء الدين لتشكيك المسلمين ولإفسادهم، وإفساد الذوق العام الذي يميز الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية .

فيجب على الأمة الإسلامية في مختلف بلدانها ولغاتها أن تتجه لمقاومة الفكر المضاد للإسلام ، والذي تجاوز النقاش مع العلماء والمثقفين ، وتغلغل إلى عامة المسلمين مستغلاً وسائل العلم الحديث ، ومسخراً كل إمكانياته لتحقيق أهدافه ، ولكن الإسلام قادرٌ على إفراز علماء ودعاة ، وقادة يستطيعون القضاء على كل أعدائه . والتاريخ أكبرشاهد على هذه الحقيقة .

فيجب ألا نستبعد عامة المسلمين من هذه اليقظة الإسلامية ؛ فهم المقصودون في هذه الحلقة من الصراع ، وهم مناط الأمر كله . ويجب الانتباه لخصوصية هذه المرحلة ولابد من نشر كل أمر يتعلق بتجديد الدين مستغلين وسائل الإعلام وأجهزتها ، والتعليم بمدارسه وجامعاته ، ودور المساجد ، والأندية وكل أماكن تجمع المسلمين ؛ وذلك للأخذ بأيدي المسلمين ؛ ليكونوا المعين الحقيقي لحركة تجديد الأمة لدينها ؛ وليكونوا على مستوى هذا الصراع الفكري ، وهذا أول ماقام به الرسول - ﷺ - بتوجيه من الخالق - سبحانه وتعالى - قال تعالى :

- ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الشعراء : ١١٤] .
- ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [هود : ٢٩] .

* ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ②﴾ [عبس : ١ - ٢] .

والآية الأولى : توضح موقف سيدنا نوح - عليه السلام - عندما طلب منه سادة قومه طرد المؤمنين من حوله ، لكونهم ليسوا من علية القوم ؛ ولأنهم من عامة الناس . ونفس الموقف يتكرر مع نبي الله هود - عليه السلام - .في الآية الثانية : وللنظر إلى التوجيه الرباني المباشر. في الآية الثالثة : للرسول - ﷺ - لأن يوجه حديثه للعامة ، وللضعاف من المسلمين بنفس الدرجة لغيرهم، وأن يكون الحديث عامًا، والإسلام كفيل بعد ذلك بأن يهيمن على كل ماعداه .

[٥] الاهتمام بالتربية الإسلامية الصحيحة التي تغذي الروح والعقل معًا في المراحل المبكرة من عمر أطفالنا وشبابنا ، فهم عدة المستقبل ، وهم من سيشرق بهم الإسلام على البشرية جمعاء ؛ ليحقق العدل ، والمساواة ، والأمن ، والحرية ، والسلام ... ، ولكي نغير واقعاً ما لابد من معرفة مواطن الخلل ، ولابد أن يطال التغيير أصول الخلل ، وأسبابه الرئيسية ، وليس مجرد المضاعفات ، وللأسف فإن قصورنا المنهجي في كلياته وتطبيقاته أدي إلى عدم إدراكنا لأسباب التخلف ، وما ترتب عليه من أمراض، لعل أهمها نشأة "نفسية العبد" لدى الإنسان المسلم، فالقصور المنهجي هنا انتهى بالأمة وعلمائها إلى العجز المعرفي ؛ مما أدى إلى فقد الطاقة النفسية الإيجابية ، فلابد من الإصلاح المنهجي المبني على أساس التوحيد، ولابد من القضاء على أسباب العجز والفصام .

إن الأمة لن يصلح لها حال ما دام منهجها مختلاً ،وفهمها ووسائلها في التربية قاصرة مشوهة ، بحيث تكون إنسانًا فرديًا أنانيًا مُرهبًا .

وعلينا أن نأخذ العملية التربوية مأخذاً علميًا جديًا ، وأن ندرك العوامل النفسية في تنشئة الأطفال ، ويجب أن ندرس خطاب الرسول - ﷺ - للطفل ،

وما الصفات التي يريد أن ينشئه عليها ؟ .

وأن يتنبه المسلمون هنا أن المقصود من تطبيق الشريعة الإسلامية محل الأنظمة الوضعية ؛ لايعني ذلك أن المجتمع الإسلامي غداً أفراده مسلمين صالحين لأن ذلك وهم باطل ، وخلط خطير، إن دعوة من هذا القبيل إلى نظام إسلامي مبتور من جذوره لن تتغلب على القناعة المهيمنة على عقول أولئك الذين تشبعوا نفسيًا وفكريًا بالأطروحة القائلة بأن الأنظمة الحضارية الحديثة أكثر استجابة للحاجات والمصالح العصرية التي يتطلبها إنسان هذه الحضارة اليوم من أنظمة قديمة تساق إليهم من وراء حواجز القرون باسم الإسلام ؛ ذلك لأن الإسلام الجوهر هو الضامن والكفيل لانتشالنا من التخلف ، والارتفاع بنا إلى صعيد التقدم والازدهار كذلك أنظمته وأحكامه المفصولة عنه ، ولأن الوعد الذي قطعه الله عز وجل على نفسه في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ (سورة النور: ٥٥] .

إنما هو لمن هيمن الإسلام يقينا ووجدانا على كيانه ، وكذلك لمن هيمنت نظمه وشرائعه المنفصلة على شخصه ، أو في مجتمعه .

ومما لاريب فيه أن كل من خضع كيانه العقلي والوجداني للإسلام دينًا لابد أن يتقبل نظمه وأحكامه شرعة ومنهاجًا ، ولكن ليس كل من اختار نظم الإسلام وأحكامه شرعة ومنهاجًا يخضع لجذوره الإيمانية عبودية وتدينًا ، ويجب أن نتدبر ذلك الأمر وننطلق منه اليوم قبل الغد ؛ لذلك يجب التركيز على التربية الإسلامية العقلية والوجدانية ، كما يجب أن نحذر من القفز عليها ، وتجاوزها دون أن تترسخ في النفوس ، ولتكن أسوتنا في ذلك الرعيل الأول من المسلمين - جيل الصحابة رضي الله عنهم - ، وكيف تغلبوا بهذه التربية الإسلامية على كل

التحديات الداخلية القاهرة ، وعلى سائر التحديات الحضارية الوافدة [١] .

[٦] يجب أن نوضح ونفصل للبشرية التشريع الإسلامي كنظام وكسلوك للمجتمعات الإسلامية . فالإسلام يشرّع للبشرية كافة من خلال الدعوة الإسلامية ، وهو تشريع لا يرقى أي تشريع إليه .

فكل من يدخل الإسلام ويقبله دينًا له هو بالتالي يقبل بإرادته وباختياره التشريع الذي يطبق عليه ، والذي يحاسب به ، وتلك درجة من الحرية لا يمكن ممارستها بين البشر إلا في ظل الحكم الإسلامي ، على حين نجد أن كل ماعدا الإسلام في أرقى درجاته يخضع للأغلبية ، والتي تمثل جزء من المجتمع ويخضع لها ـ بنظمها وقوانينها ـ باقي المجتمع . وأما في الحكم الإسلامي فمن لم يدخل فيه ، ومن لم يقبله ، واختار غيره أيًا كان اختياره من اعتقاد فله كامل الحرية فيما يختار ، ولا يكرهه الإسلام على شيء ، فهو يسمح بالتعدد داخل المجتمع الواحد .

وتلك هي الخاصية المميزة لمجتمع العولمة الشاملة ـ التعدد داخل مجتمع عالمي واحد ـ ، والتي تعجز عنها كافة الأنظمة والتشريعات التي تعرفها البشرية عدا الإسلام كلمة الله سبحانه وتعالى الأخيرة إلى البشرية .

بل أكثر من ذلك يُؤمّن له الحق في ممارسة اعتقاده،وتطبيق الشريعة الخاصة به . وحدّد الإسلام ذلك بوضوح بما يحفظ للمجتمع أمنه ونظامه وحريته ، وجعل ذلك من الدين وشدّد عليه ، وجعل مخالفة المسلم لذلك مخالفة للعقيدة ، ويعاقب عليها ، والأمثلة كثيرة في كتب الفقه [٢] .

ويرتقي التشريع الإسلامي أعلى من ذلك لينظم العلاقات بين الجميع ـ مختلف

---

(١) إصلاح منهجية الفكر الإسلامي . ص ١٧ د/ عبد الحميد أبو سليمان .

(٢) مراجعة كتاب / من سيحكم العالم ؟ . فايز عزيز محمد . دار الوفاء . المنصورة . مصر .

العقائد ـ في إطار مجتمع واحد أو في إطار مجتمعات ودول بينها علاقات ومصالح ، حيث ينظم هذه العلاقات ، ويضع لها الضوابط الكفيلة لتحقيقها .

ومن عظمة الإسلام الحنيف أننا نجد الأمور الخلافية كانت بين المسلمين ، وفي الأحكام الخاصة بهم ، أما التشريع لغير المسلمين فلا يوجد فيه خلاف حتى في أشد مراحل الخلاف بين المسلمين ، وحتى في مراحل الصراع بين المذاهب ، والفرق الإسلامية ، والتاريخ شاهد إثبات على ذلك .

[٧] يجب أن يتسع إطار التجديد الإسلامي فيشمل تلك الأعمال والوظائف الإدارية التقليدية التي عفا عليها الزمن ، والتي تمارسها وزارات الأوقاف ، وما شابهها في كثير من البلدان العربية الإسلامية ، وأنها لن تقوي على أن تفعل شيئا لصد المكيدة الكبرى التي تدبر للإسلام .

إن الحقيقة الثابتة تاريخيًا أن الدين الإسلامي هى العقيدة التي تغلب بها المسلمون قديمًا على كل المواجهات ، وهو الذي ارتقى ونهض بهم ؛ لذلك يجب الانطلاق من هذا المعنى الواسع للإسلام على كافة المستويات ، فالوقت مهيأ أمام العلماء للنزول إلى الساحة بقوة وبصدق لتوجيه القيادات ، ولدفعها لأن تأخذ المبادرة في هذا الأمر ، وأن تعود إلى ممارسة شرف القيام بامر الدين ، وأن تحيي في سلوكها وظيفة الخلفاء السابقين في العمل على نصرة الدين ، ولاتجمد أمام المظاهر والوظائف الإدارية ، أو تركن إلى التبعية والاستسلام .

فلابد من ترسيخ جذور الاعتقاد والتربية الإسلامية والسلوك الإسلامي في جنبات هذه الأمة ثم العمل على جمع شمل الأمة الإسلامية ، وهذا هو السبيل إلى الخلاص ، وحل المشكلات ، وزوال الازدواجية القائمة بين قبول الإسلام انتماءً ، ورفضه تشريعاً وحكماً ، ودور قيادات الأمة هنا محوري وأساسي

ولايمكن تجاوزه .

[٨] ومن الأمور التي أصبحت ضرورة ملحة تطوير أجهزة الدعوة وأساليبها ، وقدرات رجالها وفقًا لما يتطلبه العصر ويوجبه الإسلام ، والحديث لقوم وصلوا إلى القمر غير الحديث إلى من يعيشون في الأدغال ، فيجب الارتقاء بمستوى الخطاب الديني عند العلماء ، والخطباء ، والوعاظ ، وضرورة أن يدرك هؤلاء ما وصل إليه التطور البشري العلمي والمعرفي ، وطبيعة الصراع الثقافي والحضاري .

وأن نعيد النظر في العلوم الإنسانية والاجتماعية من خلال منظور إسلامي صحيح مستمد من فلسفة الإسلام الكلية ، ونظرته إلى الدين والحياة والإنسان والمجتمع والتاريخ ، مستفيداً من كل المدارس القائمة ، أو من نتاج بحوثها وتحليلاتها ، دون أن يكون أسيرًا لفلسفة واحدة منها ، أو لفلسفاتها جميعاً .

وهذا يعني أن نرجع إلى الجذور والأصول في تراثنا الحافل ، نأخذ منه ونضيف إليه ونعدل فيه ، ونشيء أجيالاً مستقلة تفرز فكرًا إسلاميًا يجمع الأصالة الإسلامية ، والحداثة المعاصرة .





الفصل الثالث

مناقشة المفاهيم الخاطئة في تجديد دين الأمة





الفصل الثالث
مناقشة المفاهيم الخاطئة في تجديد دين الأمة

نحن مع حتمية العودة إلى الينابيع الأساسية لأخذ الإسلام من مصادره الصافية ، لأن الفكر الإسلامي علقت به عبر التاريخ مفاهيم غربية وغريبة عنه ، فقد أضحى مشجباً تعلق عليه الكثير من الأشياء التي هي بعيدة عن الإسلام ، بل ومعادية له .

لقد وضعت المؤسسة الدينية في الغرب - أي المسيحية - لظروف خاصة بها الدين في مقابل العقل ، وبالتالي استطاعت أن تحكم على مستوى السلطة ، وعلى المستوى السياسي، وعلى المستوى الفكري ، وأن تجعل أحكامها ملزمة مما أوقع المؤسسة الدينية بما نسميه التسلط الكامل ، بحيث بدا العقل ضحية لهذا التسلط الكامل لرجال الدين "الكنيسة " التي وضعت الدين في مواجهة العقل .

لكن هذا الموضوع لايمكن نقله إلى الفكر الإسلامي أي لانستطيع أن نضع الدين والعقل على طرفي نقيض في الإسلام ، فمصادرة العقل باسم الدين أمراً لايستوعبه الفكر الإسلامي بصورة أساسية ، ولايمكن أن يحدث في الإسلام ، وحتى في أوروبا نفسها كانت الكنيسة هي التي في مواجهة العقل ، وليس الدين المسيحي ؛ لأن الدين في ماهيته وفي تكوينه الأساسي لايصادر العقل ، إنما المؤسسات التي تحكم باسم الدين هي التي مارست هذا النوع من اغتيال العقل ومصادرته في أوروبا ؛ لذلك كانت ثورة العقل ، موجهة في حقيقتها ، وبالمعنى الدقيق في وجه الكنيسة ورجالها .

أما الدين الإسلامي فيرى العقل هو المصدر الأساسي لإنتاج العلوم ، والتي يشكل الاهتمام بها ، والاهتمام بإنتاجها عنصراً هامًا في حركة النهوض الإسلامي .

والأمر الثابت : أن النص الديني ـ سواء كان نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً شريفاً صحيحاً ـ لايتعارض مع منطق العقل .

ولكننا نجد بعض المناهج المعاصرة التي تحاول هدم الدين الإسلامي دون أن تظهر أو تعلن رفضها أو عدواتها للدين لعامة المسلمين ، وذلك عندما يحاول أصحابها أو دعاتها الظهور في ثوب المجدّد للدين،متناسية أن هذا الدين نسيج رباني يهيمن على ما سواه من الأديان والفكر البشري ، وهو كامل ومحفوظ من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والملاحظ في هؤلاء أنهم يتعمدون تزييف الحقائق ، وتزوير التاريخ ، ومهاجمة ثوابت الإسلام بدعوى الإصلاح أو التجديد ، أو حرية الفكر التي يكفلها الإسلام لكافة المسلمين ، ونجدهم لايملكون الشجاعة للإفصاح عن حقيقة فكرهم ، وأهدافهم متخذين من ادعائهم الإسلام وأنهم مسلمون ستاراً ووسيلة لمهاجمة الإسلام ، ومحاولة العبث بعقول وقلوب المسلمين مستغلين كافة الظروف والوسائل التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم .

ونحن هنا لانقصد مهاجمة أشخاص باعينهم ،ولكن المقصود كشف الزيف والتزوير والتدليس لمثل هذا الفكر، ليتضح الأمر أمام عامة المسلمين ومثقفيهم ، فلا ينخدعون بأمثال هؤلاء ، والذين يلجأون لتبني بعض القضايا والهموم العربية والإسلامية، أو يتحدثون باسم الإسلام، أو حتي يتصدون لأعداء الإسلام مما يثير تعاطف المسلمين معهم كنوع من التدليس على المسلمين ، لإخفاء أهدافهم الحقيقية ، ولكن فكرهم لهدم الإسلام ، ولتسفيه العقيدة والشريعة الإسلامية ، ولتشكيك المسلمين في دينهم يظل هدفهم الذي يسعون لتحقيقه ، والذي يبرر

لهم كافة الوسائل للوصول إليه .

ونتناول هنا : بعض تلك المفاهيم الخاطئة حول مفهوم تجديد دين الأمة الإسلامية ، والتي - في الحقيقة - تهاجم وتعادي الدين الإسلامي ؛ وذلك حتى نجلي ما بها من ضعف وانحراف عن الإسلام .

ويحتاج هذا العمل إلى جهود جماعية ضخمة ومستمرة من كافة علماء الإسلام للتصدي له ، بل نستطيع القول أن جهود العلماء هنا لاتكفي ، والأمر يحتاج تدخل مباشر من الدول والحكومات الإسلامية على امتداد العالم الإسلامي لأسباب عديدة من أهمها :

ضخامة العمل وتنوعه وأنه يشمل كافة المسلمين ، وتعدد اللغات التي يتكلمها المسلمون ، وحاجته إلى الإعلام عنه ، والحاجة إلى تنقل العلماء والمفكرين الإسلاميين بين مختلف البلاد الإسلامية ، والدعم المادي الكبير الذي يعجز عنه الأفراد ، وكذلك الحاجة إلى الدعم السياسي . . . .



المبحث الأول مذهب النقد التاريخي للقرآن الكريم

نجد الآن بعض المناهج المعاصرة التي افتتنت بكل ماهو غربي (١) ، ركزت على القول أن النص القرآني هو نص إلهي ، ولكن في علاقة البشر مع هذا النص تصبح القراءة نسبية ، وليست قراءة كلية ، أي قراءة مطلقة ، ونحن البشر لسنا مهيئين لاستيعاب الحقيقة الكاملة المطلقة . وانزلق البعض في هذا الخطأ الأحمق

ونتناول بصورة مباشرة من هؤلاء على سبيل المثال :

د/ نصر حامد أبو زيد (٢) ، وذلك عندما مضى بعيداً ـ بعد مقدمات طويلة لمحاولة إخفاء حقيقة فكره ـ لاخضاع النص القرآني لهذه القراءات التاريخية المزعومة .

فالهدف حسب قوله : " أن يعاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية الاجتماعية الأصلية، وإحلال المفاهيم المعاصرة الأكثر إنسانية وتقدماً !

---

(١) ويري المستشرق " جب " ان الباب قد انفتح لإعادة تفسير القرآن في ضوء المعرفة الحديثة ، ولابد انها تتطور إلى " النقد التاريخي " وهو الحل الوحيد – كما يرى – أمام الإسلام في المستقبل . الاقتباس من كتاب ابن الخطا " ص ١٨٣ . صدر ١٩٧٨ م .

(٢) نادى نصر حامد أبوزيد بإخضاع القرآن لنظرية غربية مادية تنكر الخالق ، وتؤول الوحي الإلهي على انه إفراز بيئوي اسطوري ، ناتج عن المعرفي التاريخي الغارق في الأسطورة . اسم هذه النظرية " الهرمنيوطيقا " ، و " مصطلح الهرمنيوطيقا " مصطلح قديم بدأ استعماله في دوائر الدراسات اللاهوتية عام ١٦٥٤ م ؛ ليشير إلى مجموعة القواعد والمعايير التي يجب ان يتبعها المفسر لفهم النص الديني – الكتاب المقدس – .

■ يقول الدكتور عبدالوهاب المسيري عن الهرمنيوطيقا : " هي مشتقة من الكلمة اليونانية "Hermeneuin" بمعني يُفسِّر او يوضِّح – من علم اللاهوت – حيث كان يقصد بها ذلك الجزء من الدراسات اللاهوتية المعني بتاويل النصوص الدينية بطريقة خيالية ، ورمزية تبعد عن المعنى الحرفي المباشر ، وتحاول اكتشاف المعاني الحقيقية والخفية وراء النصوص المقدسة " – كما تزعم – .

■ تم الاستفادة هنا من مقال . سليمان الخراشي " نصر حامد أبو زيد والهرمنيوطيقا " موقع . صيد الفوائد . شبكة الإنترنت .

مع ثبات مضمون النص ! ، إن الألفاظ القديمة لا تزال حية مستعملة لكنها اكتسبت دلالات مجازية "(١) .

فعندما يتناول - على سبيل المثال - آية الإرث التي تحدد نصيب الذكر ، ونصيب الأنثى انطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] .

فيقول : إن هذا نص تاريخي بمعنى أنه يتوجه للمجتمع الزراعي مثلا ، وبالتالي فإن المتغيرات البنيوية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية تفرض قراءة هذا النص على أنه نص تاريخي ، وليس نصاً مطلقًا فالمجتمع الزراعي أوالإقطاعي كان يتولى فيه الرجل مسؤلية الإنتاج والعمل ، وأما الآن في هذا العصر كما في أوروبا أو في عصر قادم فالمرأة تتولى عملية الانتاج جنبًا إلى جنب مع الرجل .

فما المبرر لأن يكون نصيب الرجل من الإرث ضعف نصيب المرأة من الإرث ؟!

فيجب تأويل النص - الآية - تأويلاً من خارج طبيعة النص ، فنؤلها تأويلاً تاريخيًا ، بالقول بأن هذه الآية خاطبت تاريخًا معينًا من مسار التطور الاجتماعي للبشر .

وبالجملة : فإن د/ نصر حامد أبو زيد يرى تطبيق التاريخية والتاريخانية على معان ومضامين وأحكام القرآن من العقائد إلى الأحكام ، وحتى القيم والأخلاق والقصص، الأمر الذي يعني نسخ كل مضامين القرآن الكريم وتجاوزها (٢) .

ويقول عن القرآن الكريم : إنه نص بشري ومنتج ثقافي ... لا قداسة له ،

---

(١) نقد الخطاب الديني . نصر حامد أبو زيد ص١٣٣ . سينا للنشر . القاهرة ط ٢ . ١٩٩٤ م . والطبعة الأولى عام ١٩٩٢ م .

(٢) نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد . ص " ٨٢ و٨٣ و٨٤ و٩٤ " .

وأنه بينه وبين الشعر الجاهلي ـ خاصة شعراء الصعاليك ـ تشابهًا كبيرًا ... إلى غير ذلك [١].

هذا هو ملخص تلك النظرة في النقد التاريخي للقرآن الكريم بوضوح ، ونحن هنا نتناول الرد على هذا الاتجاه الفكري في نقاط يسيرة ـ إن جاز أن نسميه فكرًا ـ .

❁ وهل هو يريد بناء المجتمع الحديث ، أو التجديد المزعوم في الإسلام ، أم ماذا يريد ؟ .

❁ وهل هو فكر يحترم العقل الإنساني ؟! .

أولاً : يجب أن يعي أصحاب العقول والمفكرين من أمثال هؤلاء أن الدين الإسلامي جاء لينشيء مجتمعاً إسلاميًا كما أراده الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والإسلام هو الذي يغير المجتمع ، ويصبغه بالصبغة الإسلامية ، لا العكس ، وأن الإسلام جاء ليضع أسساً للأسرة والمجتمع الإسلامي في كل جوانبه ، وليس الموضوع موضوعًا اقتصاديًا صرفًا، ولكن يتعلق بالتصور الإسلامي في هذا الجانب ـ تكوين الأسرة ـ ، وفي غيره من الجوانب كما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما فيه تحقيق السعادة للبشرية .

ثانيًا : بنظرة عقلية بسيطة ، نجد هذا التفسير التاريخي يخرج هذا النص وغيره عن مؤداه بحجة أنه عالج مشكلة تاريخية في زمن محدود ، وذلك يعني تفريغ الدين من محتواه ـ أي معناه ـ حسب اختلاف العصور ، وحسب اختلاف المجتمعات ، وأن العقل البشري يقوم بتغيير مدلول النص القرآني كما يشاء كل حسب الاحتياجات والأوضاع الاجتماعية،ولا علاقة للغة بفهم النص ، أي أنه

---

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن . د/ نصر حامد أبو زيد . ص ٣٨ و٥٦ . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي .ط ٥ ، ٢٠٠٠م . تاليف الكتاب ١٩٩٠ م .

لادين من عند الله ، والعقل البشري يكفي ليصوغ للبشر تشريعاتهم ، لأن كل النصوص القرآنية ابتعدت بالطبع عن زمانها ومكانها ومجتمعاتها ، أي لاحاجة لها . حقيقة هذا ما يقود إليه هذا الفكر الحديث ، أو هذا التجديد أو أي مسمى آخر .

فإذا مشينا مع هذا الفكر في موضوع الإرث على سبيل المثال فمن الممكن أن يختلف التأويل القرآني في نفس العصر ، فمثلاً آية الميراث تكون في مجتمع زراعي مثلا في صعيد أو ريف مصر أو أي بلد إسلامي تفسر حسب المدلول اللغوي للذكر مثل حظ الأُنثيين ، أما في مجتمع صناعي في مصر ، أو أوروبا ، أو أي بلد إسلامي فإنها تختلف ، وتصبح المرأة مساوية للرجل في الإرث - حسب التفسير التاريخي ، بل إن افترضنا - مستقبلاً - وجود مجتمع تمارس فيه النساء العمل ، ويعتمد على المرأة أكثر ، فربما نعدل القسمة ، وتصبح للمرأة مثل الذكرين .

وكيف بالله عليك إذا كان هناك اختلاط بين مجتمع إسلامي زراعي ، وآخر صناعي فاي المداليل التاريخية سوف تطبق ؟ ، أم ان لهذه الحالة مداليل جديدة ...... ؟!.

ومؤكد أننا - حسب التفسير التاريخي للقرآن الكريم - سننتقل إلى حقوق المرأة المترتبة على الطلاق، وأنها قد لاتستحقها أصلاً،فهي مساوية هنا للرجل في الجانب الاجتماعي ، بل قد تنتقل هذه الحقوق وتصبح من حق الرجل مع تغيير الأوضاع الاجتماعية ، وسنضطر إلى توقيف العمل بهذه النصوص أيضًا ، ويمتد الأمر للزواج وحقوق المرأة والمهر .. وغير ذلك ، فنوقفها ونغيرها حسب العصر ومتطلباته .... وهكذا سلسلة لا تتوقف من خلال هذا النقد التاريخي .

ونتسائل هنا ، هل يوجد مثل هذا الفكر أو الخلط في أي قانون وضعي ؟!

❁ وهل تصاغ القوانين بهذه السذاجة ؟ .

❁ وهل تفسر أية قوانين أو تشريعات بعيداً عن لغتها ؟! .

لاشك أن هذه ترهات وسفسطة لا أكثر .

❁ وكم أود أن نرسله إلى الهند ليطبق التاريخانية في المجتمع الهندي ، أو على الأقل يعطينا المداليل التاريخانية حول هذا المجتمع .

فعلى الرغم من أنه مجتمع زراعي ، فإن المرأة في معظم الهند هي التي تدفع للرجل مهراً كبيراً كي يتزوجها .

❁ وهل يحق لنا نسأله هنا ما المدلول التاريخي هنا لهذا المجتمع ؟ .

❁ أم أن هذا النقد التاريخي خاص بالإسلام فقط ؟ .

وهكذا ، تتضح لنا ثمرة هذا الفكر ، والتعمد لإحداث الخلل ، والفوضى في المجتمعات .

❁ فهل هذا فكرٌ المقصود به بناء نظام اجتماعي يجاري العصر ، وينظم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمعات ؟!

❁ وهل هذا فكرٌ يضمن للمجتمع حقوقه ، ويحقق لأفراده الانسجام والتعايش ؟! .

❁ أم أنه نوع من الهوس العقلي الذي يئس من عدائه للدين الإسلامي .

والأصح لهؤلاء ـ المفكرين ـ أنهم إذا اعتقدوا عدم صلاحية الدين الإسلامي ، وشريعته في عصرنا هذا أن يعلنوا ذلك بصراحة كما أعلنها غيرهم .

ولقد كانت هناك على مر العصور محاولات كثيرة لمثل هذه الأفكار ، وقد اخذت أشكالاً وسمات متعددة،وكان أول عملها التغيير في التشريع الإسلامي ،

وبسط الحجج حول ذلك ، ثم محاولة إيجاد تشريعات أخرى ، وليست البهائية ببعيد ! والإسلام نفسه أشار لهؤلاء الرافضين للإسلام ، والمعاندين والمعادين له .

أما محاولة هدم الدين الإسلامي من خلال الدين نفسه ، وبأيدي علماء المسلمين بهذه العبقرية الجديدة فلا يملك أي مسلم ركب الله فيه آلة العقل إلا أن يسخر من هؤلاء ـ المفكرين ـ ، بل وينفجر ضاحكًا من ضيق أفقهم ، وإعجابهم بجهلهم .

فلا علاقة هنا من قريب أومن بعيد لمثل هذه الهرطقة ، وذلك الهوس بالدين الإسلامي أو تجديده ، والذي هو من كمال الدين نفسه .

ثالثًا : إن المقصود هنا هدم الدين من أساسه ليس أكثر ، وقد وضح عداء هؤلاء للإسلام ونوجه هنا سؤالاً لهؤلاء وأسيادهم في الغرب :

● هل يُكره الإسلام أحداً على اعتناقه ، أو الدخول فيه ؟

من الثابت شرعاً أن من يدخل الإسلام مكرهًا لا يكون مسلماً ، ومس يدعي الإسلام ظاهراً ويرفضه من داخله فهو منافق غير مسلم عند الله ـ عز وجل ـ .

فإذا كان الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ، وهذه مسألة محسومة ، وإذا كان المسلمون يرتضون بكامل إرادتهم عقائد الإسلام وشريعته وأحكامه ، فلماذا لا تطبق عليهم ، وقد ارتضوها ؟!.

ومثل ذلك يوجد في جميع المجتمعات الإنسانية المتحضرة ،حيث تطبق عليهم القوانين التي ارتضوها ، مع الفارق أنهم قد لايرتضوها جميعًا ، وقد قبلها فقط مجموعة منهم ، والتي تسمى في أرقى المجتمعات ـ الأغلبية ـ على الرغم من أن عددها محدود ، ولاتعبر عن الجميع ، وهي فقط أغلبية ، وبالرغم من ذلك تفرض رؤيتها على الجميع ، ويخضع الجميع لتطبيق رؤية هذه الأغلبية ،

أليس هذا هو الواقع ؟ !.

أما المسلمون فهم ليسوا مجرد أغلبية ، بل هم نسبة ١٠٠٪حسب طريقتهم هم في التشريع ، ولكن نجد من يخرج لينتقص من المسلمين هذا الحق ، ومن يعيب عليهم ذلك ، ما هذا التناقض الفاضح لهؤلاء المتحضرين المثقفين والمفكرين !.

وندعوا هؤلاء المفكرين - أصحاب العقول والحضارة - أن يعقدوا مقارنة بين النموذج الإسلامي ، وما عداه ، بل وينتخبوا مايشاءون من نظمهم وقوانينهم ، والتي يستحيل معها إقامة عدالة ، أو مساواة أوتحقيق الأمن أو....... مابين فئات مختلفة من البشر في عالمنا المعاصر .

رابعًا : وأكثر من ذلك ليصمت هؤلاء - مدّعو الإسلام ، ومدّعو العلم والمعرفة والثقافة - أصحاب التاريخانية ، أو النقد التاريخي في تأويل نصوص القرآن الكريم كلام ربنا - عز وجل - الصحيح النسب .

نقول لهم إننا لو حاولنا تناول كتاب - على سبيل المثال - لأرسطو ، أو ابن خلدون ، أو شعر جاهلي ، ثم حاولنا تغيير - خارج إطار اللغة التي يستخدمها - ما أورده أيًا منهم ليعبر عن فكره أو مجتمعه لما قبل عاقل منا هذا ، لأن كل منهم يعبر عن فكر ما ، وتصور ما ، وظروف مجتمعه، إلى غير ذلك ، وبالطبع فإن الأمانة العلمية ترفض ذلك ، والعقل يرفض ذلك أيضًا ، ولكننا نجد هؤلاء عندما يتناولون كلام الله - عز وجل - الصحيح النسب العربي البيان يحاولون معه ماهو مرفوض مع نصوص البشر .

- فلماذا نُسقط هذه الأمانة عند تناولنا النصوص القرآنية ؟! .
- ولماذا نحاول التحريف في المفهوم ؟! والتحريف في الاستنباط الشرعي ؟! .
- ولماذا نحاول الابتعاد عن اللغة العربية،وإبعاد العقل عن مدلولات اللغة العربية؟!.

❁ وإذا كان هذا المنهج ـ النقد التاريخي ـ بهذا الإسلوب غير صالح للاستخدا مع الانتاج والإبداع البشري ، إذا فلأي إنتاج أو إبداع هذا المنهج ـ النقد التاريخي ـ إذاً ؟!.

❁ أليس ذلك مدعاة للتعجب ؟! أليس ذلك مدعاة للسخرية ؟ !.

❁ لاشك أن هؤلاء وأذنابهم عندما أيقنوا عجزهم التام عن التغيير ، أو التحريف في النصوص القرآنية ذاتها، تخيلوا أنهم يستطيعون التغيير في مدلولاتها ، وهم بذلك أثبتوا غباءً أكثر ، فالقرآن الكريم كلام الله ـ عز وجل ـ بلغة العرب ، ومدلولاته لاتكن إلا بها وبفهمها أما هذه الاستنباطات ، أو المناهج التفسيرية التي تشذ في استنطاق القرآن الكريم بما ليس فيه ، وبما لاتقبله اللغة العربية ، فهذه محاولة يائسة من هؤلاء لتحريف كتاب الله ، وإبعاده عن محتواه ، وهذا محال ، واستخدام السفسطة والتدليس في الجدال ، وبناء أحكام على مقدمات لاتدل على الحكم دليل البعد عن التفكير العقلي والعلمي المقبول ، الذي لا يقيم حقيقة ، ولا يحقق واقعًا .

أليس من البديهيات العقلية أن فهم أي نص في أي لغة ينبع من خلال اللغة ذاتها ؟ !، وكيف يكون ثبات مضمون النص مع تغيير مضمون النص ؟!.

وإن في الدعوة التي يدعوا بها هؤلاء إلى الاستفادة من التجربة البشرية في قراءة النص ، والتي لاتخلوا من محاولة تحميل النص عند تفسيره ما تتوصل إليه التجربة البشرية ، بُعداً عن المنهج العقلي .

ونقول لهم : إن النص القرآني نص إلهي ، ولم يكن نتاجًا بشريًا حتى يحمل تبعات التجربة البشرية المحدودة ، بل يتصف بعنصر الكمال ، لأنه ورد عن الله ، أي الكمال المطلق ، ولم تعبث به أيد بشرية .

أما إذا كان الأمر نابع من انكار وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فهذا أمر آخر ،

ويحتاج إلى نقاش آخر .

ولأنه ثابت عقلياً وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ودون أية أدلة نقلية أو كونية فنجد هؤلاء وأمثالهم يتخبطون في يئس لمحاولة النيل من الإسلام ، ويجب أن نلاحظ أن تراجع التيار الإلحادي على مستوى العالم يرجع لهذه الحقيقة الثابتة .

ولنستعرض بعض ما قاله د/نصر حامد أبو زيد حتى نتبين حقيقة دعوته، وما يضمره في نفسه ضد الإسلام ، وحتى تتضح حقيقة الرجل :

[أ] طعونه في القرآن المجيد والسنّة المطهرة ، ومن ذلك [١] :

● ادعاؤه أن القرآن المجيد ليس وحياً من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وإنكاره سابقة وجوده في اللوح المحفوظ ، وزعمه أنه منتج ثقافي بيئي .

أي إنه من إفرازات الثقافة العربية لبيئة الرسول ـ ﷺ ـ ، ومن إنتاج المجتمع الذي نشأ فيه الرسول ـ ﷺ ـ ، فهو من آثار البيئة والمجتمع ، ومن ثم يؤكد في أكثر من موضع أن القرآن

صورة صادقة للمجتمع في عهد النبي ـ ﷺ ـ ، وإنما كان ذلك لأنه مستمد من البيئة ، وصادر عنها ، فلا وحي ولا قداسة .

يقول د/ نصر حامد أبو زيد :

" إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج إلى إثبات ، لكن القول بأن النص منتج ثقافي يمثل بالنسبة إلى القرآن مرحلة التكوين والاكتمال ، وهي مرحلة صار النص بعدها منتجًا للثقافة .. إن الفارق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها ، وبين إمداده للثقافة وتغييره لها " [٢] .

---

(١) تم الاستفادة هنا من موقع الإسلام اليوم . مقالات . شبكة الإنترنت .

(٢) مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن ص٢٣ – ٢٤ .

ويقول : " إن النص في حقيقته وجوهره منتج ثقافي ، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع ، والثقافة خلال فترة تزيد على عشرين عامًا ، وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقًا عليها ، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص " (١) .

وهذا من المؤلف يبين بشكل قاطع أنه يرى أن القرآن ليس وحيًا من عند الله سبحانه ، وإنما هو منتج ثقافي ، ومأخوذ عن ثقافة البيئة العربية التي كان فيها محمد ـ ﷺ ـ ، وأنه مرتبط بتلك الفترة فقط ، وقد قطع بذلك بوضوح شديد **في قوله :** " إن الفارق بين المرحلتين هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها " .

وفي قوله : " فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ، ويعكر من ثم إمكانية الفهم العلمي للنص " (٢) .

فهو إذن ليس مستمداً من عند الله تعالى، ولا وحيًا نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ ، وإنما وبوضوح شديد مستمد من الثقافة ومعبر عنها .

ولأن القرآن مستمد من الثقافة البيئية للنبي ـ ﷺ ـ ، فكذلك السُّنَّة من باب أولى ، وهو يحدد لنا المدة الزمنية التي استغرقها النص القرآني ، وكذلك نصوص السُّنَّة بانها المدة التي عاشها رسول الله ـ ﷺ ـ نبيًا ، وإذا كان قد استعمل في النص السابق لفظتي "**منتج ، ومستمد**" ، فإنه أضاف إليهما لفظة أكثر وضوحًا هي "**تشكلت**" ، إذ يقرر أن النص الديني ـ يقصد القرآن والسُّنَّة ـ قد تشكلا خلال فترة تزيد على العشرين عامًا ، ثم يزيد الأمر وضوحًا حين يصف القرآن

---

(١) مفهوم النص – دراسة في علوم القرآن . ص٢٧ الدار البيضاء :المركز الثقافي العربي .ط ٥ ٢٠٠٠م .تاليف الكتاب ١٩٩٠ م .

(٢) الإمام الشافعي وتاسيس الايديولوجية الوسطية . د/ نصر حامد ابو زيد ص ١١٠

والسُّنَّة بأنهما "نصوص لغوية" ، لا وحى، ولا تقديس، ولا إعجاز، ولا تشريع ، مجرد نصوص لغوية كما نصف قطعة شعرية أو نثرية .

وهكذا يقول د/ نصر حامد أبو زيد عن القرآن والسُّنَّة معًا :

هي نصوص لغوية تشكلت خلال فترة زادت على العشرين عامًا،وحين نقول: تشكلت ، فإننا نقصد وجودها المتعين في الواقع ، والثقافة بقطع النظر عن أي وجود سابق لها في العلم الإلهي أو اللوح المحفوظ.

دعوته إلى الخروج على نصوص القرآن والتحرر منها ، ورفض الخضوع لها ، والنتيجة التي يريد أن يصل إليها من خلال طعونه الكثيرة في القرآن والسُّنَّة ، أو في النص المقدس عندنا ، المجرد من كل قداسة عنده .

وما هذه النتيجة ؟ ، ويقول :

" وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر ، لا من سلطة النصوص وحدها ، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا ، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورًا قبل أن يجرفنا الطوفان ! " .

هذه هي النتيجة التي يريد المؤلف أن يصل إليها ، وهذا هدفه - إذن - التحرر ، والتحرر مم ؟ وممن ؟ .

إنه يريد التحرر من النص ، ومن القرآن والسُّنَّة ، كأنهما قيدان يحولان دون تقدمه .

(ب) ادعاؤه عدم صلاحية الشرع الشريف - قرآنا وسُنَّة :

لوضع الحلول لكل القضايا والمشكلات التي تعرض للمسلمين حالاً ومستقبلاً، ودعوته إلى طرح الكتاب والسُّنَّة وتجاهلهما حين البحث عن حلول لمشاكلنا ، حيث يقول :

" ويبدأ الشافعي بتقرير مبدأ على درجة عالية من الخطورة فحواه : أن الكتاب ـ القرآن الكريم ـ يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات والنوازل التي وقعت أو يمكن أن تقع في الحاضر ، أو في المستقبل على السواء .. وتكمن خطورة هذا المبدأ في أنه المبدأ الذي ساد تاريخنا العقلي والفكري ، وما زال يتردد حتى الآن في الخطاب الديني لكل اتجاهاته وتياراته وفصائله ، وهو المبدأ الذي حول العقل إلى عقل تابع يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالة منه " (١) .

فهو يحمل القرآن والمؤمنين به مسئولية تأخر المسلمين وتخلفهم عن غيرهم .. كان الاستمساك بالإسلام والتزام القرآن والسُّنَّة مسئولان عن تخلفنا ، وليس العكس .

وهو يجحد قول الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . [النحل : ٨٩] .

وقوله سبحانه وتعالى :﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

(جـ) إنكار د/ نصر حامد أبو زيد عالمية الإسلام ، وعموميته ، وشموله لكل الخلق من إنس وجن ، وادعاؤه الباطل بأن الإسلام دين للعرب وحدهم ، فيقول نصر حامد أبو زيد في كتابه مفهوم النص :

" فالإسلام دين عربي ، بل هو أهم مكونات العروبة وأساسها الثقافي والحضاري " .

ويقول المؤلف في نفس الكتاب السابق :

" إن الفصل بين العروبة والإسلام ينطلق من مجموعة من الافتراضات الذهنية :

---

(١) الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية . ص ٢١ ، منتدى الكاشف .أسماء ومقالات . شبكة الإنترنت . ٢٠٠٥ م .

أولها عالمية الإسلام وشموليته،ودعوى أنه دين للناس وليس للعرب وحدهم ، ورغم أن لهذه الدعوى مفهوم مستقر في الثقافة ، فإن إنكار الأصل العربي للإسلام وتجاوزه للوثوب " إلى العالمية والشمولية مفهوم حديث نسبيًا " .

هذا كله رغم أن عالمية الإسلام وشموله لكل الأجناس بل للخلق جميعًا من إنس وجن ، من الحقائق الإيمانية المعلومة من الدين بالضرورة،وإنكارها مؤد بالضرورة إلى تكذيب للقرآن والسُّنَّة الصحيحة،تكذيب للقرآن القطعي من مثل:

❁ قوله تعالى :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ . [الفرقان : ١] .

❁ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

❁ وقوله جل وعلا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

هل بعد هذا شك من أن كل هذه هي محاولات عدائية لهدم الإسلام ؟ ! .

لذا يجب أن ننتبه : إلى ما يدّعيه هو وأمثاله من تجديد للإسلام ، وغير ذلك ... وهم أحرار في اعتقادهم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، هذه هي عقيدتنا الإسلامية لا إكراه في الدين ، ولكن الذي نرفضه هذا الكذب ، وهذا التزوير ، وهذا التدليس .

ومن الأمور المستغربة أيضًا : من أن أمثال هؤلاء أنهم ينقدون المجتمع بعيوب في المجتمع ذاته ثم يحملونها على الإسلام ، فنجدهم يتساءلون : لماذا لاتكون المرأة عاملة ؟ ، ولماذا لا تكون وزيرة ؟ ، ولماذا لا تكون مقاتلة ؟ .

إلى غير ذلك من التساؤلات... .

وهم بهذا الجهل ، أو الخلط يعملون على إحداث الخلل في المجتمع ، وكأن الإسلام يحرم هذا أو ذاك ! ، ونجدهم لايستطيعون إخفاء نواياهم الحقيقية ، وحقدهم تجاه الإسلام فيزداد هوسهم الفكري ، ونجد من يخرج منهم باجتهاد

جديد ليس على الإسلام فقط ، بل في تاريخ جميع الأديان ، فنجد من يرفع عقيرته متسائلا : لماذا لا تأخذ المرأة دور الإمامة العظمى في الإسلام ؟ لماذا لاتؤم المصلين في المسجد ؟!.

وبداية نقول لهم : مثل هذا الجهل لايرد عليه بل يسخر منه، فلقد اجتمعت الأمة كلها وتواترت على عدم جواز ذلك ، وهذه أمور محسومة في الإسلام ، الدين الذي ارتضاه المسلمون طواعية . وأود أن أوجه لنفوسهم المريضة كلمة .

بسبب أنني أعددت كتابًا ـ بعنوان . «**من سيحكم العالم ؟** » ـ عن أي الأنظمة البشرية ، أو الأديان السماوية مؤهل لحكم العالم ، وتحقيق أمنه ، وسلامته في عصر العولمة الشاملة ، فكانت فرصة للإطلاع على الأديان الكبرى في العالم، سواء كانت معتقدات وثنية "الكنفوشسية، والهندوسية، والبوذية " ، أو دين سماوي " اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام " ولم أجد مطلقًا امرأة تتولى دور الإمامة في الدين ، أو في العبادة حتى في المعتقدات الوثنية ، ولم أعلم مطلقًا بإمراة كانت حاخامًا ، أو تولت البابوية في المسيحية ، ولم يناد أحد من رجال ، أو نساء هذه الأديان بهذا النداء الجديد ـ على حد علمي ـ رغم ما تعرضت له هذه الديانات من هجوم ، وإضعاف لها أكثر مما تعانيه .

والحقيقة إن دراسة الفكر التجديدي لأمثال هؤلاء تقودونا للسخرية من مثل هذا الفكر ! .

ونقول لهؤلاء كلمة علهم يعقلون :

إن الدين الإسلامي " نسيج رباني " مختلف عن كلام البشر وفكرهم وتصوراتهم ، ولايمكن أن يختلط به فكر بشري قط ، وثبت ذلك بمرور الزمان فرؤية البشر قاصرة ومحدودة زمانًا ومكانًا ؛ لذلك عندما اختلطت رؤية البشر بالدين المسيحي وباليهودية حدث ما حدث لهما من رفض ، وتشكيك وتعارض

مع العلم والتطور االبشري ، وثار العقل عليهما ، ونشأت الاتجاهات الفكرية المضادة لهما في الشرق والغرب ، أما مع الإسلام ، فالقرآن كلام الله الخالق العالم الذي لايحده الزمان ولا المكان ، وقد تعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه وبيانه، وأنه صالح للبشر إلى قيام الساعة ، وبإظهاره على الدين كله ، ولو كره الكافرون ، ولو كره المشركون .

وقد أعلن الإسلام منذ اللحظة الأولى هذه الحقيقة ، وفرض على نفسه هذا التحدي ، فهل يستطيع أحد من البشر أن يفرض على فكره هذا التحدي الذي يمتد عبر الزمن ؟!.

وهل وجد مثل ذلك التحدي من بشر خلال تاريخ البشرية ؟!

أليس هذا دليل إعجاز وصدق للنبي ـ ﷺ ـ ، ودعوة إلى التعقل والتدبر لكافة البشر ؟ .



المبحث الثاني العصرانية والحداثـــة

هناك خلط متعمد وواضح بين " العصرانية ، والحداثة " من جهة ، وبين التجديد في الدين الاسلامي من جهة أخرى عند الغربيين ، وعند بعض المسلمين على حد سواء .

فالغرب ينظر إلى حركة التجديد الإسلامي المعاصرة ، والتى بدأت في الظهور منذ ما يقرب من أكثر من مائة عام ، ويصر على أن يربطها بالعصرانية والحداثة الغربية ، ويعمم الحكم عليها وعلى تبعيتها للغرب ، وكان التجديد في الإسلام أمر طاريء عليه ، وهذا جهل قبيح ، فالمسلمون منذ القرن الأول ،وهم منشغلون بمكر التجديد في الإسلام . وهناك مؤلفات تخصص المجددين ، وتذكر سبب اختيارهم ، وهو أمر من اكتمال الدين الإسلامي ، وشتان مابين التجديد في الإسلام ، وبين العصرانية أو الحداثة الغربية ،أو مايسميه بعض العرب ـ التجديد ـ فالمارق في الهدف ، والفارق في الأسلوب ، فتجديد الدين الإسلامي نابع من فكرة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وثبوتية الوحي بالتواتر الغير معهود ، والذي لانظير له في تاريخ البشرية ، وأن الإسلام محفوظ بحفظ الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث قال ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .
[الحجر : ٩] .

وأن هذا كله من معاني الإعجاز الكثيرة في القرآن الكريم ، وأن الخلافات الحادثة بين المسلمين لاتمس الدين ، وأن فكرة الثبات التام على فكر العلماء حول الإسلام عبر الزمان لم يقل به أحد من العلماء المسلمين ، ولكن الثبات في الدين نفسه ثوابت الإسلام " قرآن وسُنَّة " وأن الإسلام يحمل بداخله كل عناصر

خلوده فهو وحي الخالق العالم بما خلق .

أما العصرانية والحداثة ـ أي التجديد ـ في الفكر الديني الغربي " التوراة والإنجيل " فهو ناشيء عن :

[١] أن هذه الشرائع كانت لأقوام مخصوصين ، ولفترة زمنية تنتهي بظهور شريعة أخرى ، وتنتهي جميعًا ببعثة محمد ـ ﷺ ـ ونشر تعاليم الإسلام .

[٢] ضياع الكثير من أصول هذه الشرائع .

[٣] ما دخل هذه الشرائع من تحريف من البشر بالزيادة وبالحذف ، وفرض سيطرة بشرية على الدين ، مما أدى إلى تناقضها مع الحقائق العلمية ، وعجزها وقصورها عن الاستمرار مع التطور البشري . فكانت النتيجة عزلها جانباً ، وتحديد مجالها ، وفقدانها للمصداقية عند الغالبية ، وبمعنى أشمل خروجها من الساحة ، وتركها المجال للفكر البشري ، بل واتهامها في أحيان كثيرة من طلابها وكهانها بعدم مصداقيتها ، ولما كانت العقيدة فطرة ، ولايستطيع الغالبية التخلص منها قام البعض بالتأويل والتفسير لتلك العقائد ، ثم حفظها داخل أماكنها ، وكل من يريد أو يشعر بالرغبة في التطهير الروحاني ؛ فليذهب ليأخذ ما يكفيه من جرعات .

فالعصرانية والحداثة في الغرب ليست كما يزعمون أنها " تجديد " ، أو إعادة النظر في الفكر الديني القديم ، أوتأويل تعاليم الدين لتتلائم مع معارف العصر وظروفه السائدة ، أوهي عملية مستمرة ، ومرتبطة بتطور العصر ، بل العصرانية أو الحداثة ـ التجديد الغربي ـ هي إخراج الدين من الممارسة الحياتية للإنسان ، والاتجاه للعلمانية بمعناها الشامل ـ اللادين ـ خطوة خطوة ؛ للأسباب التي أوضحناها سابقًا .

وهو المستحيل في الإسلام ، حيث أن الإسلام لايمكن انتزاعه من الحياة اليومية

للمسلم ، وإن أخطأ البعض أو تطفل من يدعي الإسلام ؛ ليعزل الإسلام عن الحياة اليومية للمسلم ، فسرعان ما ينكشف خطاه وينفضح أمره ، حيث أن الإسلام محكم ، وهو كالصفحة البيضاء تكشف عن أي تغيير يصيبها ، والإسلام نفسه يتحدث بهذه الثقة قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد تصدى العلماء المسلمون لهذه الثقافات الحداثية اللادينية منذ بواكير تسللها إلى بلادنا أوخر القرن الثامن عشر الميلادي في ركاب الغزوة الأوروبية للوطن العربي ، والعالم الإسلامي ، وكشفوا حقيقتها .

لقد رأى الجبرتي " ١١٦٧-١٢٣٧ هـ / ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م " هذه الحداثة الوافدة مع الحملة الفرنسية على مصر " ١٩٧٨ : ١٨٠١ م " ، رأها دهرية لا علاقة لها بالدين عندما أعلن بونابرت وحملته الفرنسية اعتناق الإسلام (١) .

وجاء عبد الله النديم " ١٢٦١ - ١٣١٣ هـ / ١٨٤٥- ١٨٩٦ م " وكشف الطابع الإلحادي للثقافات الحداثية التي جاءت بواسطة جماعات المثقفين ، التي احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية ، وفي مقدمتهم مجلة " المقتطف " ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م " .

ويبدو من الضروري للقاريء المسلم أن نتناول باختصار غير مخل نشأة هذه العصرانية في الغرب .

أولاً : تاريخ العصرانية في الغرب :

نتيجة طبيعية لما دخل في المسيحية واليهودية من التحريف بالحذف ، أو بإضافة فكر وتصور بشري إلى أصول العقيدة الدينية ، فإن كل من اليهودية ،

---

(١) مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط١ ٢٠٠٢ م .

والمسيحية واجهتا أزمة ، ومازقاً شديداً ؛ لتعارضها مع التطور البشري والعلمي في الحضارة الحديثة ، وحاولت كل من المسيحية واليهودية إيجاد حلول ملائمة لتلك المعضلة الكبيرة ، فنشأت حركة للتجديد - التأويل - عرفت في الفكر الديني الغربي باسم "العصرانية" **Moodernsism** ، وكلمة عصرانية هنا لا تعني مجرد الانتماء إلى هذا العصر ، ولكنها مصطلح خاص .

فما هي العصرانية في الدين ؟

إن العصرانية في الدين هي أي وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافي المعاصر يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة ، فالعصرانية هي الحركة التي سعت إلى تطويع مبادىء الدين لقيم الحضارة الغربية ومفاهيمها ، واخضاعه لتصوراتها ووجهة نظرها في شؤون الحياة [١] .

ونعرض هنا لبعض الفرق الدينية التي تعد البداية الحقيقية لظهور العصرانية ، وما نتج عنها من فكر الحداثة عند بعض المسلمين المستغربين ، والتي تشير إلى الأصول الحقيقية لمذهب النقد التاريخي للقرآن الكريم .

وهذه الفرق الدينية في الغرب هي :

[أ] الفرق المتحررة في اليهودية :

وقد نشأت من التأثيرات المباشرة للحركة العلمية التي بعثها الزعيم اليهودي "مندلسون" ١٧٢٩ - ١٧٨٦ م . وقد أصبحت هذه الحركة فكرًا على يد جيل من المفكرين في القرن التاسع عشر نذكر منهم على سبيل المثال :

❁ **اشتاينهاريم :** ١٨٠٦-١٨٧٤ م . وكان لايرى الأخذ بنصوص التوراة حرفياً بل يرى الاختيار من بين هذه النصوص ، ويرى أن هذا الاختيار متروك لكل

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ٩٥ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ ١٩٨٤ م .

عصر حسب ظروفه لا وفق ما تمليه دواعي الايمان، وبهذا المبدأ وضع "اشتاينهاريم" الأساس النظري لإجراء أي تعديل ، أو مراجعة لتعاليم اليهود .

❁ **هولدهايم : ١٨٠٦ - ١٨٦٠م** . وقد أشاع مبدأ أن الشريعة الإلهية رغم أنها موحى بها من عند الله إلا أنها موقوتة بظروفها التي جاءت فيها ، وليست دائمة ، ومن كلماته المشهورة في أحد كتبه " إن التلمود يتحدث متأثرًا بفكر زمانه ، وهو محق في ذلك الزمان ، وأنا أتحدث منطلقًا من فكر متقدم في عصري هذا ، وبالنسبة لهذا العصر فأنا محق " ، وبهذا المبدأ أزاح " هولدهايم " التلمود من مكانته التشريعية المعهودة عند اليهود .

❁ **إبراهام جايجر: ١٨١٠ - ١٨٧٤م** . يرى أن مهمة الحركة التجديدية الحرة هي نفض الغبار عن جوهرها ، وإزالة الغبار والزوائد التي علقت بها عبر القرون ، وجوهر اليهودية في نظره ليست أشكالها ، أو مؤسساتها ولا حتى شريعتها ، ولكن جوهرها هو أخلاقها .

وهو يرى أن الوحي في اليهودية ينتقل عن طريق البشر ، وهم معرضين للخطأ ، فإن نقلهم للوحي لايمكن أن يكون غير متأثر بشريعتهم ، ولهذا فإن كل التعاليم التي يزعم أنها مقدسة ، وأنها وحي إلهي خالص فهي في الحقيقة مزيج بين الإلهي والبشري .

وبما أن المعرفة البشرية تكتسب معرفة جديدة في كل جيل ، وهذه المعرفة نفسها هي كشف من الله ، ونوع من الوحي يسميه " الوحي المتطور " ، فإن التوراة والتلمود رغم أنهما وحي إلا أنهما لم يستوعبا نهائيًا ، وبصورة كاملة الحكمة الإلهية ، ومن هنا ينبغي إعادة النظر في التوراة والتلمود في ضوء كل معرفة جديدة [١] .

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ٩٩ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ . ١٩٨٤ م .

[ب] التجديد العصراني للنصرانية :

ونشأت هذه الحركة من داخل الكنيسة، وازدهرت في نفس الوقت التي كانت تزدهر فيه تلك الحركة لتجديد اليهودية ، وسعت هذه الحركة لإحداث تغييرات جذرية في النصرانية ، ويقول هؤلاء الذين دعو أنفسهم بالمتدينين الأحرار ، ومنهم " جون راندل " في كتابه" تكوين العقل الحديث " ، دعو إلى تعديل العقائد في ضوء المعرفة السائدة المرة تلو المرة مادامت معرفة الإنسان تنمو ، وحياته الاجتماعية تتغير .

ونشأت هذه الحركة في القرنين التاسع عشر والعشرين لثلاث عوامل رئيسة هي :

[١] التقدم العلمي الهائل الذي أوجد تصوراً للكون يخالف التصور القديم الذي كان في صلب العقيدة المسيحية ، وأقره رجال الكنيسة .

[٢] استخدام منهج النقد التاريخي في نقد التوراة والإنجيل ، واخضاعهما لمقاييس البحث التي خضعت لها المخطوطات التاريخية القديمة ، وكشف مابها من تناقضات في روايتها ، والاختلافات في أسلوبها ، مما أثار الأسئلة حول قدسيتها ، وهل هي موحاة من الله أم من وضع البشر؟ ومن مؤلفوها ؟ ومتى ألفت ؟ .

[٣] اتساع الدراسات الدينية المقارنة ، ودراسة الأديان القديمة كاليونانية ، والمصرية ، وأديان الهند ، وأديان المجتمعات البدائية ، ونشأت نظريات وفلسفات عن أصل وتطور الدين ، ودعمت هذه الدراسات نقد" الكتاب المقدس " ، وزادت وجهة النظر الداعية إلى إجراء تعديلات على تعاليم الدين .

[ج] إعادة تفسير النصرانية :

إن الدعوة الرئيسية لحركة العصرانية هي المناداة بضرورة إعادة تفسير مفاهيم النصرانية التقليدية في ضوء ما يسمى معارف العصر ، والمفتاح الأساسي الذي استعمل لإعادة تفسير تعاليم النصرانية هو " مذهب الحلول " وهو أن الله ، والكون والإنسان شيء واحد .

فكل الكلمات الحكيمة ، والرسالات الرفيعة من أي رجل جاءت فهي وحي " فالفلاسفة والشعراء والأنبياء والقديسون " جميع هؤلاء كانوا مدارج للوحي الإلهي ،وذلك أن الإنسان نفسه ذو طبيعة إلهية .

ومن أهداف العصرانية رفض سلطة الكنيسة ، ولكن ليس إلغاؤها بل تحويلها إلى مؤسسة اجتماعية [(١)] .

ورغم ذلك فإن العصرانية الغربية لم تخل من بعض المحاسن ، ومنها :

ثانياً: محاسن العصرانية في الغرب :

ومن محاسن العصرانية في الغرب ، والتي أيدت ماجاء به الرسول ﷺ ، وماذكره القرآن الكريم عن اليهودية والمسيحية ، ولو أن هؤلاء عندهم إنصاف لأقروا جميعًا بالإسلام دينًا للعالمين .

[١] نقدها للتوراة والتلمود والإنجيل ، واعترافها بوجود تناقضات ، واختلافات وأخطاء ، ووصولها إلى أن هذه الكتب ليست بحال من الأحوال هي الكتب الموحاة ، وأن هناك خلط فيها بين الكلمات الموحاة ، وأقوال الأنبياء وسيرتهم ، وأقوال الأحبار والقساوسة ، ومزج كل ذلك بالآداب ، والمعارف

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ١١١ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ . ١٩٨٤ م . وقد أطلق البابا " بيوس العاشر " في ١٩٠٧ في منشورين لعن اسم العصرانية . ودمغها بالكفر والإلحاد .

السائدة في العصور التي كتبت فيها [١] .

[٢] هدمها لبعض العقائد الباطلة مثل هدم عقيدة ألوهية عيسى - عليه السلام - ، وإيمانهم بأنه بشر كسائر البشر ، ومن ذلك الكتاب الذي صدر عام ١٩٧٧ م، في لندن بعنوان " **أسطورة تجسد الإله في المسيح** " ، تحرير البروفسير " جون هك " أستاذ علم اللاهوت بجامعة برمنجهام ، واشترك معه سبعة أساتذة لاهوت بريطانيون .

[٣] أنها كانت حربًا لحركة الصهيونية ، إذ أنها لم تكن تعترف بعقيدة العودة إلى فلسطين ، وإقامة دولة يهودية فيها ، وكان هذا من محاسن حركة " اليهودية المتحررة " في مبادىء بتسبرج عام ١٨٩٥ م .

وعلينا أن نفرق بين الإسلام ، وبين اليهودية والمسيحية ، فإذا كانت الأسباب التي أدت إلى ظهور العصرانية مع اليهودية والمسيحية لها أسباب ودوافع حقيقية ويعلمها جميع المسلمين ، وقد أكد عليها الإسلام .

أما الدين الإسلامي فقد أعلن متحدياً منذ اللحظة الأولى عن عالميته وشموليته ، واتسع مكانيًا ليشمل جميع البشر في كافة زوايا الأرض مجتمعين أو متفرقين ، واتسع زمانيا ليظل صالحًا إلى قيام الساعة ، واتسع عمقًا ليشمل كل شؤون البشر . وهو يناسب من هذا المنطلق جميع العصور ، ويجاري الإنسان في جميع مراحل تطوره إلى يوم القيامة .

وقد تعهد الله - سبحانه وتعالى - بحفظه وبيانه ، وقد انتقل بالتواتر الذي يستحيل معه التقول بشبهة التغير أو الحذف ، أوالإضافة حتى لحرف واحد فيه ، فقد صحت نسبته إلى الله - سبحانه وتعالى - .

والإسلام على مرِّ العصور لم يصطدم بالعقل أو العلم، بل يكشف بإعجازه

---

(١) تكوين العقل الحديث .جـ ٢ ص ٢٤٠ .جورج راندل .

الرباني عن جوانب من الإعجاز العلمي لتكون الدليل على صدقه ، وأنه من الخالق العالم سبحانه وتعالى .

ولكن ذل بعض المثقفين المسلمين والعرب ، ورأوا أن ينقلوا تلك الرؤية الغربية للمسيحية واليهودية إلى الدين الإسلامي ؛ وذلك نتيجة وقوعهم الكامل تحت تأثير الثقافة الغربية ، ومعطيات العلم الحديث ، وتدهور العرب والمسلمين ، وجهل غالبيتهم بالدين الإسلامي ، وإلى تقصير علماء الإسلام في مراحل سابقة عن مجاراة العصر لأسباب كثيرة ليس هذا مجالها .

والحقيقة الجلية أن الإسلام كدين لم يكن في مأزق، أو أزمة مع تطور البشرية ، ولكن المسلمون ومجتمعاتهم هي التي كانت تعاني نتيجة بُعدها عن القيام بأمر الدين ، وتجديد دينها .

وسنعرض هنا بعض النماذج لمثقفين عرب زلت أقدامهم ، ووقعوا فريسة تبعيتهم للثقافة الغربية :

ثالثاً : نماذج حداثية للقطيعة مع الموروث :

ظهر مصطلح " الحديث " كمفهوم مقابل " القديم " لأول مرة في أوروبا في القرن الرابع عشر الميلادي كما يقول " جان ماري دوميناك " ، وتبلور هذا المفهوم بفعل حركة الإصلاح الديني التي أطلقها " مارتن لوثر كنج " في بداية القرن السادس عشر ، وانبثاق عصر التنوير ، واشتعال الثورة الفرنسية ، فاتسع مفهوم الحداثة ـ حسب دوميناك ـ ، واستند إلى مبدأ " لاشيء مقدَّس بالنسبة لها ، لاشيء محرَّم " إنها لاتعترف بأية محرمات " ، وراحت الحداثة تكتسح الموروثات في جميع حقول العلم ، والفلسفة ، والأدب ، والشعر ، والفنون ، والطقوس ، والتقاليد ، ونقلت إلى الناس عوالم جديدة ، وقد ظهر مصطلح الحداثة للمرة

الأولى في مجال الفن ، والشعر لدى الشاعرين الفرنسيين "دونرفال، وشارل بودلير" عام ١٨٥٠م ، وهي تعني انفتاح الشاعر والفنان على عصره ، وتجاوزه للأطر التقليدية التي تعيق تجليات الإبداع .

ومنذ بداية القرن العشرين استبدت بالفكر العربي نزعة للإقلاع عن الماضي إلى خارج أوروبا ، وتبنى الحداثة الأوروبية ، ومحاولة استنساخ نموذج للحداثة الأوروبية ، والعمل على تجسيدها في بلداننا (١) .

لقد بدأت منذ فترة تسري في واقعنا الفكري المعاصر حداثة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام وأصوله وقواعده ، وانطلق نفر من المتغربين الذين قلدوا سلفهم الغربي متحدين ثوابت الأمة ، وخارجين على نسقها الإيماني بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام .

وسنقدم بعض النصوص التي كتبت، وتشير إلى ذلك الموقف الفكري المتغرب:

[أ] **هاشم صالح :** " فمنذ الآن فصاعداً راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته ، وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحي ، ويتلاشى أمام الطبيعة ، ولقد أصبح الإنسان وحده مقياس للإنسان .... وأصبح حكم الله خاضعًا لحكم الوعي البشري الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية ، ويمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر ، ولكن لم يعد يوهم أحداً ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني " (٢) .

وعلى درب القطيعة المعرفية الكبرى مع ثوابت الإسلام ، وأصوله سار نفر من الحداثيين العرب حذو النعل بالنعل فنجد :

---

(١) إشكالية الإسلام والحداثة . ص ٥ . عادل عبد المهدي . دار الهادي . بيروت ط ١ . ٢٠٠١ م .

(٢) مجلة الوحدة ـ الرباط ـ المغرب ـ عدد فبراير و مارس ١٩٩٢م ص ٢١ . هاشم صالح عن إميل بولا . الاقتباس عن كتاب مستقبلنا بين التجديد والحداثة . ص ٢٧ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

● د/ حسن حنفي يذهب على درب تأويل الإسلام تأويلاً يفرغ الدين من الدين . إنه ـ أي الله ـ هو الأرض .. والخبز .. والحرية .. والعدل .. والعتاد .. والعدة .. وصرخات الألم .. وصيحات الفرح فهو تعبير أدبي أكثر منه وصفًا للواقع .... إلخ .

ويرفض مصطلحات مثل " الله ، والرسول، والدين ، والجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب " ، ويستمر في مبالغته في رفضه التوحيد ، والعقائد ، والوحي الإلهي إلى أن يقول .. والإلحاد هو التجديد " .... (١) .

● والشاعر الكبير كما يسمونه " أحمد عبد المعطي حجازي " . يدعو إلى احتقار اللغة العربية ، ويدعو للاحتفال بالاسكندر الأكبر ٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م ، وتزيين ميادينا بتماثيله ، والمشاركة بالاحتلال بدلا من الاستقلال ، والدعوة إلى حب الصهاينة ، الذين يقتلون الأطفال والشيوخ .

وعندما سئل عن رأيه فيما ـ لو اصطدم المبدع ـ الشاعر ـ بما هو مقدَّس ؟ .

يقول : إن المقدَّس ليس كائنًا خارج الشعر ، أو خارج الإنسان .. المقدَّس هو مقدَّس لأننا نقدّسه (٢) .



(١) التراث والتجديد . د/ حسن حنفي . طبعة القاهرة ١٩٨٠ م .مكتبة الجديد .

(٢) الشاعر احمد عبد المعطي حجازي من حوار معه " اخبار اليوم " عدد ٣٧ سبتمبر ٢٠٠٠م . اتحاد كتاب مصر ـ القاهرة .

المبحث الرابع
التنويـــر الأوروبـــي

إن فلسفة التنوير الغربي قد أقامت " قطيعة معرفية كبرى " مع الموروث المسيحي .. تلك حقيقة يعرفها الجميع وقد صرح بها الشجعان ، غير المرائين من مثقفينا المعاصرين ، والذين يدعون إلى التنوير الغربي في المجتمعات العربية والإسلامية .

ولقد جاء التنوير الأوروبي ، فلسفة رافضة لتجاوز الكنيسة حدودها التي رسمها لها الإنجيل - خلاص الروح ، ومملكة السماء - ، والنصرانية لا تمتلك شريعة للعمران البشري ، وجاء مدافعًا عن النزعة الدنيوية العلمانية للفلسفة الأوروبية ، وداعيًا إلى " العقل " الذي استبعدته الكنيسة ، " والرأي " الذي قهره اللاهوت ، ومناديًا بالتحرر من سلطة التقاليد الكنسية التي كانت سوقًا تجاريًا راجت فيه مفاسد القساوسة والبابوات ! ففى مواجهة " الفعل " الذي تمثل في تحالف الكنيسة ، والاقطاع كان " رد الفعل " التنويري الذي أعلن رفض السلطان الديني على الدنيا ، ولتدخل السماء في العمران الأرضي رافعًا شعاره القائل : " لا سلطان على العقل إلا العقل " .

وقد نشأ التنوير الأوروبي كرد فعل على الكهانة البابوية التي تجاوزت حدود الإنجيل والنصرانية ، وأدخلت أوروبا في عصور من الظلمة والرجعية (١) .

ولم يكن لأوروبا أن تنهض بغير الثورة على الكنيسة ، ومن ثم زاد شعار " العلمانية " Secularism" .

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ٢١، ٢٢ . د / محمد عمارة . دار الشروق . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

باعتبارها العاصم الوحيد دون عودة سلطان الكنيسة في القرون الوسطى ، وباعتباره باب الولوج إلى الحرية والتخلص من قيود الفكر ، والحجر على العقول [١] .

ولايوجد هنا تشابه مطلقًا بين النسق الفكري الإسلامي وتطوره الحضاري ، وبين هذا الذي حدث في أوروبا "الفعل الكنسي" منه ، "ورد الفعل التنويري" ، حتى يعتقد البعض بضرورة استدعاء هذا التنوير الأوروبي ليكون تنويرًا لنا نحن المسلمين! .

ولابد من فشل هذا الادعاء مهما استند إلى الكثير من دعاته ، أو مساندة قوى قادرة أو تظن أنها قادرة على ذلك . ولكن هذا لا يمنع من استخدامنا مصطلح "التنوير" ، ولكن يجب أن يتضح لدى الجميع مضامينه ومفاهيمه ، ويكون تنويرًا عربيًا إسلاميًا ، يتفق والمرجعية الحضارية الإسلامية ، والمتميزة عن المرجعية الغربية ، وذلك أن الإسلام جعل " النظر ، والتفكر ، والتدبر ، والتعقل ، والاعتبار " أولى الفرائض الإسلامية على الإنسان ، وهذا موقف مغاير تمامًا ، بل ومناقضًا لموقف النصرانية الغربية .

كما يجب أن نعي أن ثورة الغرب على الكنيسة والديانة المسيحية كان لابد أن تحدث لما وصلت إليه الحال من سلطة القهر ، وسيطرة الكنيسة على المجتمع ، وما قررته الكنيسة للبابا من حق غفران الذنوب في عام " ١٢١٥ م " ، ثم ما قررته بعد ذلك عام ١٨٦٩ م من عصمته من كل خطأ ، ومحاكم التفتيش ، والحجر على العقول ، والتعذيب ، والسجن ، والتقتيل ، مع الظلم الاقتصادي ، والاجتماعي ، والسياسي في ظل حكم الاقطاع . أضف إلى كل ذلك ضعف الاعتقاد في المسيحية ، وتضاربه مع العقل والعلم ، واختلاطه بالفكر ، والتصور

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة د. مستشار / علي جريشة . دار الوفاء . المنصورة . ط ٢ ١٩٨٨ م .

البشري القاصر والمحدود .

فهي في الحقيقة ثورة على فكر بشري قاصر على زمنه الذي وضع فيه ، وبيئته التي ظهر بها ، وقد تدخل في صلب العقيدة .

والمسيحية لم تكن رسالة عامة زمانيًا ولا مكانيًا بل انتهت تمامًا منذ قرون طويلة مع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وقد رفضها الإسلام ـ القرآن ـ صراحة ، وصرح بالتدخل البشري فيها بعد أن ترك الله حفظها لهؤلاء الذين حرفوها بالزيادة والنقصان ، والإضافة والشرح ، حتى أضحت صنيعة بشرية يستحيل أن تتسع زمنيًا ، و تستمر مع تطور البشر ، ويستحيل أن تتسع مكانيًا فتشمل كل تلك البلاد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ .

[المائدة : ٤٤] .

فقد ترك الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر " الحفظ " هنا لرجال الدين ، سواءً اليهودي أو المسيحي ، وفرضه عليهم .

وقال ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

فقد سبق القرآن الكريم والرسول – ﷺ – هؤلاء – الحداثين الغربيين – بقرون

طويلة في رفض اليهودية والمسيحية ؛ لما آلت إليه ، بل وفصّل سبب رفضهما ، لمادخل فيهما من تحريف بشري ، وأنه لايصلح للبشرية ، وأوضح ذلك بما لايدع مجالاً للشك بالنظر العقلي فيهما ؛ فاظهر ما بهما من فساد ، وأكد ضرورة التمسك بالدين الإسلامي وحده،والذي جاء به خاتم النّبيّين محمد ـ ﷺ ـ ، وأنه هو وحده الدين الحق ، وأن كل دين عداه فهو باطل لايقبله الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وأن الإسلام هو الدين الخاتم لكل البشر إلى قيام الساعة ، وتعهد الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بحفظه ، وببيانه وهيمنته على الدين كله .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

والقرآن الكريم عندما تحدّث عن العقيدة فلا سيطرة للرسول على قلوب المؤمنين المعتقدين لها والمطالبين بها ، فلا إكراه في الدين .

أما في الحديث عن الشريعة ، فلقد جاءت الآيات بوجوب إقامتها عليه وعلى المؤمنين ، فهي آيات قد أنزلت عليه ـ ﷺ ـ ليقيمها ، وليس فقط ليبلغها الأمر الذي يعني إيجاب إقامة "سلطة ـ دولة " .

وإلا فهل يتصور عاقل ان أحكام الشريعة الإسلامية ، وقوانينها في الحرب والسلم والزكاة ، وفي القصاص والحدود .... إلخ قد نزلت لمجرد البلاغ ، ولمجرد العلم ، مع تركها كالعقيدة لاختيارات القلوب التي لارقيب عليها ، ولا وكيل ولا حفيظ ! .

وإذا نظرنا إلى التنوير الغربي نجده قد تميَّز ببعض المفاهيم التنويرية العلمانية يأتي في مقدمتها :

[١] **نزع القداسة عن المقدسات الدينية** : ومنها ، الوحي،والكتب المقدسة ، واخضاعها في الدرس لمعايير دراسة النصوص البشرية الخالصة في بشريتها . فنجد " فولتير " قد سمَّى النصرانية " الكائن الوضيع " ، ودعا إلى فصل الدين عن الدولة ، وإبعاده عن الدولة ، ثم توالت الثورات على الكنيسة في ألمانيا ، وفرنسا ، ورفعت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م شعار " اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس " (١) .

[٢] **النظر إلى الدين باعتباره شأناً فردياً خاصاً:** قد يفيد في تقويم الأخلاق الفردية مع عزله عن كل ميادين العمران الاجتماعي ، سواءً في المعارف والعلوم ، أو في التطبيقات المدنية والثقافية لهذه المعارف ، وجعل المرجعية في شؤون العمران البشري للواقع ، والدنيا التي تدرك نواميسها ، وتعرف حقائقها ، وعلومها ببراهين العقل ، وتجارب الحواس وحدها .

[٣] **النظرة التاريخية إلى الدين** " أي اعتبار أن علاقته بالعلم ، وتوافقه معه مرحلة تجاوزها التاريخ ، ومن ثم رفض تعايش العلم والدين تعايش وحدة ، وتآزر التي " تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله " .

وتأسيساً على هذه المقولات يدعو " التنويريون العلمانيون العرب " إلى تبنى نموذج الغرب في التقدم ، والنهضة ، والاحياء ... فطالما كانت مشكلات التخلف واحدة أو متشابهة ، فلا بد وأن تتوحد الحلول .. حلول النهضة بيننا ، وبين الغربيين . وقد انتقلت هذه الحركة التنويرية الغربية إلى عقول وأفهام كثيرين من مثقفينا ، وسنعرض على سبيل المثال لثلاثة من رواد الحركة التنويرية العلمانية

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة . د . مستشار / علي جريشة . دار الوفاء . المنصورة .ط ٢ ، ١٩٨٨ م .

الغربية في أمتنا العربية،وبعض من تلاميذهم لنكشف زيف دعوتهم ، وفساد آرائهم وأفكارهم ، وأن هذه الدعوة عداء صرف للإسلام ، ولاتحمل أي تنوير في الإسلام . وهم :

أولاً : الشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥/ ١٣٨٦هـ ـ ١٨٨٧-١٩٦٦ م) :

وكتابه " الإسلام وأصول الحكم "

وهو من شيوخ الأزهر ، وقد جسد التنوير الغربي العلماني غير المسبوق في فكر المسلمين وتاريخهم الطويل . وحقيقة اختلطت عليه الأمور ، أو تناولها دون معرفة ، وتجنى على تاريخ المسلمين ، وقد اعتذر عن هذه الأفكار أو أنه لم يعتذر سواء .

وقد قامت دعوته على أن الإسلام عبادة روحانية فقط ، ولاعلاقة له بإقامة الدولة ، أو تنظيمها ، أو التشريع لها . والحقيقة أن ما قال به عن الإسلام والخلافة الإسلامية وأن الدين الإسلامي روحانياً فقط محض افتراء ،لم يقل به حتى أعداء الإسلام .

وكتابه هذا لايعد بحثًا علميًا هنا، فهو تغريب للأمة الإسلامية عن حضارتها، وتراثها ودينها .

ثانياً : سلامة موسى (١٣٠٥ / ١٣٧٧ هـ - ١٨٨٨- ١٩٥٨م) :

وكتابه " اليوم والغد "

وكل ما فعله دعوة إلى التفرنج ، والانسلاخ من الشرق والعروبة والإسلام بدعاوى كاذبة متناقضة، بها الكثير من السبّ والمغالطات ، وفيها عمالة حضارية للمستعمر، ونستطيع أن نوصفها بأنها عمالة سياسية تطفح بها كلماته في كتابه " اليوم والغد " ، بل انه تطاول على كل شيء إسلامي وشرقي وعربي ، ولم تسلم

منه الديانة المسيحية ، فهو يكاد يعبد أسياده الغرب ، والإنجليز خاصة ، ولم يأت بأي تنوير بل نستطيع أن نقول أنه أتى بكل تزوير في كل ما تكلم به .

فكانت دعوته إلى دمج الأجانب في المصريين ، وليس إلى تحرير مصر منهم ، وإلى إزالة مخاوف هؤلاء الأجانب المحتلين " بفصل الدين عن الدولة ، وإلغاء التعليم الديني في المدارس " والدين هنا هو الإسلام .

ويدعو إلى هجر الثقافة العربية ، واللغة العربية ، واللجوء إلى العامية بدلاً من الفصحى ، وعقد مقالاً جعل عنوانه : " الرابطة الدينية وقاحة " !

وكتب يقول : إن الأجانب يحتقروننا بحق ، ونحن نكرههم بلا حق ... وقد كانت أكثر كراهيتنا لهم حسداً ، لأنهم نازعونا البقاء فغلبونا [١] . ونستطيع أن نصف دوره بالعمالة الحضارية ، وإنكاره للدين عمومًا . وقد كان صريحًا في إعلان ذلك ، وأكثر جرأة ممن تبعوه في هذا الدرب . ولايمكن لأي عاقل أن يصف هذا الفكر - إن جاز تسميته فكرًا - بالتنوير مطلقًا .

ثالثاً : د/ طه حسين (١٣٠٦ / ١٣٩٣هـ - ١٨٨٩-١٩٧٣ م) .

وكتابه " الشعر الجاهلي "، وكتابه " مستقبل الثقافة في مصر"

وهو لم يكن إلا عميلاً للغرب ، وعدواً للإسلام حتى في مرحلته الأولى التي تميزت بالانبهار الشديد بالنموذج الغربي في النهضة والتحديث ، وبالرفض للنموذج الإسلامي ، وأنه لم يتراجع بعد مرحلة الانبهار هذه عن الإلحادات التي خاضها .

وتظهر أفكاره في مرحلة الإنبهار في كتابه " الشعر الجاهلي " الذي أثار عام ١٩٢٦م أولى معاركه الفكرية ، فقد نزع طه حسين القدسية عن القرآن الكريم ،

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط٢ . ٢٠٠٢ م .

وتعامل معه كما يتعامل الباحث الملتزم بالشك الديكارتي في نص بشري ، متناسيًا قدسية القرآن الكريم ، ومتجاوزًا طبيعة البحث العلمي .

والعمل الثاني الذي تبنى فيه د/ طه حسين مقولات التنوير الغربي العلماني هو : كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" ، وكتبه ١٩٣٦م ، ونشره ١٩٣٨ م .

وقد غير آراءه حول هذا الكتاب عندما أعلن ذلك في مارس ١٩٧١ م في صحيفة الأهرام .

وفي سنة ١٩٥٣م عقب ثورة يوليو اختير طه حسين عضوًا بلجنة وضع الدستور المصري الجديد ليحل محل دستور "١٩٢٣م" ، وفي مداولات هذه اللجنة قال طه حسين كلامًا يدعو إلى الالتزام في الدستور الجديد بكل الإسلام وإلى إلزام المشرع للقوانين بألا يخرج قانون من القوانين عن أحكام القرآن الكريم (١) .

ثم نجد ـ بعد هذا ـ تلامذة التنوير الغربي العلماني يحاولون التزييف، ونجدهم يقولون بأنه تجديد ، ويربطونه بالتجديد في الإسلام ، وشتان ما بينهما ،ويقولون بأنه عربي لا غربي، وهي دعوى كاذبة تكشفها بل تفضحها أفكارهم التجديدية كما يزعمون ؛ فهم يجعلون العقل سيد الأحكام " يؤلهون العقل " .

فنجد مراد وهبه رافعاً "شعار التنوير" يدعو إلى الانتقال من الأسطورة ــ أي الدين – إلى العقل " لاسلطان على العقل إلا العقل " ، أي لاسلطان لدين ، ولا وحي .. ولا نقل .. ولا وجدان .

✿ **ود/ جابر عصفور يقول :** إن العقل والتجريب ، لاالنقل والاتباع هما أساس المعرفة ، فأساس المعرفة العقل والتجريب .. وعلى التنويريين الكفر بالنقل أي ـ القرآن والسُّنَّة ـ ، والثقافة المستندة إليهما ، والتراث المؤسس عليهما ، والحضارة المصطبغة بصبغتهما . وهو حر فيما يعتقد ، ولكن لايجوز له استخدام التزوير

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ١٦٩ . د/ محمد عمارة دار الشروق ط٢ ٢٠٠٢ م .

لإثبات الحقائق .

فكيف يكون التنوير عربيًا إسلاميًا ؟! ، وهويدعو إلى إسقاط الهوية العربية الإسلامية !.

❁ **ونرى د/ حسن حنفي :** في مشروعه الضخم " التراث والتجديد ١٩٨٠م يحاول أنسنة الدين ، وتفريغه من محتواه ؛ وذلك بإلغاء ثوابته ومقدساته من " الله إلى النبوة إلى الرسالة إلى الوحى إلى الغيب" إلغاء كل ذلك بإعطائه مضامين، ومفاهيم إنسانية أرضية ... أي إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة ، وقصرها على عالم الشهادة . وقصر سبل المعرفة على العقل والتجريب وحدهما أي إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة ، وتأويل وتفسير كل ماله علاقة بالدين ، والغيب ، والألوهية ، والنبوة ، والرسالة ، والوحي على هذا النحو الذي " يؤنسنه " ، ويجعله إفرازًا بشريًا .

فنحن إذًا بإزاء استعارة فلسفية لفلسفة التنوير الغربي العلماني ، ويريد د/ حسن حنفي أن يتعامل بها مع الإسلام كما يتعامل التنويريون الغربيون مع النصرانية الأوروبية إبان النهضة الأوروبية الحديثة ، ويجب ألا ننخدع بادعاء بعض هؤلاء بالتجديد ، أو تصديهم في بعض المواقف للدفاع عن القضايا العربية أو حتى الدينية بما يوهم أنهم يدافعون عن الإسلام ؛ فحقيقة فكرهم وأهدافهم هي هدم الإسلام .

ولابد أن يكون واضحا أنه عندما سقطت الماركسية ، وتحولت دولها إلى الليبرالية الغربية ومعسكرها الشمالي حدث نفس التحول لرموز المثقفين والمفكرين الماركسيين العرب ، وأصبحوا أفصح ألسنة في مواجهة المشروع الإسلامي من مؤسسات الإعلام والثقافة ، وفي خضم هذه الأحداث بعثوا شعار " التنوير" من مرقده القديم ، ودعوا إليه في مواجهة المشروع الإسلامي الذي

وصفوه "بالفكر الظلامي" .

وفي سياق التنوير لمواجهة التيار الإسلامي نجد على سبيل المثال :

[١] انعقاد معرض القاهرة الدولي للكتاب عام١٩٩٠م تحت شعار " مائة عام من التنوير " .

[٢] احتفال المثقفين العلمانيين بمئوية مجلة "الهلال"القاهرية ١٩٩٢ م تحت ذات الشعار"مائة عام من التنوير" .

[٣] الحملة الفكرية التي نهضت بها وزارة الثقافة المصرية ١٩٩٣م ، والتي أصدرت فيها قرابة الخمسين كتابًا لتحمل أغلفتها كلمتي " المواجهة والتنوير " .

وبعد هذا العرض المبسط لهؤلاء وأمثالهم يجب أن ننتبه ، ونحدد العلاقة بين مصطلح :

التنوير الموجود في تراثنا الإسلامي ، والتنوير في التراث الغربي .

وذلك لاختلاف المفاهيم التي يسببها استخدام " المصطلح الواحد " بمفاهيم وخلفيات ومضامين مختلفة ، بل ومتباينة ، وأحيانًا متناقضة ؛ حتى نعلم الفرق بينهما ، وإلى أي تنويرٍ نحن مدعوّون ؟! .

وحتى نكشف أي تزوير أو تدليس يُراد به ديننا الحنيف .



المبحث الخامس مركســـة الإســـلام

لم تنحسر محاولات مركسة الإسلام بسقوط الماركسية في الإتحاد السوفيتي ، فلقد انسحب الكثير من الماركسيين العرب بعد سقوط مشروعهم السياسي ، والاقتصادي من تحت مظلة الماركسية "الشمولية" ، واتخذوا مواقعهم تحت مظلة الليبرالية [١] ، التي كانوا يكيلون لها الاتهامات ؛ وذلك لأن الذي يجمعهم سويًا هو جامع العداء للإسلام .

ونجد في واقعنا العربي المعاصر العديد من المشروعات لمركسة الإسلام ، فهي تحاول بإسلوب فكري قسري أن تصب الدين في قوالب الإلحاد ، وتدفن الروح في قبر المادة .

ومن هذه المشروعات على سبيل المثال :

- مشروع د/ طيب تزيني عن التراث ، ومحاولة اختزاله في الثورة .
- مشروع حسين مروة .. عن النزعة المادية في الفلسفة الإسلامية .
- مشروع محمود إسماعيل لاختزال الإسلام في البعد الاجتماعي الثوري .. سوسيولوجيا الإسلام ..

ومثال على ذلك: كتاب غير مشهور في دوائر الإعلام وهو كتاب " القرآن وعلومه في مصر " تأليف أ.د/ عبد الله خورشيد البري ، وهو رسالة دكتوراة في

---

(١) يقول " إميل بولا " الباحث الفرنسي ، وأحد أكبر الباحثين المعاصرين في " علم الاجتماع الديني " : إن الايديولوجيا الأم التي كشفها عصر التنوير للعالم ، والتي تضاد المسيحية عن طريق الخروج منه تحمل اسمًا رمزيًا كان مثقلاً بالمعنى ومشحونًا بدلالة الواقع في القرن الماضي إنه " الليبرالية " . الإسلام بين التزوير والتنوير . د/ محمد عمارة . دار الشروق .ط٢ . ٢٠٠٢ م .

كلية الآداب جامعة القاهرة ـ قسم اللغة العربية ـ ، وهو يركز على الإسرائيليات التي تشكك في النص القرآني ، وهي روايات آحاد ، ومعلولة أو شاذة .. ولن نقف عندها هنا ...

والمركسة التي في هذا الكتاب أنها اختزلت الإسلام في الثورة ،فهو مجرد ثورة على سبيل الحصر ، ولا أثر فيه للدين ، ولا لصدق الوحي الإلهي ، ولا للمعجزة التي تحدى بها قومه والعالمين ، وهو يقدم الرسول ـ ﷺ ـ كمصلح اجتماعي فقط .

أولاً : مشكلة الماركسيين مع الإسلام :

ومشكلة هؤلاء الحقيقية أنهم مصرّون على الانطلاق من قاعدة راسخة في أذهانهم وأفهامهم ، ويحكمون بها فكرهم هي : " أن الإسلام والقرآن الكريم إنتاج بشري " ، وهذا نابع من إنكارهم بوجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ حتى لو أخفو ذلك – ثم هم يتشعبون في فكرهم كل بطريقته لإثبات اعتقادهم من خلال إثبات بشرية الدين الإسلامي والقرآن الكريم ، وهم لايتركون سبيلاً إلى ذلك إلا ويطرقونه في محاولة يائسة لوضع أسس ، أو قواعد لدعواهم .

والنقطة الفاصلة في الحوار معهم هي أن الدين الإسلامي لم يكن منتجًا بشريًا بحال من الأحوال ، وهو من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ " تصوير إلهي كامل معجز " ؛ ولذلك قام على التحدي المستمر ، والصلاحية المستمرة للجميع ، وقد ثبت ذلك بمرور وتعاقب العصور ، وهذا ما لايمكن توفره في الفكر البشري .

ونتوجه إلى عقول هؤلاء ونسألهم:

إذا كان الإسلام والثقافة الإسلامية القرآنية يمكن ـ كما تدعون ـ تحليلها علميًا واجتماعيًا بحسب كونها منتج بشري مادي ، فليبرر لنا هؤلاء بهذا

التحليل الاجتماعي والعلمي عدم استطاعة التطور العلمي الحديث ، وحتى يومنا هذا على الإتيان أو الإنتاج لثقافة ترتقي إلى مستوى الثقافة القرآنية ؟ ، والمؤكد أن العلم والإنسان والحياة والاجتماع .... وصل إلى مرحلة من النضج الفكري ، والعلمي ، والجمالي ، وإلى مستوى متقدم كثيراً على مستويات المجتمعات العربية القديمة إبان ظهور الإسلام ، والثقافة القرآنية .

فهل بإمكان العصر الحديث ـ بكل تقدمه وتطوره وبكل بناه الاجتماعية ـ أن ينتج ثقافة تصل إلى مستوى الرقي الفكري ، والروحي ، والقانوني ، والاجتماعي للقرآن الكريم ؟!.

ولماذا لم يتساءل هؤلاء المفكرين والفلاسفة ..

أن لو كانت الظاهرة القرآنية منتجًا بشريًا لأي مرحلة تاريخية فهل كانت لتجرؤ على طرح صيغتها باسم التحدي لكل عصر ، وزمان ، ومكان ، وإنسان ؟!

وأما محاولة طرح مبرر "الاستثنائية" ـ الذي قال به د. طيب تزيني [1] ـ لشخصية الرسول ـ ﷺ ـ للتملص من استحقاقات الاعتراف بإعجازية القرآن الكريم، وللإدعاء ببشريته، فهذا المبرر لم يكن أبداً تحليلاً علميًا أو اجتماعيًا يفسر أو يشرح لنا هذه الاشكالية التي كسرت قانون "الانعكاس الاجتماعي" [2]، الذي يؤمنون به ، والذي يظهر اختلافًا كبيراً بين واقع المجتمع العربي البدوي الساذج ، وبين ثقافة القرآن الكريم الراقية .

---

(١) د/ طيب تزيني. صاحب نظرية " الاستثنائية " حول المبررات التي دفعته إلى تبني استثنائية في دراسته " الظاهرة القانونية " .كتاب / مقدمات أولية جـ ٤ الباب الثالث ص ٣٨٥ . طبعة أولى . د/ طيب تزيني.

(٢) فهؤلاء الماركسيون يؤكدون حتمية كون مصادر المعرفة الإنسانية انعكاسًا للوجود الاجتماعي فحسب ، فهي مصادر مادية بحتة .

عن مقال على الإنترنت ١٤- شباط٢٠٠٥ ـ حميد الشاعر . من هدي القرآن ... الكلمة ... القرا؟ بنية الاجتماع وثقافته).

ويحق لنا أن نسأل د/ طيب تزيني ؛عن تلك الاستثنائية المادية الأعجوبة التي هيئت من محمد - ﷺ - أن يكون محركًا ، وملتقطًا لفصل تاريخي غير وجه الكرة الإنسانية بالتمام .

فهل هذه الاستثنائية العلمية والحتمية هي استثنائية بشرية بالإمكان تكرار نموذجها الإنساني ، باعتبار أنها فعل إنساني محتمل الوجود علميًا ؟! ، أم أن هذه الاستثنائية من الاستثنائيات الخارجة عن المقدرة البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟!.

فإذا كانت من الاستثنائيات الخارجة عن المقدرة البشرية ، واللامتكررة فلا إشكال يذكر بيننا وبين د/ تزيني ، أما إن كان المقصود الاستثناء البشري المدي المحتمل وجوده ؛ فليدلنا الأستاذ الفيلسوف « تزيني » عن ذلك المحتمل البشري ، والذي بإمكانه أن يتمثل ما قام به ، وما قدمه رسول الله - ﷺ - ، فليرشدنا العقل الحتمي العلمي إلى الشخصية الإنسانية التي تكررت بعد محمد - ﷺ - ؛ لنطالبها بأن تاتي بما أتى به محمد - ﷺ- من فكر ، وثقافة ، وعلم قرآني ، لنسقط هذا الكيان المسمى إعجازيا " بالقرآن الكريم " ، ولنتنور من ثم إلى كون هذا المنتج الفكري ، والعلمي والثقافي القرآني الذي جاء به محمد - ﷺ - بالإمكان طرح مثله ، واستبداله بغيره أعمق منه فكريًا ، ونفسيًا، واجتماعيًا ، وكونيًا ، وفلسفيًا ، واقتصاديًا .... إلخ من إنسان استثنائي آخر !.

وهل يتمكن دعاة الاستثنائية المادية في شخصية الرسول - ﷺ- من الإتيان بإنسان أمي لايقرأ ولا يكتب، في مثل المجتمع العربي الجاهلي ؛ ليطرح ثقافة ، وعلمًا ، وفكرًا ، خلق أمة ، وبنى حضارة ، وغير مجرى التاريخ ..... إلخ ؟!.

وكيف ، ولماذا يلجأ العقل المادي الحتمي إلى هذه الاستثنائية ، وهي تتعارض مع فكره ودعوته ؟!.

والحقيقة أن هذه الاستثنائية المادية هنا هي كالأسطورة البدائية للإنسان ، التي توحي بكل مالم يستطع العقل والعلم الإنساني تفسيره في السابق إلى رميه على قوى اللامرئي " الغيب " ، إلا أن الاستثنائي المادي بدلاً من الغيبي ؛ لتكون المعادلة قائمة على : محمد ﷺ الاستثنائي ! العامل والمحرك للحظة الاستثنائية ! القادر على الإتيان بالقرآن الاستثنائي ! والمنتج لكل ما هو استثنائي .... إلخ .

إن الإشكالية الحقيقية للعقل المادي الماركسي أنه لايريد إدراك حقيقة وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولعجزه أمام هذا الطرح – وجود خالق – والثابت بالمنطق العقلي البحت ؛ يلجأ هؤلاء إلى الخلط والكذب و . . .إلخ .

ثانياً : مشروع سيد القمني :

ومن أبرز نماذجهم لمركسة الإسلام "مشروع سيد القمني " (١) . والذي قال عنه التسويق العلماني : " إنه واحد من العلماء الصارمين الذين يعتمدون العلم لا الأساطير" ، وهو نفسه يؤكد ذلك حين يقول عن نفسه إنه في مشروعه الفكري عاين التراث " حيًا بلحمه ، وشحمه ، ودمه ، "وقدمه " كما كان حقًا " ، وعلى هذا فقد مارس « القمني » حقه الكامل في السؤال ، وفي البحث ، وفي الإجابة في كتبه ، ومقالاته التي بعضها حول المناطق الحساسة في التاريخ والعقيدة ، وبعضها الآخر يقتحم بلا حذر وبتهور هذه المناطق تحت ضغوط فكره المادي الماركسي ، فنجده يضطر ـ في أغلب كتاباته ـ إلى التضحية بالمعلوم بالضرورة في كتب مناهج البحث العلمي ، وإلى اعتماد الأساطير ، " سواء التراثية ، أو حتى الاستشراقية بحجة كما قال وأكد : إن مهمتنا ـ مهمته ـ أبداً ليست تدقيق معلومة يعطيها لنا علماء " وأن " المعلومات سواء كانت خطأ أم صوابًا فهي ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ " .

(١) سيد القمني / دكتوراة في تاريخ علم الاجتماع الديني .

ونلقي بعض الضوء على المشروع الفكري للدكتور القمني ، وكيف أعاد إنتاج الإسلام ماركسيًا ؛ ليلائم اتجاهاته الماركسية الثورية ، ولنكتشف تعمد التزوير والكذب على التاريخ ، ليظل داخل قوقعة الماركسية التي حبس فيها عقله ، وفكره وحتى تخيله .

(أ) مشروعه المادي :

وللأهمية القصوى نبدأ بإثبات تعريف القمني لنفسه بقوله " **أنا مادي** " ، والمادي في " الف ـ باء " ماركسية تتلخص في أن المادي يقول بـ : " أولية المادة على الله في الوجود " ؛ وبالتالي فهو حسب " المادية الدياليكتيكية " **لايؤمن** بوجود موضوعي حقيقي لله . ومن ثم ينكر ويرفض وجود علاقة ـ سواء في شكل ديني أو روحي ـ بين إله غير موجود أصلاً ـ في عقيدته ـ ، وبين إنسان هو الخالق الفعلي لله . وحسب ـ الرؤية المادية التاريخية ـ فالمادي لابد أن يبحث ـ في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإنسان ـ عن وجود فكرة الله والدين .

وهذا ما حاول « القمني » الالتزام به في مشروعه الفكري الذي رفض فيه ما أسماه بـ " الرؤى الأصولية " التي تقول : أن الإسلام " مفارق سماوي " ؛ لتناقض هذا القول " الأصولي " ، أو " المثالي " مع " مادية " سيد القمني التي تقول : بـ " أنه لا شئ إطلاقاً يبدأ من فضاء دون قواعد مؤسسات ماضوية يقوم عليها ويتجادل معها ، بل ويفرز منها حتى لو كان دينًا " .

والذي حاول فيه " من خلال دراسته للأديان عمومًا ، وللإسلام خصوصا " إثبات أن فكرة التوحيد لاتاتي من فراغ ، ولا تقفز فجأة دون بنية تحتية تسمح بها ؛ لأن ذلك القفز الفجائي يخالف منطق التطور ، وشروطه المجتمعية ، والاقتصادية ، والسياسية وذلك حسبما تعلم " في فلسفة التاريخ ، وقوانين الحراك الاجتماعي " .

(ب) تفسير ماركسي :

ولاعتقاد القمني ـ الماركسي المادي ـ أن الإسلام مجرد " إفراز " أفرزته " القواعد الماضوية " "الجاهلية " ؛ وأنه ـ حسب الرؤية المادية ـ لا يمكن تفسير الظهور التاريخي للإسلام " كبناء فوقي " من الله وفقًا لوعي الإسلام المثبت في قرآنه ، بل ينبغي تفسيره بتناقضات الحياة المادية " بناء تحتي " ؛ لذلك رجع « القمني » في دراساته عشرات الأعوام في عمق الحقبة الجاهلية ؛ لينقب في وقائعها عن جذور جاهلية لمثلث " الرسول ـ الرسالة ـ الدولة " .

وليقين القمني أن اللحظة التطورية " الاقتصادية ـ الاجتماعية " في الزمن الجاهلي لحظة بدائية ، أو بدوية لن تسعفه وقائعها في إيجاد جذور جاهلية لمثلث الإسلام " الرسول ـ الرسالة ـ الدولة " ، خصوصًا أن هذه الوقائع في رأيه قد تم "أسطرتها" [1] بزيادة هائلة ، ومكثفة "عند تدوين التراث الإسلامي في سجلات الإخباريين " ؛ لذلك لم يبدأ القمني دراسته للقواعد الماضوية بنقد الوقائع المدونة في سجلات الإخباريين لتخليصها من النسبة الأسطورية " الهائلة والمكثفة " في معلوماتها ، وإنما ـ وعن قصد ـ تخلى عن عقله النقدي ـ كمتخصص في التاريخ ـ ، وتجنب الوقائع العقلانية في السجلات التراثية ؛ وذلك ليوسع رقعة "الأسطرة " كضرورة أيديولوجية ، وليست علمية تمكنه من تفكيك المثلث الإسلامي ، وإعادة ترتيبه ليكون الإسلام "الرسالة "مجرد " إفراز " أرضي بشري ، وليس وحيًا سماويًا .

تحت ضغط هذه الغاية، اعتمد الدكتور « القمني » ما أسماه بـ " المعطى الجاهز له من أهل التاريخ " عن الصراع الهاشمي الأموي قبل البعثة الإسلامية .

---

(١) الأسطرة : أي الذي يحوي الأساطير ، أي غير عقلاني ، وهو عكس " اللاموسطر " أي الذي ينزع الأسطورة عن وجه الأشياء ، وبالتالي فهو يعني العقلانية .

ورغم أن سبب هذا الصراع كما سجله الطبري " مرجع القمني " أن هاشماً بن عبد مناف أطعم قومه الثريد، فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان ذا مال ـ فتكلف أن يصنع صنيع هاشم ، فعجز عنه ؛ فشمت به ناس من قريش ؛ فغضب " أمية " ونال من هاشم " ورغم أن أغلب الكتب التراثية التي روت واقعة الصراع قدمت معلومات تشكك في حقيقتها، منها :

أن هاشماً هو توأم عبد شمس "،وكان لهاشم يوم مات خمس وعشرون سنة ، أي وكان لعبد شمس يوم مات " توأمه " خمس وعشرون سنة ، وهي معلومة كما نرى تثير تساؤلاً :

- كم كان عمر أمية يوم مات أخو أبيه وتوأمه ؟ (خمس سنوات أو حتى عشرة).

بل ورغم أن ابن اسحاق ، وابن سيد الناس ، وابن كثير سكتوا عن مجرد الإشارة إلى هذا الصراع في مؤلفاتهم التي تصنف ككتب أصول ، فقد تجاهل القمني كل ماسبق حتى لايشكك في تاريخية هذا الصراع الذي انتقاه ليكون " القاعدة الماضوية لتاسيس " الدين والرسول والدولة " .

(ج) إعادة تأسيس الإسلام :

وبدون الدخول في تفاصيل كثيرة ، أو تعليق على عشرات الأخطاء الطلابية التي ازدحمت بها معالجة القمني لمراحل وتطور هذا الصراع ، فالذي يجب رصده أن :" الحزب الهاشمي " ـ حسب دعواه ـ في بداية تاسيسه لم يكن فاعلاً بشكل جذري ؛ لأنه – في أهدافه (سواء زمن قيادة هاشم ، أو في زمن قيادة شقيقه المطلب) ـ كان ملتزما بخط " قصي " ـ الجد ـ ، ويكاد يدور في دائرته ؛ لذلك كان الصراع يُحل سلمياً حرصاً على المصالح التجارية ، وما سبق أن حققه عمه " المطلب " الذي رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة . فقد نقل الصراع مع

أبناء عمومته ـ الحزب الأموي ـ من المناوشات المحدودة إلى المواجهة الشاملة ، وبتعبير القمني " من التكتيك إلى الأيديولوجيا " .

ولأن عبد المطلب ـ كما يقول « القمني » ـ تربى في يثرب " حيث التاريخ الديني يتواتر هنا في مقدسات اليهود " ، وحيث كانت حكايات اليهود " عن مغامرات أنبيائهم القدامى ، وعن دولتهم الغابرة التي أنشاها النبي داوود " ؛ فقد أتى من يثرب إلى مكة بالمشروع الإسرائيلي (اليهودي) بمثلثه (العرقي ـ الديني ـ السياسي) ؛ ليهتدي به في مهمته الجليلة بـ " وضع أيديولوجيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه الهاشمي " وهي :

[١] أرجع النسب العربي من أسلاف القبائل المتفرقة إلى التوحد في " سلسلة النسب الإسرائيلية " ، وأعلن أن العرب جميعًا ، وقريش خصوصًا يعودون بجذورهم إلى نسب واحد ، فهم برغم تحزبهم وتفرقهم أبناء لإسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ .

[٢] بعد " قراءة " للواقع المتشرذم ، تمكن عبد المطلب من " تحديد الداء (المكي ـ العربي) ووصف الدواء" . والداء فرقة قبلية عشائرية ، والأسباب تعدد الأرباب ، وتماثيل الشفعاء .

" ومن هنا انطلق عبد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد " ، و" انطلق يؤسس دينًا جديدًا يجمع القلوب عند إله واحد " .

[٣] وبإزالته أسباب " الفرقة القبلية " لم يكتف عبد المطلب ـ في رأي القمني ـ بتبشير قومه بـ " إمكان قيام وحدة سياسية بين غرب الجزيرة تكون نواتها ومركزها مكة تحديدًا " ، لكنه عمل أيضًا على ملء المساحة الفاصلة بين نقطة الوسيلة " الدين " ، ونقطة الغاية " الدولة " بحركة جماهيرية تكون بمثابة الجناح

الديني للحزب الهاشمي ، وهو ما حدث فعلاً في رأي القمني " فقد آتت مخططات عبد المطلب ثمارها ، واتبعه كثيرون " وكونوا حركة الحنفاء " حتى شكلوا تيّارا قويًا ، خاصةً قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة " ، وكان عبد المطلب هو " أستاذ الحنيفية الأول " ، " والرجل الأول " في هذا التيار .

[٤] ولأن المشروع الإسرائيلي هو المرجع ، ودولته - التي أنشأها النبي والملك داوود - هي النموذج ، ولأن عبد المطلب التزم - في استكماله للمهمة - ، وفي وضعه للأيديولوجيا الهاشمية - بخطوط التجربة الإسرائيلية ؛ فقد انتهى إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشئ الدولة العربية المرتقبة نبيًا مثل داوود عليه السلام .

[٥] بالوصول إلى حل " النبي الملك ، أو الملك النبي " كحل سبق تجريبه ، وحقق وحدة " أسباط اليهود " في دولتهم الغابرة ؛ وليبقى أمر التنفيذ ـ كما في أمر التخطيط ـ محصوراً في البيت الهاشمي ؛ فقد ذهب د/ القمني إلى أن عبد المطلب زعيم قريش، وقائد الحزب الهاشمي سلّم عقله ويداه لـ "الحبر اليهودي" ؛ ليشاهد ويشهد " أن في إحدى يديه مُلكًا ، وفي الأخرى نبوة " ؛ وليرشده ـ بعد قراءة الكف ـ بحتمية زواجه من بني زهرة ؛ لأن فيهم الملك والنبوة ، وسارع عبد المطلب بالزواج هو ، وابنه عبد الله من بني زهرة في ليلة واحدة .

وبالتحول " الانقلابي والثوري " للصراع الهاشمي الأموي من صراع ساذج على إطعام قريش الثريد ـ كما في الخبر التراثي ـ ، إلى صراع حضاري غير مسبوق في التاريخ ، وبوضعه " الأيديولوجيا " الهاشمية استطاع عبد المطلب ذلك العبقري الفذ أن يغير ـ بجذرية ـ ليس فقط الواقع العربي الجاهلي ، وإنما أيضًا كل المستقبل الإنساني بدوره " التأسيسي" للدين (الحنيفية ـ الإسلام) ، وللدولة (العربية الإسلامية) ، و(لنبوة حفيده محمد ﷺ) .

(د) ما بعد أخطاء المنهج :

نعم في توثيقه لدور عبد المطلب " التأسيسي " للدين " التوحيدي " قطع القمني بأن ما ذهب إليه هو نفس ما يؤكده ابن كثير - رحمه الله - بما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن " ديانة أبي طالب بن عبد المطلب : هو على ملة الأشياخ . هو على ملة عبد المطلب " . وبالرجوع إلى مرجع القمني (البداية والنهاية ج ٣ ص ١٧٠ ، وجدنا ابن كثير " في فصل وفاة أبي طالب " .

وفي تعليقه على آية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦] ،يروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أبي طالب حين عرض رسول الله - ﷺ - أن يقول : لا إله إلا الله ، فأبى أبو طالب أن يقولها ، وقال : هو على ملة الأشياخ .. هو على ملة عبد المطلب " .

ومن سياق ما رواه ابن كثير - رحمه الله - (وأخفاه القمني بقصد) نفهم أن الحفيد - عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب - روى أن عمه - أبو طالب - رفض أن يقول :لا إله إلا الله وتمسك (ضد هذا القول التوحيدي) بملة الأشياخ (آباء البيت - الحزب الهاشمي -) ، وتحديداً بملة عبد المطلب التي حسب ظاهر وباطن السياق لا تقول - اي لا تؤمن - بـ " لا إله إلا الله " .

ورواية الحفيد - ابن عباس - استشهد بها ابن كثير (ج ٢ ص ٢٨٥) لتأكيد موقفه الذي سجله في أكثر من موضع في كتابه من أن " عبد المطلب مات على ما كان عليه من دين الجاهلية " .

ونضيف أن ما فعله القمني من تحريف وتزوير لما رواه ابن كثير قد كرر فعله مع ما نقله عن " السيرة الحلبية " في توثيقه فيما أسماه بـ " علم عبد المطلب اليقيني بنبوة حفيده محمد ﷺ " ، وسعيه لتحقيق هذا اليقين على أرض الواقع بالزواج

من بني زهرة (١) .

وأيضاً هذا التحريف ، وهذا التزوير المتعمد هو ما فعله مع ما نقله عن كتاب " طوالع البعثة المحمدية " " للعقاد " في توثيقه لشرط " توحيد الأرباب " في أنــه كمقدمــة لازمــة لـ " توحيد القبائل "في دولة ، ولشرط أن يكون منشئ الدولة المرتقبة نبيا مثل داوود " عليه السلام .

وكل هذه الوقائع وهي قليلة جداً من كثير جداً تؤكد تدخل « القمني » في نصوصه ما جعله يجبرها " بالتحريف والتزوير " على تمكينه (كماركسي - مادي) من تخييل عبد المطلب ليس فقط كقائد للحزب الهاشمي في صراعه الأسطوري مع الحزب الأموي ، إنما أيضاً والأهم لتخييله " كمؤسس للدين (الحنيفية - الإسلام) ، وكل هذا لحصر دور حفيده " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " في دائرة التنفيذ . هنا نود لفت نظر القارئ إلى سكوت « القمني » عن تناول ، أو حتى الإشارة إلى المساحة الزمنية الفاصلة بين انتهاء التخطيط لمثلث (الدين - الرسول - الدولة) في حياة الجد عبد المطلب ، وبين بداية التنفيذ بإعلان" الحفيد " محمد نبوته .

فالمعروف أن عبد المطلب مات ، ومحمد - ﷺ - في الثامنة من عمره ، ومحمد أعلن نبوته في سن الأربعين أي ، أن المساحة الزمنية الفاصلة بين التخطيط والتنفيذ تزيد على الثلاثين سنة ، وطول هذه الفترة يستنفر في عقولنا السؤال الطبيعي عن مدى فاعلية أداء " الحزب الهاشمي " أثناءها ؟ .

وهل تلقف راية " الحزب الهاشمي " أحد أبناء عبد المطلب لاستكمال الكيان التنظيمي ، والايديولوجي؟ ، أم أن عبد المطلب استكمل كل شئ ؟ .

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون . ج١ ص٧٣ . علي برهان الدين الحلبي . بيروت : دار المعرفة ط ١ .

وهذا كان يوجب على « القمني » أن يشغل عقله بالسؤال عن الموانع التي منعت عبد المطلب من تنفيذ ما خطط له ؟ أو بالسؤال عن أسباب زهد أبناء عبد المطلب في نيل شرف تنفيذ خطة " الحزب الهاشمي " ؟ .

- وهل مرور هذه الفترة الطويلة جداً كان نتيجة فراغ قيادي ؟.
- أم كان نتيجة تمرد أبناء عبد المطلب على دينه الذي أسسه ؟.
- أم أنه حسب الخطة المرسومة ، والمدروسة ، والمنظمة كان كموناً تكتيكياً معلوماً ، ومتفق عليه بين قيادة وقاعدة الحزب الهاشمي إلى حين تهيئة الحفيد " محمد " لـ " الداودية (النبي – الملك) ؟!.

ونستطيع القول ، أن هذا هو ما حاول « القمني » طرحه ليس كفرض ، وإنما كحقيقة موثقة .

فالثابت في دراسات القمني أنه كما اعتمد الجد " عبد المطلب " على التجربة الإسرائيلية (العرقية ـ الدينية ـ السياسية) في تأسيسه للدين وللدولة ، وفي ترويجه لنبوة حفيده ، فالحفيد ـ محمد ـ في تنفيذه لـ " خطة " جده نخفف من العبء الأخلاقي .

فأولاً ، ولتحقيق الأمان تزوج " الأرملة الثرية " خديجة بنت خويلد بعد خداع والدها ، وتغييبه عن الوعي بالخمر لانتزاع موافقته التي تنكر لها بمجرد استيقاظه ، ووصل الأمر بالأب إلى حد التظاهر ضد هذا الزواج في شوارع مكة ، ولتأكيد الخداع أشار « القمني » وبكل ثقة إلى نقله هذه المعلومة عن ابن كثير ، وبالرجوع إلى ابن كثير ـ مرجع القمني ـ وجدناها بنصها في كتاب (البداية والنهاية) .

ولكن وجدنا أيضًا ، وأخفاه " القمني بقصد " أنها رواية ضمن روايات جمعها ابن كثير ليرجح رواية أخيرة هذا نصها:

" قال المؤمّلي : المجتمع عليه أن عم خديجة عمر بن أسد " وليس والدها " هو الذي زوجها محمد - ﷺ - [١] .

وهذا في رأي ابن كثير - رحمه الله - الذي رجحه السهيلي ، وحكاه ابن عباس وعائشة ﷺ ، وقالت : وكان خويلد مات قبل حرب الفجار ، أي قبل زواج محمد من خديجة بخمس سنوات .

وثانيًا ، والمهم عند القمني أنه بعد تحقيق الأمان المالي بدأ الحفيد - محمد - يتابع خطوات جده لتحقيق النبوة بالوحي . وهي خطوة قادته إلى سرقة أشعار أمية بن الصلت ، وادعاء أنه وحي الله إليه ، وبقصد وبدون الشعور بالخجل ، وليوهم القمني بأن ما قاله عن " المصدر الشعري الجاهلي " للقرآن ليس رأيًا تفرد به ؛ فقد أكد أن ما قاله كان نقلاً عن عالم مشهود له بالموضوعية ، والدقة هو د. جواد علي .

وبالرجوع إلى موسوعة د/ جواد علي . اكتشفنا أن القمني كدأبه قام بعملية تحريف وتزوير لأقوال د/ جواد علي ليجبره على أن يقول بما ختم به القمني دراساته واتهامه للنبوة والإسلام [٢] .

هذا هو الفكر العلمي الجاد - كما يقول العلمانيين ، ومن حذا حذوهم - لمثل هذا الباحث الماركسي ! تحريف ، وتزوير ، واستخفاف بعقول القراء ، ورؤية

---

(١) البداية والنهاية . ج٢ ص٢٩٩ . عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . تحقيق د/ أحمد أبو ملحم . ود/ علي نجيب عطوى . والأستاذ / علي عبد الستار . والأستاذ / فؤاد السيد .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . (جـ ٦ من ص٤٩٠ حتى ص ٤٩٨) . د/ جواد علي . طبعة بيروت .

سـاذجـة ، تكشـف يـأس هؤلاء أمـام الإسـلام ، ولايمكن ان توضـع تحت مـسـمى البحث العلمي ، أو الفكر ، ولا حتى القصص الخيالي [١] .

---

(١) الموضـوع مـأخـوذ عن أ / منصـور ابو شـافعي .من مقـال على إسـلام أون لاين ٩-١٠-٢٠٠٤ ، الشـبكة الليبرالية الكويتية . ٦-٥-٢٠٠٥م . بتصرف ، مع توثيق الروايات بالرجوع للمصادر .
ويمكن الرجوع للتفاصيل إلى : كتاب . مركسة الإسلام صدر ١٩٩٩م ، وكتاب مركسة التاريخ النبوي صدر ٢٠٠٠م .

المبحث السادس
الهزل وغيبة العدالــة في تناول الإســلام

ولابد أن يعي المسلمون هنا معنى اشتراط عدالة العلماء في الإسلام ، والتي هي مقدَّمة على أي أمر .

فهي عدالة جامعة لاتقف عند اجتناب المعاصي ، وإنما هي أولاً عدالة "الرأي" ، وأمانة الفكر قال تعالى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[الإسراء : ٣٦] .

فشرط العدالة يطلبه الإسلام في العلماء . وهو أمر ثابت نقلاً وعقلاً .

لذلك تزداد الدهشة عندما نرى في حياتنا الفكرية الراهنة بعضًا آخر من تلامذة التنوير الغربي ـ العلماني الذين يقدمون أنفسهم للقراء على أنهم مجتهدون في الإسلام " مجدّدون " في فكره مع افتقارهم وافتقادهم للحدود الدنيا من دراية العلم وعدالة العلماء ... ، بل ومع اتصافهم بقدر من سوء النية في عرض حقائق الإسلام ومذاهب فكره ، فمثل هؤلاء كمن ينزع من الأمة الإسلامية سلاحها في مواجهة أعدائها ، وهي في حالة حرب ، ثم نجدهم يصرّون على أنهم يتحدثون باسم الإسلام فهم مسلمون ، ويدافعون عن الإسلام ضد التخلف والرجعية ـ كما يزعمون ـ .

ولننظر على سبيل المثال لبعض رموز هؤلاء التنويريين العلمانيين أمثال :

أولاً : حسين أحمد أمين :

وحسين أحمد أمين في كتابه ـ حول تطبيق الشريعة ـ الاجتهاد في الإسلام؛ حق أم واجب ؟ .

يخلص إلى أن الماضي الإسلامي الذي كان يعتز به وبأبطاله جميع المسلمين هو

إلى حد كبير من نسيج خيالاتنا نحن وخيال مؤرخينا ، ولم يكتف بذلك ، بل يختلق الأحاديث زوراً وبهتاناً ، ودونما أي إحساس بالخطأ ، وهو يطلب لجنة لتطوير الدين والعقائد ، وإعادة النظر في الفرائض والعبادات ... إلى غير ذلك من الأمور التي تخرج عن أبسط السمات العلمية والعقلية .

ونجد أمثال هؤلاء التنويريين يضعون زوراً وتدليساً رفاعة الطهطاوي ، وجمال الدين الأفغاني ، والإمام محمد عبده وسط روادهم كسلامة موسى ، وعلي عبد الرازق ، ويخلطونهم زوراً وبهتاناً بفرح أنطون ، وإسماعيل أدهم ، وغيرهم .

ولايتخيل هؤلاء نجاحهم في عمليات التزوير والخلط كتزويرهم على "الإمام محمد عبده" ، وكتابه" الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" ، والذي كان عبارة عن مقالات يرد بها على " فرح أنطون " ، ثم جمعها الشيخ " محمد رشيد رضا " ، وطبعها في كتاب بعد موافقة الإمام عليها ، وقد غيروا عنوان الكتاب بحذف " كلمة النصرانية " ، وحذف أكثر من ثلاثين صفحة في رده على المسيحية على " فرح أنطون " ، وبدلوا أكثر من ذلك ؛ فحذفوا ما كتبه الإمام عن أصول النصرانية ، ولم يقفوا عند الحذف بل أدخلوا في الكتاب ماليس منه [1] ؛ ولذا فنحن مدعوون إلى الانتباه لهذا الخلط ، وهذا التزوير وفضحه ، كما يجب أن يحذر الباحثون الإسلاميون من الوقوع في هذه الأخطاء ، وعلى سبيل المثال ما وقع فيه " عبد الله المالكي " [2] ، وهو يتحدث عن التجديد ، وعن الممارسة المنحرفة لمصطلح التجديد عند البعض ، وإذا به يقول : " يعتبر الشيخ محمد عبده هو المؤسس الفعلي للاتجاه ـ التبريري ـ أي التأويل في النص لتبرير الواقع ، والذي سمي فيما بعد بالاتجاه العصراني أو التنويري . وقد تأثر به جماعة من الدعاة والمفكرين الإسلاميين كالشيخ محمد الغزالي ، ويوسف

---

(١) الإسلام بين التنوير والتزوير . ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

(٢) مقالة من شبكة الإنترنت . ٧- ٢٠٦ م . عبد الله المالكي .

القرضاوي ، وسليم العوا ، وفهمي هويدي . وهو ما وقع فيه أيضًا " بسطامي محمد سعيد " عندما خلط بين العصرانية الغربية ، وبين التجديد في الإسلام ، ونجده يتحامل على الإمام محمد عبده ، ويضعه مع هؤلاء العصرانيين (١) ، وما وقع بعض مثقفي وعلماء المسلمين في هذا إلا من عدم التصدي بالقدر الكافي من العلماء الأثبات لأمثال هؤلاء المدلسين على الإسلام والمسلمين ، وفضحهم بين عامة وخاصة المسلمين ، وبيان ضعف دعوتهم .

ثانياً : محمد أركــون :

ومحمد أركون يُذكّر قارئه دائماً بأنه مفكر إسلامي ، ينطلق من داخل فضاء الفكر الإسلامي ، وبالتالي فلا ثمة شبهة تحوم من حوله كما تحوم الشبهات عادةً حول المستشرقين ! .

وللتشكيك في القرآن يستخدم محمد أركون بعض المناهج التاريخية واللغوية، وفي حين أفاد أحد المستشرقين عبر دراسة تاريخية ناقدة رافقتها اليقظة العقلية والضميرية معاً أن الحديث الضعيف في الإسلام يعتبر من حيث منهج التحقيق التاريخي أصح نصاً من كامل نصوص التوراة والإنجيل المستخدمة اليوم ، فإن محمد أركون يحاول أن يعكس هذه النتيجة .

ويستخدم محمد أركون ، مايعرف بـ " المنهج المعرفي التفكيكي " الذي ارسى دعائمه تقليداً ، بقصد التعامل مع الموروث الإسلامي، والفكر والعقل الإسلاميين ، بشكل تفكيكي تقويضي ، يهدف إلى تاسيس عقل استطلاعي منبثق حديثًا ، ينتهي إلى زعزعة المنظومة المعرفية التوحيدية ، والتي برزت في صورة اجتهادات في شتى حقول المعرفة (كلامية ، أصولية ، فقهية...) .

---

(١) مفهوم تجديد الدين . ص ١٩ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط١ ١٩٨٤ م .

ويرى محمد اركون أن القرآن والكتب السابقة تعاني من سياق واحد ، ويضع القرآن مع الأناجيل في مستوى واحد من الثبوت والدراسة ، ويرى أهمية النقد والتجديد . وعمله هذا النقدي السلبي النافي ـ الذي يمسخ كل الحقائق وكل المعاني ـ لا يمكن بحال أن يكون مذهباً فكرياً بديلاً ؛ فالشك والجحود بكل شيء لن يكون أبداً بديلاً للإيمان ، إذ هذا العدم لا يكون ديناً ولا يبني خلقاً .

ويسعى « أركون » من خلال مشروعه المعرفي التفكيكي ، إلى بناء نمط معرفي جديد ـ فيما يعتقد ـ ، يتجاوز المرجعية الإسلامية التاريخية ، والمتمثلة في القرآن ، وذلك بادعاء بشريته ـ أي القرآن ـ ؛ إذ هو يميز في القرآن بين ما يسميه : " **الخطاب النبوي ، وبين الكلام الإلهي** " ، وهذا الأخير ـ حسب ما يرى ـ تكلم به الإله في الأزل ، ولا يقدر أي خطاب بشري على احتوائه ، وبالتالي يترجم النبي الموحى إليه المعاني المستقرة في نفسه ، بخطاب إنساني متلبس بمقتضيات الزمان الذي قيل فيه الخطاب ، ومن هنا لا يمكن رفع القرآن إلى مستوى الكلام الإلهي ، لأنه مجرد خطاب نبوي ، تلفظ به النبي محمد ﷺ بما يتوافق ومستواه اللغوي ، ومقدرته البيانية ، وإذن فالقرآن ليس إلهي المصدر في لغته ، ولا في أحكامه ، إذ أن هذه الأخيرة لا ترتفع عن كونها وعيًا بشريًا إنسانيًا ، استوعبه النبي محمد ﷺ بما يناسب ويوافق المرحلة التاريخية التي وُجِدَ فيها ، ومن هنا لا جدوى من القول بأزلية الشريعة ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

ثم يدّعي « اركون » بعد ذلك أنه يعده إلهيًا ؟! .

ويرى « أركون » أن النسخة المدونة الموجودة بين أيدينا اليوم ما هي إلا صورة مؤقتة نسبية مغلقة للمعنى الإلهي الأزلي المطلق ، أو ما فوق المطلق، المُستوعب لامتدادات التاريخ وتقلبات الأيام ، زيادة إلى أن القرآن الحالي نسخة قديمة فرضتها فئة من الصحابة على جميع المسلمين في جميع التاريخ ، مع أن هناك

مصاحف أخرى ونماذج أخرى للقرآن تم الاستغناء عنها ، بدعوى الإقصاء السياسي الذي أحدثته قريش لبقية القبائل واستئثارها بالخلافة ، في مقابل القبائل الأخرى ، بإبعاد لغاتها وقراءاتها ، وتبني لغة قريش على أنها لغة الله .

واللغة المشار إليها ، تُعقَّد باستمرار عمليات التحليل والتفكيك ، لاتصالها بسياق دلالي ولغوي تاريخي مضى وانقضى ، والتعامل مع القرآن في إطار تلك اللغة يستدعي تجاوبًا تقديسيًا ، يعمي العقل ويغشيه بحكم الهالة التعظيمية التي يحاط بها الخطاب النبوي ـ القرآن ـ ، وهذا ما أعجز العلماء بالإسلام عن تكوين نظرية قرآنية ، تمكن من دراسة القرآن وتبين معانيه ، عكس الوارد عند علماء اللاهوت في فكر الآخر ، يهوديه ومسيحيه ؛ لذا لا مندوحة من تخليص أساليب تناول الخطاب النبوي من هيمنة اللغة العتيقة ، ومن سيطرة تناول علماء اللاهوت والأصوليين الإسلاميين ، وإحلال الإسلوب الحديث في تناول القرآن ، والاستفادة من تطورات العلوم الحديثة ، التي يجب إقحامها عنوة – بالمعنى المعرفي – للتمكن من تفكيك الخطاب القرآني النبوي ؛ لإدراك التلاعبات الحاصلة داخله ، من زحزحة بعض الفئات المُخَاطبة ، والتركيز على أخرى .

وهذا كله ينتهي بالطبع إلى هدر السياق الإلهي للقرآن الكريم ، من حيث المصدر الإلهي .

ومتكأه في ذلك المجهود الذي قامت به المعتزلة قديمًا ، وهذا كذب وجهل ، وخلط للحقائق ، فلا مقارنة ولا تشابه بين التقسيم المعتزلي للخطاب الإلهي ونعته بالمخلوق ـ أي خلق القرآن ـ ، وبين التناول الأركوني وقصده الإهداري التمييعي ـ ، زيادة إلى إسقاط الجدوى المعرفية لجهود علماء اللغة والأصول والكلام المسلمين ، وتفضيل مقابلهم الغربي عليهم ، وهذا إظهار للولاء المفضوح لفكر الآخر والذوبان فيه ـ ، والقصد من ذلك تجريد القرآن والفكر الإسلامي ،

من أرضية منهجية ومعرفية متينة ، تم تطويرها عبر قرون طويلة ، انتهت إلى صياغة منهجيات معرفية متعاضدة ، يقوي بعضها البعض الآخر ؛ ليخلو المجال للانقضاض على القرآن والإجهاز عليه [١] .

ومع تشكيك أركون في صحة ورود المصحف ، فهو يورد تشكيكاً آخر في صحة الوحي نفسه .

إن محمد أركون يريد أن يفهم الوحي كما يقول : " بصفته ظاهرة لغوية وثقافية قبل أن يكون عبارة عن تركيبات ثيولوجية أو لاهوتية " ، ومعنى ذلك أنه يريد أن يفهم الوحي باعتباره ظاهرة لا دينية،أو لا تتعلق بالتعاليم الدينية ، وإنما ظاهرة حياتية هامة يدرسها ويقرر فيها علم اللغة أو علم الاجتماع ، ويحاول أن يفهم وظائفها .

يتضح من ذلك : أن هدف محمد أركون تأسس على هدر الطابع الإلهي للقرآن ، والتأكيد على بشريته ، تمهيداً لنكرانه والإلحاد فيه ، زيادة إلى التزهيد في المقدرة المعرفية للقرآن في توليد الوعي ، وصناعة الفكر وبناء العقل ، ثم العمل على ربط " الوحدات النصية " ، " هكذا يسميها " ، الآيات القرآنية بلازمات زمانية ، وربما ظرفية مكانية ، في مضمونها وملفوظها ، وهذا أيضًا لإسقاط الطابع المتجاوز للأحكام ، كمدخل لرفض الشريعة ، وتعويضها بالاجتهاد الوضعي .

(أ) تجاوز الشريعة عند « أركون » :

ونجد محمد أركون يتخطى كل ذلك ويتخطى الشريعة الإسلامية في مقرراتها

---

(١) تم الاستفادة هنا من مقال " الاستراتيجية الأيديولوجية لمنهج محمد أركون المعرفي " الحاج / دواق بن جمعة آل بوعالية :- موقع الشهاب . ومقال " أركون وعلمنة الإسلام " لـ د/ محمد وقيع الله . شبكة الإنترنت .

الحاسمة ، ومع ذلك ينصب من نفسه مفكراً " إسلامياً " أو " المفكر الإسلامي الأوحد " ! .

إن محمد أركون ـ ابتداءً ـ يرفض " أن نطلق تلك الخطابات التبجيلية من أجل حماية قانون ذي أصل إلهي ، وبالتالي الزعم بأنه لا يتغير ولا يتبدل " ، أو الاعتقاد بأنه يتفوق على كل القوانين التي بلورها البشر في أماكن ومجتمعات أخرى .

ومن هذا المنظور يتحدث أركون باستخفاف عن الآيات التي تتحدث عن تعدد الزوجات ، والطلاق ، والإرث ، وتفوق الرجال على النساء ، والحجاب ، والنسب . وفي اعتباره أن هذه الموضوعات حسمتها الحضارة الحديثة ، وأنه من : " التافه أيضاً أن ننخرط في مناقشات طويلة حول هذه الأمور " .

هذا على مستوى فقه الأسرة والعلاقات الشخصية ، والمقصود النهائي من وراء هذه العبارات نسف فقه الأسرة بأكمله .

أضف إلى ذلك الإكبار المبالغ فيه لمناهج الغرب المعرفية ، التي أبدعتها عقول متأسسة على وعي آخر ، وإدراجها في تناول القرآن بكيفيات غير صالحة ، لكون منبتها ، خطابات إنسانية أدبية وعلمية وفنية ، ولمغايرتها للطابع الإلهي للبيان القرآني ، إضافة إلى الزهد في مبدَعَات العقل الإسلامي ، والإصرار على ضحالتها وضعفها ، وهكذا...

والمطلوب من المفكر ، والمثقف ، والمتعلم ، والعالم المسلم ، العمل نظريًا على تفويت الفرصة معرفيًا على أمثال هؤلاء ، والإلحاح على إعجاز القرآن واستعصاءه على المناهج الحديثة للفكر الغربي ، وأن في الفكر وعلم الأصول الإسلاميين ، ما يغني ثقافة الأمة ويثريها ويحررها ، وإن كان من الضروري الاستفادة من فكر الآخر ، لا مفر من عرض ذلك على مناهج الفكر الإسلامي المعرفية والأصولية ،

حتى تتم عملية الغربلة والتنقية من المضامين المباينة للطابع التوحيدي للرؤية الوجودية الكونية الإسلامية ، حتى ينتفع بها .

(ب) التجديد عند « أركــون » :

يوهمنا أو يدعي محمد أركون - كعادته - في كثير من كتبه أنّه في ردّه على مفردات الفكر الإسلامي لا يسفّه مرتكزات الشريعة الإسلامية ، بل يعمل جاهداً على تصحيح الفهم الإسلامي دون أن ينقد مصادر التشريع .

إلا أن « أركون » يخرج من سياق البحث إلى سياق الرّد على مرتكزات التشريع الإسلامي وكثير من البدهيّات والمسلمّات التي لها أصولها الضاربة في عمق الشرع الإسلامي .

إن « أركون » يدعو إلى " تجديد الفكر العربي والإسلامي " ، ولكن دون تقديم البديل المتكامل ، فما جدوى النسف دون تقديم البديل الذي ننطلق منه لبناء النهضة ؟ .

إن تجديدية « أركون » هي في الحقيقة تجديدية عدمية ، ولا نحسب أن مسلماً عاقلاً يهتم لقراءة أركون النافية .

ويرى الدكتور " محمد أركون" أنّ علماء الاجتهاد في الإسلام قد جنوا على الاجتهاد عندما فرضوا مجموعة من الشروط والمقاييس لا يصّح الاجتهاد بدونها.

وفي ذلك يقول : " .. نقصد بذلك مؤسسّي المذاهب الكبرى اللاهوتية القانونيّة الذين ثبتوا للقرون التالية المدونات القانونيّة والعقائد الإيمانيّة الارثوذكسيّة ، وعلم أصول الفقه أي المعياريّة الضروريّة من أجل استنباط الأحكام بشكل صحيح من النصوص المقدسّة القرآن والسُّنّة ، وهكذا نجد أمامنا

في بضع كلمات فقط كل شروط ومحدوديّة ممارسة الاجتهاد في الفكر الإسلامي الكلاسيكي" [(١)] .

ومن الواضح أن " محمد أركون " غير مطلع على آليّة الاجتهاد في المدارس الإسلامية كافة ، فالاجتهاد الذي يعني بذل الجهد لاستنباط الحكم الشرعي لا يعني مطلقاً مجموعة من الشروط يضعها الفقهاء ومن يجتهدون لتفعيل الشرع ، وجعله مواكبًا لصيرورة حركة التاريخ والواقع ، وليس الاجتهاد شروطاً يضعها ويتوصّل إليها عقل المجتهد .

وفي سياق رده على الإمام محمد عبده ، ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد ، فإنّ محمد أركون يتهم الشيخ محمد عبده بأنّ مفهومه لفتح باب الاجتهاد ، هو عبارة عن شرعنة البدعة التي كانت فيما مضى غير محسوبة على التراث الإسلامي ، ويحاول «أركون» أن يقوّل «محمد عبده» ما لم يقله ، وربّما ضعفه في اللغة العربية جعله يسيء فهم بعض المفكرين المسلمين .

(جـ) نسف أركون لمبدأ الإجماع :

تتفق المدارس الإسلامية على أنّ الإجماع يشكّل مصدراً من مصادر التشريع ، ومنذ خمسة عشر قرناً ، والمسلمون يلجؤن إلى الإجماع ، إمّا لسدّ الفراغ في دائرة الفتوى ، وإما لجعل الشريعة الإسلامية تتواصل مع الحاضر ومستجداته الكثيرة .

أمّا الدكتور محمد أركون فله رأيه في الإجماع ، فهو يقول :

"يعرَف الإجماع عموماً من قبل المسلمين الذين يمشي على آثارهم

---

(١) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي . ص ١١ . محمد اركون . ترجمة وتحقيق/هاشم صالح .دار الساقي للطباعة والنشر١ / ١٩٩٣ م.

المستشرقون بأنّه أحد أصول القانون الديني ، فإجماع المسلمين على مسألة من مسائل العقيدة والقانون يؤدّي في آنٍ واحد إلى ضرورة الانصياع له ، كما أنّه يشكّل علامة من علامات الأرثوذكسيّة التي ترسّخ وحدة الأمة،وتراص صفوفها، ولكن السؤال المطروح : إجماع من ؟ وما هو عددهم" ؟ (١) .

ومن خلال إسقاطات عدّة، من قبيل الحديث عن عدم التجانس بين المسلمين ، والخلافات الضاربة بينهم ، وهشاشة مجتمعاتهم . . يخلص « أركون » إلى استحالة الإجماع .

ويعكس فهم وتعريف « أركون » " للإجماع " بأنّه يفتقد إلى فهم كلي للشريعة الإسلامية ومصطلحاتها ، " فالإجماع " لا يعني توافق المسلمين رغم ما فيهم من ضعف ، بل هو توافق أهل العلم المشهود لهم بالعلم والتقوى أيضاً .

ويمكن القول من خلال تتبّع إنتاج محمد أركون ، أنّه يعتبر أنّ النصوص القرآنية متناقضة ، وبالتالي هو يراها ــ أي أركون ــ لا تصلح أن تكون مصدراً للتشريع الإسلامي ، وقد تكون كذلك عندما يتيسّر لنا تفسير جديد لها ، يأخذ بعين الاعتبار المرجعية النقدية ، والمعرفية المعاصرة الغربية طبعاً .

ويعتبر « أركون » أنّ السُّنّة النبوية هي الأخرى ليست أفضل حالاً من القرآن الكريم ، وأن وضع المجتمعات الإسلامية في الماضي والحاضر دليل على أنّ السُّنّة شكلت انعكاساً للتخلف والتقهقر اللذين سادا المجتمعات الإسلامية ، والإجماع لا يمكن تحقيقه والعقل الإسلامي في عطلة إلى إشعار آخر ، إذن ــ وحسب رأي أركون ــ فمصادر التشريع الإسلامي في حاجة إلى إعادة سبك وصياغة وقولبة ؛ ولذلك فهو يدعو مليار وربع المليار مسلم إلى الثورة على ما يظنّه

---

(١) من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي . ص٧٧ .محمد اركون . ترجمة وتحقيق/هاشم صالح.دار الساقي للطباعة والنشر ١ / ١٩٩٣ م .

صحيحاً وسليماً . لكن وبعد الثورة على مرتكزات التشريع الإسلامي ماذا عسانا نفعل؟! .

إلى هنا ينتهي دور محمد أركون ، لتبدأ الحضارة الغربية ، وأركون أحد المدرسين في قلعة من قلاعها "السوربون" ببّث فيضها إلى العالم العربي والإسلامي . إنها مغالطة كبرى (١) .

وبعد هذا العرض يتضح لنا بجلاء أننا أمام مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث .

ثالثاً : مشروعان للإحياء والنهضة والتحديث:

والحقيقة أننا إزاء مشروعين للإحياء والنهضة والتحديث :

[أ] مشروع التجديد الإسلامي ..للنهضة والإصلاح والإحياء بالإسلام كمرجعية تفجر في الأمة كل الطاقات الإبداعية في كل الميادين .. وله أعلامه الذين مثلوا منارته الحديثة مروراً من الطهطاوي ، وحتى تاريخنا هذا .

[ب] مشروع التنوير ـ الغربي ـ العلماني الذي جاءنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. فانبهر من انبهر من مفكرينا ومثقفينا ـ كاجتهاد خاطيء ـ تم العدول عنه في مرحلة النضج ، أو كعمالة حضارية من الكارهين لبديله المتمثل في الإسلام .

فهما مشروعان للتحديث والإحياء والتقدم، وليس مشروعًا واحدًا للتنوير ، كما زعم ، ويزعم الذين خلطوا الأوراق عمداً ؛ فحشروا " التجديد الإسلامي " مع " التنوير الغربي العلماني " .

---

(١) تم الاستفادة هنا من " مقال محمد اركون في ميزان النقد " لـ .يحي ابو زكريا . مجلة المجتمع . شبكة الإنترنت .

• والحقيقة أننا لانخشى مطلقًا من المشروع الثاني - التنوير - الغربي - العلماني - فمصيره الفشل لامحالة ، فهؤلاء يلقون بذورًا لا يمكن أن تنبت في أرض المسلمين ، فهذه البذور ليست في مكانها ، وليست في بيئتها ، وأقصى مايفعله هؤلاء هو إفساد ذوق وسلوك البعض ، والعبث بأفكار البعض ، وحتى ذلك فهو لفترة ثم ينكشف ، ويستحيل أن تختلط بشريعة الإسلام الربانية النسيج .

ولكن يبقى دور المشروع الأول - التجديد الإسلامي - فيجب ألا يتجمد أو يتوقف بل لابد من رعايته باستمرار لأننا نلقي البذور في أرضها وفي بيئتها ، فلابد أن تنمو وتثمر بقدر رعايتنا لها .

ففارق كبير بين الثورة على الدين وإسقاط الوحي ، وهو أقل ما يمكن أن يوصف به تجديد هؤلاء الشرذمة من العلمانيين التنويريين ، وبين سُنَّة من سنن الدين الإسلامي ، وهي تجديد دين الأمة الإسلامية على مر العصور ، وفي جميع البيئات .

قال رسول الله - ﷺ - : " **يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها** " رواه أبو داوود .

وهذا القصور العقلي والمعرفي الذي يقود هؤلاء ، وهذا الوهم التاريخي والتزوير المتعمد ، والذي لاعلاقة له بالعلم ولا بالتاريخ ، وسلسلة الكذب المتواصلة للقمني ولأمثاله ، ونسجه للخيال الذي لايقبله عقل ، والذي يستحق معه أن يكون موضوعًا للسخرية بين شباب المسلمين لو كانوا على بينة بتاريخهم الإسلامي .

ونحن كمسلمين نعلم مثل هذا العداء والرفض للإسلام والقرآن والرسول ﷺ ،

والتاريخ حافل بأمثال هؤلاء وغيرهم ، ولم يكونوا الأول ، ولن يكونوا الآخر، وكل مايقدمونه من طرح هو ضئيل جداً إذا قورنوا بمن سبقوهم ، وقد واجه المسلمون والإسلام منذ بداية انتشاره ، ثم تصادمه بالفلسفات اليونانية ، والدعوي في الشرق والغرب ما هو أشد وأنكى منها ، وعندما تحرك العلماء المسلمون لمواجهتها ذابت وتلاشت أمام قوة الإسلام ومنطقه وتحولت الفلسفة ـ لأول مرة في تاريخ البشرية ـ لخدمة الدين والتصدي لأعدائه .

وظل الإسلام على مدار التاريخ مُعجز ومسيطر عليها جميعًا ، وهذا ثابت تاريخيًا .

والفائدة الحقيقية هنا لاتتاتى فقط من متابعة كتاب ومفكري المسلمين لكشف هذا التزوير وهذا الكذب وهذا التخبط الفكري ـ والإسلام كفيلٌ بأن يفرز من يخرس هؤلاء ـ ، بل يجب علينا أن نتفهم طبيعة العصر الذي نعيشه ، وقد أصبحت المعرفة والثقافات المختلفة تقتحم العقول والبيوت وكل التجمعات ، لذا يجب علينا :

(أ) نشر هذا الكذب ، وفضح شخوصه ، وتعريتهم من عباءة العلم التي يتدثرون بها ، وإظهار حقيقتهم ، والتي تتنافى وأبسط قواعد البحث العلمي ـ الصدق، والأمانة ، والنزاهة ،والحيدة ـ في نقل الخبر ، ولا أقل هنا من تخصيص قناة تلفزيونية ، أوتخصيص برامج في قنوات الدول الإسلامية ، وغير ذلك كلما أمكن ؛ تقوم على متابعة ونشر ما يكتبه الباحثون والعلماء المسلمون حول هؤلاء لتحقيق غرضين رئيسيين هما .

[١] نشر الوعي، وتثقيف المجتمع المسلم بما يناسب طبيعة هذا العصر الثقافية والإعلامية .

[٢] تعرية هؤلاء الأشخاص في مجتمعات المسلمين ، وإظهار أكاذيبهم وشخصياتهم وأفكارهم الحقيقية ، لمحاصرة ما يروّجون له ، وما قد يحدث من خلل بين الشباب المسلم وعامة المسلمين .

(ب) العمل بالطرق القانونية المشروعة على استصدار قوانين تمنع أوتحد من الكذب والتزوير المتعمد على مصادر ومراجع المعارف الإنسانية ؛ لما لها من آثار ضارة على المجتمعات ؛ ولتعديها بالتزوير على المعارف والعلوم ، أو شئ من هذا القبيل يقوم به أصحاب الاختصاص ، إذا أمكن ذلك .

ومثل كل ذلك لايستطيع القيام به الأفراد أو الجمعيات ، وهويحتاج ولا شك تدخل الدول الإسلامية بإمكانياتها ، وتدخل القادة المسلمين ، والحكومات الإسلامية ، وإقامة أشكال للتعاون فيما بينها بما يخدم هذا الغرض ، وهذا ولاشك يدخل في إطار تجديد دين الأمة الإسلامية ، بل ويعد من الأمور الأكثر إلحاحًا في حياة الأمة الإسلامية في هذا العصر ، وفي هذه المرحلة من تجديد دين الأمة الإسلامية .



المبحث السابع
دعوى أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع

وللرد على دعوى البعض أن العصر الحديث قد تجاوز التشريع الإسلامي ، إلى غير ذلك من الدعاوى الباردة، والتي تريد القضاء على الإسلام من داخل عقول وقلوب المسلمين ، نقول :

إن المسلمين الذين شهدوا بعثة الرسول ـ ﷺ ـ ، وامتد بهم الأجل إلى نهاية الخلافة الراشدة قد تطوروا تطوراً سريعًا في سائر جوانب الحياة في العمران ، والصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والمعارف ، والفنون ، وأصول المعايش ، وعوائد الطعام والشراب والأواني ، وغير ذلك ، دون أن يحوجهم ذلك إلى تطوير شيء من دلالات النصوص الشرعية .

ثم ننظر إلى التطور الحضاري الذي حظي به المسلمون من صدر الإسلام إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، نجد أنهم ضربوا في ذلك رقمًا قياسيًا تجاوز القدر الذي تطورته أي أمة في كل الوجوه الحضارية ، كما يقرر سائر المؤرخين ، فهل أعوزهم ذلك التطور االسريع العجيب إلى أن يطوروا شيئًا من أحكام شريعتهم ، أو أن يبعثروا دلالات النصوص المحددة ؟! .

الذي نعرفه ان العكس هو الصحيح ، فالإسلام يطور أهله بمقدار ما يكون أهله أمناء علي ثوابته ، فإن هم تلاعبوا به تخلى عنهم ، وأسلمهم إلى فوضى تقلباتهم .

إن الإسلام يطور، بشرط ان لايتطور بأيدي الناس ، ونشير هنا إلى الأطروحة

التي دعا إليها " وليم كليفورد " مدير معهد علم الإجرام في إستراليا ، والذي كان موفداً من قبل هيئة الأمم المتحدة ومن دوائر استعمارية ورائها لحضور سلسلة مؤتمرات المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ، والمنبثقة عن جامعة الدول العربية ، والتي عقدت في أواخر السبعينات ، حضر " وليم كليفورد " سلسلة هذه المؤتمرات مراقبًا ، وكان قد طرح فيها مشروع يتضمن الدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في معالجة الجريمة بأنواعها ، وفي أعقاب ذلك رفع تقريراً مطولاً إلى جهات مسئولة بعينها ، يبدي كليفورد في هذا التقرير مخاوفه مما يسببه انبعاثًا إسلاميًا جديداً ، بات ينذر بتجاوز العالم العربي حدوده التقليدية للممارسة الإسلامية ؛ ليتحول إلى نوع من السعي الحثيث إلى استعادة تحقيق الذات ، وهو السبيل الأقرب إلى أن يستعيد قوته وطاقته الاجتماعية الكفيلة بضمان نجاحه الاجتماعي .

ويتلمس " كليفورد " خطر هذا الانبعاث الإسلامي في عاملين اثنين هما :

أولاً : التفكير الجاد على مستوى الجامعة العربية في الرجوع إلى الانضباط بينابيع التشريع الإسلامي ، ولاسيما في نظام الروادع والعقوبات .

ثانياً : القوى المادية الأولى التي يتمتع بها الشرق العربي متمثلة في النفط .

ثم يؤكد « كليفورد » أن هذا الانبعاث الإسلامي بالإضافة إلى هذه القوة المادية كفيل بقلب موازين الحضارة كلها ، والقضاء على ماتبقى للغرب من هيبة ونفوذ .

ويضع بعد ذلك اقتراحات متعددة من أهمها :

[١] العمل على امتلاك ينابيع البترول بطريقة ما .

[٢] اتخاذ السبل المتنوعة بتشجيع مبدأ الاجتهاد في الإسلام باعتباره الأداة الهامة التي بوسعها أن تضفي الصفة الإسلامية على ما تتطلب الحضارة الغربية ومصالح الغرب تنفيذه من النظم والاتجاهات والقوانين الحديثة في العالم عامة ، وفي الشرق الأوسط خاصة [١] .

ونشير هنا أيضا إلى محاولة أخرى من "كولسون" [٢] ، عندما يقول أنه يعتقد أن استبدال القياس بالاجتهاد في تجديد " الشافعي " كان سببًا من الأسباب التي أدت إلى إغلاق باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي ، وطبعه بطابع الجمود فيما بعد . وينصح لهذا في تطبيق التشريع الإسلامي – بوجوب فتح باب الاجتهاد على مصراعيه بمفهوم يماثل مفهومه قبل صياغة الشافعي – نظرية الأصولية – وفي رأيه أن هذا هو السبيل إلى تعبير التشريع عن الحياة الاجتماعية المعاصرة ، والمتأثرة بالنموذج الغربي ، بل نراه يرى " الإجماع " سببًا رئيسيًا من الأسباب المسؤولة عن جمود الفقه الإسلامي ، وتخلفه عن مجاراة الواقع .

وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : يريد « كولسون » هدم الكيان الأصولي الذي أقام عليه فقهاء المسلمين البناء الفقهي،ويرى في الأصول التي ذكرها الإمام الشافعي وأقرها التالون عليه السبب في جمود الفقه ، وعجزه عن متابعة الواقع في العصر الحديث ، والخطوة التي يزعمها ويتبناها لاستئناف تطبيق التشريع الإسلامي نابعةً من تصوره لما كان عليه الاجتهاد قبل الإمام الشافعي .

---

(١) الإسلام والعصر تحديات وآفاق . ص ٢٢٨ : ٢٣٠ . د/ محمد سعيد رمضان البوطي . د/ طيب تزيني . الكلام للدكتور/ البوطي . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر . ط ٢ . ٢٠٠٢ م .

(٢) في تاريخ التشريع الإسلامي . ن.ج كولسون . ترجمة د/ محمد أحمد السراج . مراجعة د/ حسن محمود عبد اللطيف الشافعي . وكولسن هو أحد أهم أكبر المستشرقين الإنجليز المعاصرين المعنيين بدراسة الفقه الإسلامي وتدريسه بجامعة لندن ، وتتلمذ على يد المستشرق المعروف " يوسف شاخت " .

والمغالطة التي وقع فيها " كولسون " ، أو تعمدها ، وسار وراءه بعض مدّعي التجديد ممن لاعلاقة لهم بالفقه ولامعرفة لهم بأصول الفقه ، بل بأبسط أحكام الدين الإسلامي ، والذي نريد التأكيد عليه أن فقهاء الصحابة ـ ﷺ ـ والتابعين كان يبذلون الجهد في الوصول إلى الحكم الشرعي من النصوص الشرعية ، وهذه النصوص قد تضمنت أحكام فروع فقهية عديدة في موضوعات كثيرة ، كما تضمنت هذه النصوص كثيراً من القواعد التي يمكن الابتناء عليها لمعرفة أحكام ما لا نص فيه من الفروع،ثم إنها ـ أي النصوص ـ تضمنت الإشارة إلى الخطة التي يجب على الفقيه الاعتداد بها للوصول إلى الأحكام الشرعية ، وتتمثل عبقرية الإمام الشافعي الحقيقية في اهتدائه إلى ما عبرت عنه النصوص من عناصر هذه الخطة ، وإعادة تركيبها في شكل منهج اصولي يعتمد عليه الفقيه في الكشف عن أحكام الفروع التي لا نص فيها .

فالتشريع الإسلامي بمعنى الأحكام التي سنّها الله لعباده ؛ ليكونوا مؤمنين عاملين على مايسعدهم في الدنيا والآخرة لم يكن إلا في حياة الرسول ـ ﷺ ـ ، ومنه فقط ، إذ لم يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لاحدٍ غير نبيه ﷺ سلطة التشريع، وكان يعتمد فيه على الوحي بقسميه : المتلو ، وهو " القرآن الكريم " ، وغير المتلو ، وهو " السُّنّة النبوية الشريفة " .

ففي حياته ـ ﷺ ـ وضُعَتْ القواعد الكلية ، وأُنشئت الاحكام، وبُيّن مجملها، وقُيّدَ مُطلقها ، وخُصّص عامّها ، ونُسخ ما شاء الله ان ينسخ ، ونص على ما شرع جزئيًا ليأخذ حكم الكلي ، وليمكن تطبيق ذلك الحكم على ما يحدث من قبيل هذا الجزئي في أي زمن ، وعلى اي حال .

وبالجملة فقد أُحكِمَتْ قواعد هذه الشريعة ، وأُقيمَتْ أُسُسُها ، وكَمُلَتْ

أصولها في زمن النبي - ﷺ - يشهد بذلك قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

والرد إلى الله هو الرجوع إلى كتابه ، والرد إلى الرسول - ﷺ - هو الرجوع إليه في حياته ، وإلى سُنَّته بعد مماته (١) .

فالأمر هنا ليس فيه ابتكار أو ابتداع لشيء غير موجود ، وما فعله الشافعي في كشفه أصول الفقه ، وما فصله العلماء بعد ذلك من القواعد الشرعية ، مثال ما فعله " الخليل بن أحمد الفراهيدي " لكشفه علم العروض ، وبحور الشعر العربي القديم ، وما فعله " سيبويه " في وضعه قواعد النحو العربي في كتابه المعروف باسم " الكتاب " . والآن تبدوا المسألة واضحة .

أما " كولسون " ومن يسير على نهجه وخطاه لاستبعاد أصول التشريع واجتهادات الفقهاء المسلمين ، واستبعاد العناصر المحققة لذاتية التشريع الإسلامي وشخصيته ، فيعني بكل بساطة ووضوح القضاء على استئناف تطبيق التشريع الإسلامي .

ومتابعة للرد على قول كافة العصرانيين - كذبًا - أن الشريعة الإسلامية لاتتناسب والعصر الحديث ، وما يردده البعض : من أن الشريعة الإسلامية لم تُطبق بعد عصر الخلفاء الراشدين ، نقول :

---

(١) تاريخ الفقه الإسلامي .ص ١٧، ٢٨ . محمد علي السايس. وقال بذلك جمهور العلماء . دار الفكر . ط ١ ، ١٩٩٩ م .

أولاً : بالنسبة للمقولة الأولى نجدهم يقولون : أن عصرنا الحاضر عصر متطور متقدم ، وشهد تحولات وتغيرات كثيرة ، " وتعاليم الدين في كل عصر ترتبط بظروفه وأحواله " ، مما يجعل بعضها لايناسب عصرنا الحاضر .

"وأن نظرة كل عصر إلى حقائق الدين نظرة نسبية ، بحسب المعارف المتاحة له " ، وما كنا نؤمن بأنه حق في عصر قد لا يكون حقًا في هذا العصر ، ومن هنا يأتي التساؤل .

ما الثابت في الدين الذي يناسب كل عصر ؟ وما المتغير الذي يتغير تبعًا لتغير المعرفة وتغير الأحوال ؟ .

ثم يتبع التساؤل : ما الإلهي في الدين ، وما البشري ؟ .

وهذه هي الفروض الخمسة هي التي تبنى عليها فكرة العصرانية ، وتشترك فيها كل الحركات والدعاوى العصرانية ، وما اتبعها من الحديث عن فكرة التطور الاجتماعي والثقافي في الغرب ، وولع الناس بهذه الفكرة وسيطرتها على الأذهان، وأن الدين يكون صحيحًا إذا استجاب لكل تغيير ، واستجاب للتطور وعليه كانت النظرة العصرانية للدين ، وكما أوضحنا فقد نشأت هذه الأفكار والمقولات مع اليهودية والمسيحية لأسباب أوضحناها سابقًا ولا حاجة لإعادتها .

لذلك يجب ألا ننخدع ، أو نخدع أنفسنا بالتطور العلمي الحديث ، وبما أنتجه العقل البشري ، ثم نخلطه بأن الإنسان قد تطور اجتماعيًا وعقليًا ، وللنظر مثلاً :

✿ ما كان من قبح أفعال قوم لوط - ﷺ - منذ آلاف السنين ، وهو مخالف للفطرة البشرية ، فنجده الآن منتشرًا في الشرق والغرب ، وفي أكثر المدنيات

العلمية الحديثة في " أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية " حيث نجد الملايين هناك يفعلون أفعال قوم لوط - ﷺ - ، بل ويفعلون ما هو أقبح بكثير ، وهو أمر معلن ، ويقبله المجتمع ، ويضعه تحت اسم الحرية .

فأين هذا التطور الاجتماعي المصاحب للتطور العلمي ؟!.

ونجد فرعون يفتر بتطور بلاده وتقدمه ، ويرفع الصرح حتى يرى إله موسى ، ويحاربه ، هذا منذ آلاف السنين .

وفي العصر الحديث وجدنا خروشوف" في روسيا " بعد إطلاق أول قمر صناعي في الفضاء يقول :

اطلعنا إلى الآفاق السماوية ، ولم نجد فيها وجوداً للإله ؟ ! فأين هذا التطور العقلي الذي صاحب هذا التطور العلمي الحديث ؟!.

والأمثلة كثيرة .. فيجب أن نعيد قراءة التاريخ ، ونكون منصفين لنرى أي تطور اجتماعي نتحدث عنه وحققه هذا الإنسان الحديث ، وكم أباد ، ومازال ، من البشر بهذا التطور ؟!

لذا وجب علينا جميعًا أن نفرق بوضوح بين التطور العلمي والتجربة العلمية التي تمثل التطور الحقيقي المادي للإنسان ، وبين الأمور الأخرى في الحياة الاجتماعية للإنسان ، والتي يقفز إليها العصرانيون ، - ومدّعوا التجديد - ثم يربطونها بالدراسة العلمية الدقيقة ، وبما أحدثه الغرب دونما علاقة بينهما .

وعلى سبيل المثال :

● الربا في الشعبة الاقتصادية ، وأوضاع المرأة في الشعبة الاجتماعية ... وأمثال ذلك ، لم تخضع لدراسة علمية دقيقة ، ولا نظر إليها البحث العلمي

المجرد ، بل هي أمور حياتية ، وعادات وتقاليد ، فلم يثبت العلم أن الاختلاط بين الرجل والمرأة أمرًا علميًا ، أو أنه ضروري في المختبرات والتجارب ، وغيرها من الأمور الإباحية،والتي تفسد الذوق السليم ، وتهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوانية.

فمن المستحيل عقلاً أن نقفز هكذا من التطور العلمي التجريبي لنهدم الدين والأخلاق ، ونُحِطّ من فضائل الإنسان ... !! .

ثم نقفز مرة أخرى لإطلاق عموميات ، ونقول بأن حقائق الدين مسألة نسبية يدركها كل عصر بحسب المعرفة المتاحة . هكذا بكل بساط... فأين العقل هنا ؟! ، وأين العلم هنا ؟!.

والمقصود هنا من كل تلك المحاولات القضاء على الدين ، وهي دعوة للتحريف في الدين الإسلامي ليناسب العصر ، وهكذا تحريف من عصر إلى عصر حتى يتلاشى الدين ! وكأنه شريعة من وضع البشر ... وهذا خلط مرفوض لايقبله عقل ، ولاينخدع به مسلم .

ونؤكد هنا على أن مصادر حقائق الدين ثلاثة أشياء :

[١] النصوص الموحاة . " القرآن والسُّنَّة " .

[٢] معاني هذه النصوص .

[٣] الاستنباط من هذه النصوص .

وهناك منهج علمي لتوثيق النصوص، ومنهج لطريقة فهمها، ومنهج للاستنباط منها ، وما يتوصل إليه عن طريق هذه المناهج حقائق لاشك في ذلك ، وأما ما يحدث من خطأ في الفهم أو الاستنباط ، أو تغيير في الظروف ، والأحوال في المجتمعات يؤدي إلى تغيير في الفهم أو الاستنباط ، أو ما يستجد من أمور،

فهذا شيء آخر ، وله أسلوب ومنهج للتعامل معه ، ويتولاه العلماء .

وبوضوح أكثر حول موضوع النهضة ، فإن أي طرح لموضوع النهضة دون وضع الظروف ، والشروط والهيكليات التي رتبتها السيطرة والهيمنة الإمبريالية ، والصهيونية من احتلال الأرض ،وغزو النفوس ، وتمزيق وحدة الأمة ، وبناء هياكل الدولة العلمانية القومية بمؤسساتها العسكرية، والتعليمية، والاقتصادية والاجتماعية ، إلى غيرذلك بما يخدم منظومة الحضارة الغربية ؛ ليبقوا هم الرحماء ... إن أي طرح لموضوع النهضة لايضع في منطقه الأول تحرير النفوس والأرض ، ما هو سوى حرث في البحر ، وهو كلمات وأماني تؤدي إلى ضياع الوقت ، وتفتيت الجهود ، وتخدير النفوس .

إن البعض مازال مصراً رغم كل البراهين القاطعة على عدم رؤية أن الدخول إلى نادي النهضة لايتعلق فقط بالجهود المبذولة ، بل أولاً ، وقبل كل شيء بقرار ما يسمى الدول المتقدمة. ولننظر إلى " إسرائيل " فإن عامل وجودها وبقائها الرئيسي ليس هو التطور والعلم ، بل قرار الدول الغربية ، وأمريكا بمساعدتها ، والأمر لايتعلق عادةً بالامكانيات الفنية والقدرات التقنية ، بل يتعلق بالكتل والانتماءات ، ومدى القدرة على التخلق بأخلاقيات الحضارة الغربية ، والقبول بقوانين لعبتها .

وإلا فما علاقة الموسيقى ، أو الكوكاكولا ، أو السماح بمظاهر الانحلال من خلال دعوى السياحة ، وغير ذلك ... ما علاقة ذلك بالتنمية والنهضة ؟!.

- لماذا يجب أن ندمر تقويمنا الهجري ، ونطبق تقويمهم ؟!.

- وما هي العلمية ، أو التقنية في القضاء على الحرف العربي وتحويل شعوب

إسلامية إلى الحرف اللاتيني ؟! .

❁ وما أهمية معركة الملابس والحجاب التي يثيرونها بالتقدم العلمي ؟! .

❁ ولماذا لا يعتبر حكم أحزاب مسيحية " ديمقراطية " ، أو " إشتركية " لبلدانها عودة إلى العصور الوسطى ؟ بينما تقوم الدنيا ولا تقعد إذا نجحت حركة اسلامية عن طريق ثورةشعبية ، أو عن طريق الاقتراع ؟

❁ ولماذا تبذل كل هذه الطاقات والأموال لمحاربة ما يسمى الأصولية الدينية ، ويقصد بها الإسلام ليس إلا ؟! ، في حين تقدم كل الأموال والمساعدات إلى أكثر الحكومات تعصبًا دينيًا وهي اسرائيل ؟ . . .إلى غير ذلك . . . .

إن كل ذلك هدفه إدخالنا في دائرتهم ، في قطبها الأسفل ، بشروطهم ، وبالطريقة التي يريدونها ، وقطعنا عن دائرتنا التاريخية والحضارية ، وقطعنا عن الإسلام ، وهذا هو الهدف الحقيقي لكل أشكال الصراع الحالي .

ولنسأل :

لماذ انهارت الجهود التي نبذلها ، ولماذا لايسمح لنا بالانعتاق من كوننا عالم ثالث ؟ ، رغم توفر الامكانيات العلمية والبشرية والمادية . . . . إلخ [١] .

يقول مراد هوفمان في كتابه (رحلة إلى مكة) :

(إن الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل ، حتى مع عبدة الشيطان ، ولكنه لا يظهر اي تسامح مع المسلمين . فكل شيئ مسموح إلا ان تكون مسلمًا) !!! .

---

(١) إشكالية الإسلام والحداثة . عادل عبد المهدي . دار الهادي . بيروت ط ١ . ٢٠٠١ م .

وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

فمهما قدّم المسلم من تنازلات لأعداء الإسلام مبتغيًا رضاهم أو التقرب منهم؛ فإن فعله هذا سيعود ذمًّا عليه، يُسخط الله ، ولا يُرضي الأعداء ! فيجمع السيئتين (١) .

وبالنسبة للمقولة الثانية : " أن الشريعة الإسلامية لم تطبق بعد عصر الخلفاء الراشدين " ، فقد تناولناها مع تجديد تاريخ الأمة الإسلامية ، "الفصل الثاني" ، ولا حاجة لتكرارها هنا .



(١) ربحت محمداً ولم أخسر المسيح . للدكتور عبد المعطي الدالاتي . ص ٣٠ . مكتبة صيد الفوائد الإسلامية . الإنترنت .

الفصل الرابع

التجديد في الماضي والحاضر وأثره

الفصل الرابع

التجديد في الماضي والحاضر وأثره

وسنتناول في هذا الفصل أثر التجديد في ماضي وحاضر الامة الإسلامية من خلال ذكر مزيج متنوع لبعض المجدّدين الإسلاميين ، لتكتمل نظرتنا حول حقيقة تجديد دين الأمة الإسلامية، ويجليها للدارسين ، حيث تمتليء المكتبة الإسلامية والعربية بالعلماء المسلمين المجدّدين في مختلف جوانب حياة المسلمين ، على مختلف مشاربهم ويختلف حول بعضهم كثير من الدارسين ، وبعض المتخصصين من مختلف أطياف الأمة . ويجب أن نستحضر في أذهاننا آراء العلماء المتعددة حول المجدد .

وهل هو شخص واحد فقط على رأس كل قرن ؟ ، أم من الممكن أن يتعدد المجدّدون في القرن الواحد ؟.

وحول تنوع مجالات التجديد ، والشروط الواجب توافرها في المجدد ، إلى غير ذلك من الآراء ، والتي لم تبتعد عن الصواب ، مع التأكيد على أن الاكتفاء بذكر أحد من المجددين الذين اتفق عليه غالبية العلماء لايعني ذلك أنه هو فقط من قام بالتجديد خلال القرن الذي نذكره فيه ، بل هناك غيره في مجالات الإسلام المختلفة.

وكان اختيار هذه النماذج بعناية ، لعدة أسباب وهي :

[١] أن يتضح مع ما قامت به تلك الشخصيات الإسلامية المعنى الواسع لتجديد دين الأمة الإسلامية ، والذي هو من كمال الدين .

[٢] التأكيد على صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان ، حيث نجد على امتداد تاريخ الأمة الإسلامية ، ورغم اختلاف البيئات والظروف مع مرور الأزمان ، ورغم تنوع مجالات التجديد واختلافها ، إلا أن الثابت أن جميع المجدّدين في كل مراحل تجديد دين الأمة يعودون إلى ثوابت الإسلام قرآنًا وسُنَّة ، ذلك النسيج الرباني ؛ حيث ينبع منهما تجديد دين الأمة الإسلامية .

[٣] تنبيه المختلفين حول بعض الشخصيات الإسلامية والتي كان لها اجتهادات في الدين الإسلامي ، أنه يجب دراسة فكرهم واجتهادتهم وآرائهم من خلال بيئتهم وعصرهم ، وإدراك أنه فكر بشري لايمثل ثباتًا ، أو ثوابتًا للأمة الإسلامية ، فثوابت الإسلام هي (القرآن والسُّنَّة) ، واستمرار أي فكر أو اجتهاد يرتبط أساسًا بمدي ارتباطه بثوابت الإسلام ، ويرتبط بمدى وجود ظروف مماثلة أو شبيهة أو قريبة من الظروف التي نشأ بها ، وأن كل اجتهاد مرتبط بالبيئة والعصر الذي ظهر فيه .

[٤] أن نتجنب الخطأ الكبير ، الذي وقعت فيه مدرسة أهل العقل والرأي ـ المعتزلة ـ في العصر العباسي في نهاية حكم الخليفة المأمون ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م . عندما فرضت فكرها عنوة ، وأرادت أن تكسبه صفة الثبات والاستمرارية ـ أي تجعله من ثوابت الإسلام ـ ؛ فحدث الخلل الكبير ، وكانت فتنة خلق القرآن ، والتي ترتب عليها فيما بعد خلل آخر ؛ عندما حرّمت مدرسة المحدِّثين ـ أهل الحديث ـ في عصر الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ / ٩٩١ ـ ١٠٣١ م) التيار العقلاني .

ثم بدأ الضعف يتسلل ، فأصاب الأمة الإسلامية إصابات مباشرة متتالية أدت إلى تراجعها حضاريًا، وسياسيًا ، وفكريًا ، واجتماعيًا ، ودينيًا ، ولكن مما لا شك فيه أن حركات التجديد لم ولن تتوقف ، وهي تتطور مع كل عصر .

[٥] الهدف الأهم هنا أن يتكون لدى المثقف المسلم ، بل وعامة المسلمين القدرة على التمييز بين ثلاث فئات من أصحاب الفكر والتأليف :

الفئة الأولى : هم المجتهدين حقًا من المسلمين ، والذين يلتزمون الدليل ، والذين إن أخطأوا فلهم أجر ، كما هو مقرر في الشرع الحنيف .

والفئة الثانية : هؤلاء الذين يريدون العبث بعقول وقلوب المسلمين ؛ ليفسدوا إيمانهم ـ والتاريخ مليء بأمثالهم ـ ، وهم يضمرون العداء للإسلام ، والمسلمين .

الفئة الثالثة : وهي التي تتكلم عن جهل بالدين ، أو عدم وعي بحقيقة الإسلام ، وهي واقعة تحت تأثير الفئة الثانية ، أو الإنبهار بالغرب وتقدمه العلمي والحضاري ، أو أغراض ومكاسب شخصية .

وحتى تتكون قاعدة عند عامة المسلمين ؛ يستطيعون من خلالها التمييز بين رُوَّاد الفكر الإسلامي ، وبين هؤلاء الدخلاء الذين يضمرون العداء للإسلام ؛ وليميزوا ما يقومون به من خلط وتزوير وافتراء سواء على الأشخاص أو الفكر نفسه أو التاريخ الإسلامي .

وهذه القاعدة والتي تميز بين الخبيث والطيب يجب الا تقتصر خلال هذا العصر ـ عصر العولمة الشاملة والإعلام المتعولم ـ على فئة العلماء والمتخصصين الإسلاميين ، بل تمتد إلى عامة المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وأن تصبح واجبة على كافة المسلمين ، وهي التحدي الحقيقي لعلماء الإسلام ، ولدول وحكومات العالم الإسلامي خلال هذه المرحلة الخطيرة في تاريخ الإسلام والبشرية جمعاء .

ونبدأ مع هؤلاء المجددين .

أولاً : الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ

(٦٣ـ١٠١ هـ / ٦٨٣ ـ ٧٢٠م)

وهناك إجماع من العلماء على أن "عمر بن عبد العزيز"[(١)] ـ الخليفة الأموي ـ هو مجدّد القرن الأول الهجري ، فقد رأى العلماء توفر جميع الشروط التي يجب أن تتوفر في المجدّد فيه . وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري ، ثم تبعه في ذلك الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ [(٢)] .

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عالماً تقياً ورعاً، وكان كثير من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، والتابعين على قيد الحياة في زمانه ، ثم إنه تعلم في صباه الحديث ، والفقه ، وتخرج فيهما ، وكان يُعد في الطبقة الأولى من المحدّثين ، وفي زُمرة أهل الاجتهاد من الفقهاء . تولى خلافة المسلمين " ٩٩ – ١٠١ هـ " .

وكان خلفاء بني أمية قبله قد تبنوا مبدأ التوريث في تولي الحكم ، وتوارث الشورى في حكم المسلمين ، فجاء عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ، وأحيا "مبدأ الشورى" ، وأعفى الناس من الملك العضود .

فعند اختياره خليفة للمسلمين خاطبهم قائلاً :

إني ابتليت بهذا من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ؛ فاختاروا لأنفسكم ؛

---

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، وأمه : هي أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب .ولد سنة : ثلاث وستين . وقيل: سنة إحدى وستين، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما بمصر .. وقيل: سنة تسع وخمسين .

(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي داود . ١١ / ٣٩٣ ، محمد شمس الحق العظيم آبادي . تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان . بيروت : دار الكتب العلمية ط ١ ، جامع الأصول في أحاديث الرسول . ١١ / ٣٢٢ . محمد ابن الأثير الجزري . تحقيق / محمد حامد الفقي . بيروت : دار إحياء التراث ط ٤ ،١٩٨٤م ، التجديد في الإسلام . سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير ، ورضينا ، بك فتولّ أمرنا باليُمن والبركة، وبذلك خرج عمر بن عبد العزيز عن مبدأ توريث الولاية (١) .

ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين له ، بل كان يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال في خطبته الأولى عقب توليه الخلافة: " .. وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم وإن أبوا فلست لكم بوالٍ ثم نزل ، وكتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها " (٢) .

❁ وقد اهتم عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى : " إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة ، لايضل معها رأي ، ولا يفقد معها حزم " . وقد حرص على إصلاح بطانته ، وقرّب إلى مجلسه العلماء ، وأهل الصلاح ، وأقصى أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة ، وكان يوصي بطانته ، ويحثهم على تقويمه ، فقد قال لعمر بن مهاجر : " **إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني ثم قل : يا عمر ما تصنع** " .

ولقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها .

❁ ومع تحرّيه العدل في الرعية ، فقد حرص أشد الحرص على تطبيق العدل المتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعايشة ، وحتى لايكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدّد ، وهذه الأمور كلها واجبات الحاكم في الإسلام ، وقد قام أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بهذا الركن العظيم على أتم وجه. وكان يرى أن

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز . ص ٦٥ . أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي . بيروت : دار الكتب العلمية .

(٢) عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح على منهج النبوة . علي محمد محمد الصلابي .تم تحميل الكتاب من الشبكة الليبية .

المسؤلية والسلطة في النظام الإسلامي هي القيام بحقوق الناس ، والخضوع لشروط بيعتهم ، وتحقيق مصلحتهم المشروعة ، والخليفة أجير عند الأمة ، وعليه أن ينفّذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة . وقد ضرب على النقود عبارة : " أمر الله بالوفاء والعدل " ، وكان يطلب من ولاته التدقيق قبل إقامة الحدود . وأنصف أهل الذمة ، وأمر ألا يُعتدى عليهم ، أو على معابدهم .

كتب لعامله "الجراح بن عبد الله الحكمي" أمير خراسان : يا ابن أم جراح لا تضربن مؤمنًا ولا معاهداً سوطًا إلا في حق ، واحذر القصاص ، فإنك سائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها [١] .

❁ خالف سيرة الحكام الامويين ، واسترد ما لديهم من حقوق الدولة ، والمسلمين ، وردّها لبيت المال ، وأعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية ، أو لحقته منهم مظلمة ، فليتقدم بالبيّنة لكي يُردُّ له حقه . وقد بدأ بزوجته .

❁ أحيا سُنَّة رسول الله ـ ﷺ ـ في تحري المساواة ، وإنصاف المظلوم ، وحسن المعاملة واللين ، وفي الرفق بالحيوان . وكلّف بعض العلماء بكتابة حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ، وآثار صحابته من بعده ، فكانت أول حركة تدوين منظمة ترعاها الدولة .

❁ اشاع مبدأ الحرية بين المسلمين ، ونشر روح الإسلام السمحة في المجتمع كله ، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر ، وتبرأ من المظالم التي كان يرتكبها بنو أمية .

---

(١) تاريخ الطبري . تاريخ الام والملوك . ٧ / ٤٦٤ . ابن جرير الطبري . تحقيق / محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت . ١٩٦٧م / ١٣٨٧ هـ .

تحرى الأمانة في الحكم ، وتوكيل الأمناء ، فقد كان يدقق في اختيار ولاته ، ويطالبهم باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنًا من شؤون المسلمين، ولا اعتبار لشيء آخر من قرابة أو نسب .

ولم تكن سياسته في التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط ، بل ألزم بها عماله وولاته،وقد عز في زمن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وجود من يقبل الزكاة كما قال "عمرو بن أسيد " .

أحيا مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكانت الخلافة الأموية قد أخذت تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها في هذا الجانب ، وهي حراسة الدين ؛ فنهض عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بهذا المبدأ ، ورفع لواءه وأعلى شأنه ، وجعله المهيمن والمقدم على ماسواه .

وما حقق عمر - رحمه الله - ما حققه من أعمال ، وإنجازات إلا انطلاقًا من خوفه الشديد من الله ، وطلبه مرضاته ، وقد استعان على ذلك بالعلماء التابعين ، وأئمة الاجتهاد ؛ فكتب لعماله :

" اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من الشرائع أشد تضييعًا (١) .

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - بإقامة الدين داخل دولته ، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين ، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام ، وراسل ملوك الهند ، وملوك ما وراء النهر ، ووعدهم أن لهم ما للمسليمن وعليهم ما على المسلمين ، فاسلم كثير منهم ، وتسموا باسماء العرب (٢) .

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز . ص ٢٢١ . ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي . بيروت : دار الكتب العلمية .

(٢) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز . ص ٣٠ . أبو الحسن الندوي .

وبالجملة فقد حقق الغاية التي يريد الإسلام أن يقيم لأجلها حكومة ، وهي كما جاءت في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾.

[الحج : ٤١] .



ثانياً : الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ

أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع

(١٥٠ـ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ـ٨١٩ م)

واضع علم أصول الفقه

عُرف الشافعي بأنه أحد الأئمة الأربعة ـ الذين أوجدوا ببصرهم النفَاذ ، وذكائهم الفذ ، وفطنتهم النادرة مذاهبًا للفكر بقيت بقوتها وأصالتها تنجب المجتهدين في الأمة الإسلامية ، وقد اضطلعوا بعبء هذا العمل الجليل بدون أي مساعدة من نظام الحكم ، ولاقوا في سبيل ذلك مشقة عظيمة ـ ، وارتبط الشافعي في الفقه بمذهب معروف باسمه ، غير أن مقام الشافعي في مجال الفكر العربي الإسلامي أعظم من ذلك بكثير .

إن مكانه يرتبط بالدور الذي قام به أساسًا في مجال التجديد والاجتهاد ، وامتصاص الرأيين المتنازعين في عصره ، وتذويبهما في عصير واحد ، ونقل الخطين المتباعدين لالتقائهما في طريق واحد .

ولقد كان الناس قبل الشافعي ـ رحمه الله ـ فريقين متباعدين متنافرين : أصحاب الحديث ، وأصحاب الرأي .

- أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار الرسول ـ ﷺ ـ بعيدون عن النظر والجدل . وكان يمثل هؤلاء الإمام مالك وأصحابه في المدينة المنورة .

- أما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر ، والجدل ، والقياس ، وكان يمثلهم الإمام ابو حنيفة ، وتلاميذه في العراق .

ولقد استطاع الشافعي ـ رحمه الله ـ أن يمتص ما في تربة عصره من عصارة

المدرستين ، فقد اجتمع له فقه الحجاز ، وفقه العراق ، والتقى بمالك ، وصاحبه تسع سنين ، والتقى بتلامذة أبي حنيفة وأخذ عنهم ، فاجتمع له علم الحديث ، وعلم الرأي ، وقد مزج ذلك كله وصنع منه شيئًا جديداً ـ بعون من الله وتوفيقه ـ فكان قمة في مجال الفكر العربي الإسلامي ، ذلك هو " علم أصول الفقه " في كتابه المشهور الرسالة الأصولية .

وكان الناس قبل الشافعي ـ رحمه الله ـ يتكلمون في مسائل أصول الفقه ، ويستدلون ويعترضون ، ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة ، في كيفية معارضتها وترجيحاتها ، ومن هنا أتيح لهذا العالم النابغة أن يستنبط علم أصول الفقه ، ويضع قانونًا كليًا يرجع إليه في معرفة أدلة الشرع ، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ : " ما أحد ممن بيده محبرة وورق إلا وللشافعي في رقبته منه " .

وقد استوعب الشافعي ـ رحمه الله ـ برحلاته ثقافة عصره ، والتقى بأعظم رجال جيله " مالك ، وأبي يوسف « تلميذ أبي حنيفة »، وابن حنبل ، وكان ابن حنبل من تلامذته " .

قال الرازي : إن نسبة الشافعي إلى علم الأصول ، كنسبة أرسطو إلى علم المنطق ، ونسبة الخليل إلى علم العروض .

والشريعة عند الشافعي تضم علمين : علم العامة ، وعلم الخاصة :

أما علم العامة: فهو إيجاب الصلاة والصوم والزكاة ، وتحريم الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر . . وهذا العلم موجود في القرآن الكريم نصًا لا تأويل فيه ، وواضح من السُّنَّة المتواترة عن النبي ـ ﷺ ـ .

أما علم الخاصة : فهو ما يعرض للناس من فروع الشريعة مما ليس فيه نص من كتاب ، وحيث يوجد فيه نص يحتمل التأويل ، وهذا علم لايقوم به إلا الخاصة

ممن أتوا علم الكتاب والسُّنَّة ، وأخبار الصحابة ، واختلاف الناس ممن لهم حق " الاستنباط " .

والعلم عند الشافعي ـ رحمه الله ـ خمسة أنواع :

[١] الكتاب والسُّنَّة .

[٢] الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سُنَّة ، وهو إجماع الفقهاء الذين أوتوا علم الخاصة ، ولم يقتصروا على علم العامة .

[٣] قول أصحاب النبي ـ ﷺ ـ رأيًا من غير أن يُعرف أن أحداً خالفه .

[٤] اختلاف أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ في المسألة ، فيأخذ من قول بعضهم ما يراه أقرب إلى الكتاب والسُّنَّة ، أو يرجحه القياس .

[٥] القياس على أمر عرف حكمه بواحد من المراتب السابقة " الكتاب والسُّنَّة والإجماع على ترتيبها " .

والشافعي ـ رحمه الله ـ هو أول من تكلم عن " القياس " ضابطاً لقواعده ، مبيناً أسسه ، وقد فرق بينه وبين " الرأي " .

وقد استخرج قواعد الاستنباط ،ورسم الحدود للمجتهد ، وضوابط الاجتهاد .

التزام الشافعي بالدليل ودورانه معه حيث دار ، ونبذه للتقليد ، وقد قال : " إذا صح الحديث فهو مذهبي " ، وقال : إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط [١] .

● وقد لُقِّب ـ رحمه الله ـ في بغداد بناصر السُّنَّة [٢] .

بدأ الشافعي ـ رحمه الله ـ رحلته عام ١٦٤ هـ ، وبلغ مصر واستقر بها عام

---

(١) نوابغ الفكر الإسلامي . أنور الجندي ، دار الرائد العربي . ط ١ ، ١٩٨٣ م .

(٢) مفهوم التجديد . ص ٦٨ . بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١ ، ١٩٨٤ م .

١٩٩ هـ ، في سن التاسعة والأربعين ، وقد نضج عقله واكتملت ثقافته .

وقد ألف كتاباً خالف فيه الإمام مالك ـ رحمه الله ـ حين رأي أن بعض الناس يقدسون آثاره وثيابه ، ووجد من يتحدث بحديث رسول الله ـ ﷺ ـ فيعارضونه بقول مالك .

وقال الفخر الرازي : إن الشافعي ـ رحمه الله ـ إنما وضع الكتاب عن مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها ، وكان يقال لهم : قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيقولون : قال مالك ـ رحمه الله ـ ؛ فقال الشافعي ـ رحمه الله ـ : إن مالكاً آدمي يخطيء ويغلط » .

وكان تجديد الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ مناسباً لعصره وبيئته والمجتمع العربي والإسلامي في هذه الآونة ، وكانت رسالته في علم الأصول شاهداً على ذلك .

ومات الشافعي ـ رحمه الله ـ وترك وراءه علماً غزيراً ، ونموذجاً للمسلم .

ومن مؤلفاته : " الرسالة الأصولية، كتاب الأم ، كتاب السُّنن ، أحكام القرآن ، المسند في الحديث ، فضائل قريش ، آداب القاضي ، السبق والرمي " .



ثالثاً : الإمام ابن حزم علي بن أحمد ـ رحمه الله ـ

(٣٨٤ـ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م)

عملاق الأندلس ، ولد في قرطبة ومات فيها

وهو من المجدّدين في مجال مصححي المفاهيم،ومجددي بناء الفكر الإسلامي، وتلك مهمة ضخمة لم يتصدى لها إلا القليل، ومن أبرزهم " ابن حزم ، والغزالي، وابن تيمية " ، الذين ظهروا في مراحل مختلفة متوالية ، وفي فترة من أدق فترات تبلور الفكر الإسلامي ، وسعيه إلى بناء منهج شامل يضم مختلف التيارات ، ويشجب مختلف الانحرافات التي أثارتها الدعوات الباطنية ، والمخاصمة للإسلام أساسًا .

ويبدو منهج كل منهم في جملة واحدة هي : " التماس مفهوم القرآن أساسًا " .

وليس من اليسير فهم ابن حزم منفصلاً عن عصره ، فهو استجابة لتحديات عصره . لقد تعرض المجتمع الإسلامي في عصره لفساد خطير بعد سقوط الدولة الأموية ، وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس عامة ، وفي قرطبة خاصة . واتخذ الفقهاء من القياس ، وما إليه من الاستحسان وسيلة لتبرير الواقع ، ومحاولة إقرار انحراف المجتمع . ويعبر ابن حزم ـ رحمه الله ـ عن ذلك قائلاً : " إن الناس لم يعودوا يعرفوا الحلال والحرام في الكسب "،ونعي على علماء الدين في عصره موقفهم ، فقال : " إنهم أصبحوا عونًا على الفساد ، والطغيان ، وإنهم صاروا يأكلون على جميع الموائد ، وينافسون في مضمار الشر " .

لقد بلغ أمر مجتمع ملوك الطوائف الذي عاشه ابن حزم غاية الاضطراب استهتاراً وضعفاً ، وقلة اكتراث بالدين والخلق ، وشغل الأمراء بجمع المال ، وبناء القصور ، وفرض الجزية ، والمكوس على رقاب المسلمين ، وضعفوا عن مقاومة

خصوم الإسلام الطاغين على القرآن الكريم .

وفي هذا المجتمع المضطرب تورط بعض الفقهاء في التأويل ، والتحوير ، والاستنباط ، وكان تورطهم نتيجة نفاقهم ، ومجارتهم الحكام ، وأخضعوا النصوص لهوى الأمراء ، ومن هنا كانت صيحة ابن حزم ـ رحمه الله ـ إلى التمسك بظاهر النصوص ، حيث أنه الفصل الدقيق الذي لايمكن معه المساومة ، ولا يجوز فيه التغيير أو التلاعب .

ومن هنا كانت دعوة ابن حزم ـ رحمه الله ـ والتي نلخصها في جملة " التماس مفهوم القرآن ، والوقوف عند النص " ، وكان إصرار ابن حزم على دعوته ، والتماسه إليها البراهين والأدلة ، وتوسيع نطاقها على الفقه والعقائد جميعًا هادفًا إلى القضاء على محنة التأويل ، تأويل النصوص ، وتبرير أخطاء المجتمع .

ومن هنا كانت أصالته ، وصموده وإصراره ، وما عرف عنه من عنف في الجدل لوجه الحق خالصًا .

وهو جدل مهما بلغ من العنف فقد كان قائمًا على النزاهة العلمية ، والإرادة الصادقة .

لقد أراد ابن حزم ـ رحمه الله ـ أن يحرر الإسلام من أن يكون مطية لمجتمع منحل ، أو لهوى الفقهاء ، فحمل مفاهيم " ظاهر النص " سلاحًا قويًا معارضًا به الخطر ، وهاجم به الانحراف ، وقاوم به الفساد .

✿ وقد كان لابن حزم ـ رحمه الله ـ ببراعته العقلية ، وعمق فهمه للإسلام تلك القدرة القادرة على التحررمن جمود تقليد المذاهب المعروفة ، وتحرره من الخضوع لمفاهيم النصوص التي كانت قد انحرفت عن جادة الحق انحرافًا كبيرًا ، فقد نقد المذاهب الفقهية المعروفة ، وهاجم اعتمادها على القياس .

ليس للنجوم تاثير فى اعمالنا ، ولا عقل تدبرنا به ، ويتصل بنظريته في المعرفة مفهومه للعقل ، فهو يكرم العقل ، ولكنه لا يسلم له تسليمًا مطلقًا على النحو الذي يقول به غير المسلمين ، ويضعه في مكانه الحق .

وهو في منهجه العلمي غاية في الإنصاف من النفس ، وتقبل الحق أينما وجده ، ويقول : إنه لايجوز لمن يملكون أدوات الاجتهاد والعقل ان يقلدوا إمامًا في كل ما يقول من غير ترجيح بدليل .

وتعطي آراء ابن حزم - رحمه الله - في مجموعها مفهومًا متكاملاً عميقًا للإسلام ملتمسًا فيه منابعه الأصيلة ، بحيث أصبح أساسًا لحركات الاجتهاد والتجديد المتوالية التي استهدفت تطهير الإسلام مما علق به في عصره وفي بيئته ، على أساس التماس معينه الصافي .

وقد تحدث ابن حزم - رحمه الله - عن مفهوم الإسلام ، وناقش اخطر القضايا في مجتمعه وهي : " التعليم اجباري ، الأرض لمن يزرعها ، المرأة والرجل يتساويان في العلم والثقافة ، ولكل مواطن حلتان ومسكن " .

وكان ابن حزم - رحمه الله - لايقبل ترديد أراء غيره ، أو الاقتصار فيما يقدم على أراء السابقين ، بل كان دومًا يسعد بالجديد [١] .

ونشير هنا أن من الأخطاء الشائعة بين الكثير من الدارسين وعلماء المسلمين : إدارة نقاش حول فقهاء المسلمين وانتاجهم ، دون دراسة عصورهم ، ودون معرفة الظروف والأحوال الاجتماعية لمجتمعاتهم . وهو الأمر الذي يقود إلى الاختلاف حولهم ، أو حتى التناقض معهم ، وأحيانًا توجيه النقد الشديد لهم ، وهذا غير مقبول عقلاً ، ولايقبله البحث العلمي ، فيجب عدم إفراغ اي عصر من ظروفه

---

(١) نوابغ الفكر الإسلامي . أنور الجندي . بيروت : دار الرائد العربي . ط ١ . ١٩٨٣ م .

❁ ولقد كان أبرز معطيات فكر ابن حزم " نظرية المعرفة الإسلامية " التي سبق بها الفكر الغربي بسبعة قرون ، وهو الذي سبق علماء المسلمين إلى إقرار المفهوم القرآني في قيام المعرفة في الإسلام على أساس العقل والقلب معًا ؛ فقال : إن للإنسان ست حواس ، والنفس تدرك المحسوسات المادية بالحواس الخمس، وأمّا الحاسة السادسة فهي علم النفس بالبديهيات ـ يعني أن هناك أمور يدركها الإنسان ذو العقل بداهة من غير أن يعرف دليل عليها ـ فمن ذلك علمها أي " النفس " بأن الجزء أقل من الكل ، فإن الصبي الصغير في أول تمييزه إذا أعطيته ثمرتين وبكى ثم زدته ثالثة سُرّ .. وهكذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء .

❁ ولقد بلغ منهجه في المعرفة الإسلامية مبلغًا عاليًا من الأصالة ، ومنحته تلك الأصالة الفكرية ، والشجاعة النفسية التي واجه بها أخطاء عصره ومجتمعه ؛ فقاوم الانحرافات والخرافات في مختلف جوانب الفكر الإسلامي ، ورفض الإسرائيليات التي تقول بأن الأنهار – النيل ودجلة – تنبع من الجنة ، وقال : إن كل من له أدنى معرفة بالهيئة يدري أن مخرج النيل عين الجنوب ، وأن مخرج دجلة والفرات من الشمال .

وأنكر ابن حزم ـ رحمه الله ـ الخوارق على أيدي أحد من الناس ، وقال : إن الناس جميعًا سواءً فلا يقدس صالحًا، ولا يعتقد قوة خارقة لصالح، أو غير صالح.

وأثبت أن الأرض كروية بالبرهان العقلي ، ودعا ابن حزم ـ رحمه الله ـ إلى دراسة الهندسة ، والمنطق والفلك ، وقال : إنها لاتخالف الشريعة معارضًا آراء الفقهاء في عصره ، وقال : إن بعض هذه العلوم يسند الشريعة ويؤيدها ، ونفي مزاعم اليهود أنهم ملكوا من نهر مصر إلى نهر الفرات .

وقد رد على " الدهرية " ، والقائلين بقدم العالم ، ودحض الفكرة المأخوذة من اليونان ، والقائلة : بأن الأفلاك والنجوم تعقل ، وأنها ترى وتسمع ، وقال : أن

وأحداثه ، وأن يكون واضحًا أن لكل مجتمع ولكل عصر ظروفه الخاصة به ، والتي تختلف عن غيره ، والإسلام قد جاء لكل المجتمعات ولكل البشر إلى قيام الساعة .

والحجة في الإسلام لا تكون لعالِم ـ مهما بلغ علمه ـ ولكن بالأدلة الصحيحة المعتمدة على الكتاب والسُّنَّة .



رابعاً : الإمام الغزالي حجة الإسلام

أبو حامد الغزالي بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ـ رحمه الله ـ

(٤٥٠ـ٥٠٥هـ / ١٠٥٨ـ١١١١م)

ويراه المؤرخون "مجدد الإسلام في القرن الخامس الهجري"(١)

وكانت الحياة الفكرية ـ في الفترة التي ظهر فيها في العالم الإسلامي ـ تجيش بتيارات عديدة متضاربة : منها المعتزلة ، والصوفية ، والفلاسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، وأهل الترف والإباحة .

وتزعزعت العقائد بشيوع الفلسفة اليونانية . ولم يكن المحدّثون والفقهاء على نصيب من العلوم العقلية ، ولم يكونوا يستطيعون أن يفهّموا الناس نظام الدين الإسلامي بأسلوب عقلي مقنع حسب مقتضيات زمانهم ، فكانوا يلجئون لقمع ضلالهم في العقائد إلى الزجر والتوبيخ .

وقد استعرت المجادلات ، والمناظرات ، والخلافات التي تؤيدها العصبيات المذهبية ، والأهواء السياسية ، فلم يلبث الغزالي ـ رحمه الله ـ أن أحسّ بمدى الخطر الذي يواجه مفاهيم الإسلام الصحيحة وجوهره النقي الذي كاد يختفي تحت هذا الركام الهائل من الأضاليل والأهواء التي تتمثل في محاولات الشعوبية والباطنية لطمس هذه المنابع الثرة من القيم المستمدة من جوهر الإسلام .

هنالك انتدب الغزالي ـ رحمه الله ـ نفسه لحمل لواء الدفاع عن الإسلام، ومجاهدة خصومه ، وترشيد شبابه ، وتصحيح مفاهيمه ، وتحرير قيمه (٢)

---

(١) نوابغ الفكر الإسلامي . أنور الجندي . بيروت : دار الرائد العربي . ط ١ ١٩٨٣ م .

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . ص ٦٨، أبو الأعلى المودودي الدار السعودية للنشر والتوزيع . ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ولم يكن الغزالي ـ رحمه الله ـ صوفيًا بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة اليوم ، ولكنه كان قد كون مفهومًا متكاملاً للإسلام ، ومزج بين الفقه والتصوف ، وحرّر الفلسفة من وثنيات اليونان ، وأعلى من شأن مفهوم القرآن الكريم على مفهوم الكلام ، ودحض شبهات الباطنية زائفي الرأي والإدعاء والفلسفة الذين اندفعوا وراء الطابع الهليني ، والصوفية الذين انحرفوا إلى القول بالفناء المطلق أو وحدة الوجود ، فخالفهم في ذلك كله ، وعارض ما ذهب إليه الحلاج وابن عربي ، ودفع الشبهات التي التصقت بالعقيدة والسُّنّة ، وعاد بالفكر الإسلامي إلى أصل جوهره بعد أن أوشكت الفلسفة ، والتصوف ،والكلام أن تنحرف به عن غايته ، أو تخرج به عن طبيعته السمحة البسيطة،وانتقد الفلسفة اليونانية انتقاداً لاذعًا ؛ فاستطاع أن يوقف موجة الانبهار بالفلسفة اليونانية وما وراءها ، وعاد بالفكر الإسلامي إلى الأصالة المستمدة من جوهر الإسلام نفسه .

وفي كتابه " إحياء علوم الدين" قد جمع المسلمين في عقيدة موحدة ، فقهاء، ومتكلمين ، وصوفية ، وأزال ذلك الصراع الذي كان يدفعهم إلى الاختلاف ، وبين الحدود التي تكون للمرء الحرية داخلها في الرأي والتأويل ، والحدود التي يُعد تعدّيها خروجًا من الإسلام .

وأوضح كذلك عقائد الإسلام الأصلية ، ونبّه إلى الأمور الدخيلة التي دست فيها ، وهذا التحقيق والتبيين من الإمام وسّع وجهة نظر الناس ، وجرّد الفرق المتخاصمة والمكفرة بعضها بعضاً من معظم أسلحة جدالهم ونزاعهم .

وقد انتقد نظام التعليم في عصره،و أنه كان فيه عيبان اثنان كبيران :

أولهما : أنه كان يفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وذلك لامحالة يفضي بالناس إلى التفريق بين الدين والدنيا ، وهو باطل البتة في الإسلام .

والثاني : أنه كان قد دخل فيه باسم العلوم الشرعية أمور لم تكن لها أهمية في الشرع، فكان من نتيجة ذلك أن تصورات الناس في باب الدين كانت معرضة للخطأ والضلال، وكان التحزب والتعصب ناشئًا فيهم لكون بعض الأمور الدخيلة الأجنبية قد حازت الأهمية في الدين بغير حق .

فمحق الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ هذه المفاسد ، واقترح مكانه نظامًا تعليميًا جديدًا ، ورسم الغزالي ـ رحمه الله ـ منهجًا متكاملاً متماسكًا للتربية ، وعلم النفس الإسلامي قوامه ترابط النفس والأخلاق والدين ، وجعل هدفه من معرفة النفس أن يكون ذلك سبيلاً إلى إصلاحها ، وإلى تهذيب الأخلاق ، وخالفه فيه كثير من معاصريه بادىء الأمر ، ولكن سلم الناس بمبادئه في جميع الممالك المسلمة آخر الأمر .

ولا مغالاة في أن كل ما وضع في الأزمان التالية من نظم التعليم الجديدة جاءت متبعة آثار النظام الذي وضعه هذا الإمام .

وقد حمي الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ الفكر الإسلامي من أن تفترسه الفلسفة اليونانية كما افترست الفكر اليهودي، والمسيحي ، والفارسي، والهندي من قبل، ولم يسلم من شرها غير فكر القرآن الكريم .

وقد حمي العامة من أخطار الفلسفة، ومذاهب الباطنية، وكشف أمام المثقفين عجز أدلة الفلاسفة عن معرفة مسائل الربوبية ، وقرر أن السعادة لا تتأتى بالإيمان الفلسفي ، بل بالعمل المؤدي إلى الاتصال بالروح الأعلى ، وقد استخدم مع الحكام أسلوب التعريف والوعظ ، واستخدم أسلوب الرسائل معهم كلما سنحت فرصة لذلك ، كما دعا إلى مقاطعة الحكومة الظالمة اقتصاديًا واجتماعيًا .



خامساً : ابن تيمية شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله تقي الدين أبو العباس
ـ رحمه الله ـ
(٦٦١ - ٧٢٧ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م)

يقف ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على رأس قمة من قمم الفكر الإسلامي كواحد من المصلحين والمجاهدين ، وهو في تقدير كثير من الباحثين رابع أربعة كانوا رمزاً للتحدي ورد الفعل في مواقف التطور الفكري والاجتماعي للإسلام والعالم الإسلامي . وهم : " الأشعري ، وابن حزم ، والغزالي ، وابن تيمية " .

وقد ظهر في عصرٍ مضطربٍ زاخرٍ بالدعوات والنظرات في مجال الفلسفة ، والتصوف في أواخر القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن الهجري ، فلم يلبث أن انتدب نفسه لتصحيح المفاهيم ورد الحقائق إلى أصولها ، وكشف الزيوف والعناصر المختلفة المتضاربة، وعمد في إصرار إلى حل تعقيدات التعصب والأوهام ، والتلبيسات التي أدخلت الفكر الإسلامي مفاهيم منحرفة ، وقد أفحم خصومه.

كانت رسالة ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هي وحدة الفكر ، والقضاء على الفرقة التي أوجدتها انحرافات المذاهب والدعوات ، مما كان لها أثرها على جذور الفكر الإسلامي وقيمه الأساسية ، فكان آية عمله أن يوثق القيم الإسلامية ويؤكدها حتى يواجه في ضوئها كل النظرات الوافدة ، والآراء الغريبة .

كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هو رد الفعل لهذا التحدي الضخم الذي واجه الفكر الإسلامي بتغليب مذاهب ضالة على المفهوم السمح السهل للإسلام ، ومن هنا كانت حملاته على دعاة التقليد والتعصب المذهبي، ومقاومة ما نسب إلى

مفهوم التصوف في الإسلام مما وفد مع ثقافات الأمم ، ومحاربة نظرية الحلول ووحدة الوجود والباطنية ، كما حارب جمود العلماء عند النصوص دون النظر إلى تطور الأمم ، ودخول عناصر جديدة وأحداث جديدة ، كما هاجم الانحلال الخلقي ، وانهيار القيم الأساسية في ظل ضربات المغول ، واستشراء الدعوات الضالة ، كما حارب تقديس الموتى والالتماس من الأولياء .

وأنكر على الفقهاء إغلاق باب الاجتهاد والوقوف عند قيود المذاهب الأربعة فلا يتخطونها ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وقال : إن نصوص الشريعة الإسلامية وافية وقادرة على الحياة والتطور .

لقد هاجم ابن تيمية - رحمه الله - كل المنحرفين من رجال عصره من الفقهاء ، والفلاسفة ، والصوفية ، والأشعرية، وحاربهم جميعًا بالحجة والدليل والبرهان ، فرموه عن قوس واحدة بالزندقة والكفر ، وألبوا عليه الحكام ؛ فسجن في القاهرة، والإسكندرية ، ودمشق . وصمد ابن تيمية - رحمه الله - ولم يتزعزع، ولم يرعبه السجن ، ولم يفت من عزمه ، وكان يخرج كل مرة أشد صلابة وقوة ، ولا يلبث أن يعاود دعوته من جديد .

وقد كان خلال هذه الفترة تنتشر زوايا الصوفية ورباطتهم وخوانقهم التي انتشرت في كل مكان ، وأخذت أراؤهم المشوهة المضطربة تبلبل الأفكار ، وقد أخرجت الإسلام من بساطته إلى تعقيدات الحلول ووحدة الوجود .

وكانت فرقة الرفاعية في دمشق وحلب ، والجيلانية في العراق ، والشاذلية في مصر ، كلها تسيطر على الرأي العام والأمراء ، وتتصارع فيما بينها ثم تتصارع مع الفقهاء ، والفقهاء يتصارعون فيما بينهم ، والصراع محتدم بين الحنابلة والأشاعرة ، وبين الفقهاء والمتكلمين ، وبين المتكلمين والصوفية .

وقف ابن تيمية - رحمه الله - بين هذه الفرق جميعًا يدعو إلى السُّنَّة الصحيحة،

ولم يدخل هذا الميدان إلا وقد استعد له . يقول " ابن دقيق العيد " في وصف ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ : " رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه ، يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد " .

ومضى ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يناهض البدعة في العقائد ، والأحكام ، والعبادات ، ويكافح مباديء الحلولية في التصوف ، مستنكرًا رأيهم في الموتى والأولياء ، كما أنكر على المعتزلة مسائل الصفات ، وأنكر على الفقهاء غلق باب الاجتهاد ، والوقوف عند قيود المذاهب الأربعة،كما عارض الفلاسفة في آرائهم ، ومغالطاتهم ، وبعدهم عن بساطة الإسلام .

ولم يقف عند هذا ، بل اتجه إلى الناحية الإيجابية، فتحرّر من قيود مذهب الأشعري في الأصول ، ومذاهب الأئمة الأربعة في الفروع ، وحارب خرافات الأحمدية بدخول النار ، وغيرها .

وقد وجه كتبًا إلى الصوفية يطلب فيها منهم أن يعدلوا عن مسايرة عقائد الحلول والإتحاد ، مبينًا لهم خطرها على الإسلام ، وأنها لم تأتِ في كتاب ؛ وأغري الصوفية الحكام به ، ولاقى هولاً شديداً في السجون ، ولكنه لم يتوقف مطلقًا عن المضي في دعوته .

وهاجم ابن تيمية ـ رحمه الله ـ غلاة الشيعة الروافض ، وكان يؤمن بأنهم أداة هدّامة لوحدة المسلمين ، ومن عوامل تفريق الجماعة .

وكان من أهم من عني بمعارضتهم ورفض آرائهم " القرامطة والباطنية " مؤمناً بأن مبادئهم كانت مصدر الحركات الهدّامة التي هبّت في وجه الإسلام ؛ إذ كانوا عونًا لكل عدو هاجم المسلمين .

وقد جرد ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الأراء الطيبة التي حملتها الفرق المختلفة ،

وحررها من الأهواء ، وردها إلى الأصول الإسلامية الأصلية، وذلك مما أشار إليه في كتابه " السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية " ، في مواجهة السموم التي بثَّها إخوان الصفا في رسائلهم .

وقد عارض الغلو في تعظيم عمر وعلي - رضي الله عنهما - ، وما يضاف إليهما من الأفعال ، وهاجم التوسل بالأنبياء والأولياء .

كما أعلن ابن تيمية - رحمه الله - الحرب على الجبرية التي هي مفهوم التسليم الكامل للواقع ، وانسحاب الفرد من المجتمع والاعتقاد بسقوط الإرادة الإنسانية سقوطًا كاملاً ، وتقبل الأوضاع الذليلة تقبلاً كاملاً ، بدعوى أنها إرادة الله مع الاستسلام للظلم والذل ، والانفصال عن المجتمع ، وإيثار العزلة في الخوانق ، والتكايا على نحو قريب من الرهبانية ، والاتصال بالأولياء على نحو قريب من الوثنية ، واتخاذ عقيدة " القدرية " تثبيطًا للعزم ، وغلاً للأيدي .

وهاجم مفهوم الحلوليين الذي يقول : إن الخالق يحل في شخص المخلوق ، ومنه انبعثت فكرة تأليه بعض أفراد عوالم الوجود .

وهاجم ركن العبادة في التصوف الحلولي المبني على هجران الدنيا بكل ما فيها ، والزهادة ، والتقشف ، وحرمان النفس ، والتهاويل ، والرموز ، وقال : إنها ليست من الإسلام أصلاً .

ومن أخطر المعضلات التي خاضها ابن تيمية - رحمه الله - :

نقده للمذهب اليوناني ، وتحطيمه لقواعد منطق أرسطو ، وله في هذا المجال ثلاث دراسات هي :

[١] نقض المنطق .

[٢] الرد على المنطقيين .

[٣] نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان .

وقد فك ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن الذهن الإسلامي قيود الفلسفة الإغريقية ، واستنبط منطقاً إسلامياً جديداً يتفق مع الذهن العربي الإسلامي ، ويحرّره من ربقة الفلسفة الإغريقية ، وقد وصل إلى أن انتهج من القرآن منطقاً إسلامياً .

ويمكن القول هنا : بأن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أوقف تيار الفلسفة اليونانية الذي كان أيامه جارفًا للعقلية الإسلامية العربية نفسها ، وانقذها من تسلط عقلية أرسطو(١) .

وزاول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بنفسه القيادة الحقيقية للأمة ، وكان يدافع عن مصالحها ضد المستغلين ، ويحفظ حقوقها ضد المنتهبين ، ويدفع عنها كيد عدوها ما استطاع .

ومارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعزير المفسدين .

أحيا مدرسة الحديث والسُّنّة في عصره ، ورفع شانها ، واستطاع أن يجتذب إليها صفوة العلماء في عصره . قام بالرد على النصارى في كتابه القيم " الجواب الصحيح " (٢) .

مارس الجهاد ضد المغول، فقد كانت غارات المغول ، والتتار قد دوخت الأمة الإسلامية من نهر السند إلى الفرات ، وكانوا زاحفين إلى الشام ؛ فكان من المجاهدين ضدهم ، فنفث في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين روح الغيرة ، والحمية والحماس ، وحب الجهاد ، وحرّضهم على مقاومة هؤلاء المعتدين ، وأعطى صورة حقيقية عن المسلم المجاهد في سبيل الله ، وكان تجديده دين الأمة مرتبط ببيئته وزمانه كغيره من المجدّدين الإسلاميين .

---

(١) نوابغ الفكر الإسلامي . انور الجندي . بيروت : دار الرائد العربي . ط ١ . ١٩٨٣ م .

(٢) التجديد في الإسلام . سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي .

سادساً : الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ
(١١١٥ـ١٢٠٦هـ / ١٧٠٣ـ١٧٩٢م)

وقد ولد ونشأ في بيئة نجد العربية البدوية ، التي ظلت بمعزل عن التأثيرات الحضرية والحضارية إلى حد كبير ، والتي استمرت امتداداً لبساطة الحياة العربية البدوية القديمة ، فلم تعرف العلوم والفنون التي أثمرتها احتكاكات العرب الأوائل بالأمم التي فتحوا بلادها ، وصراعات الإسلام السلفي البسيط مع الأبنية الفكرية والديانات التي تحدته وتحداها بعد إنجاز الفتوحات .

ومحمد ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ سليل أسرة من الشيوخ الفقهاء ، أخذ عنهم فكر الإسلام الواضح والبسيط ، وعندما رحل إلى المدينة طلباً للمزيد من العلم ، تقبل ما وافق بساطة البادية التي نشأ بها ، ورفض ما نحا نحو الفلسفة وجدل علماء الكلام ، وكذا الأمر عندما ذهب إلى البصرة وغيرها من المدن الإسلامية .

ومن هنا كان التحدي الأول الأساسي الذي نهض محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ لمحاربته ، هو ما طرأ على الإسلام كما وعته البيئة العربية في طور بساطتها من بدع وإضافات ومحدثات ، سواء كانت وليدة الخرافة والشعوذة ، أو ثمرة للمجتمعات المتمدنة ذات الحياة الفكرية المعقدة والمركبة ، أو مزيجاً من هذين المصدرين معاً [١] .

ولقد وصل المجتمع ـ في نجد ـ في هذه الفترة إلى ما يمكن أن يوصف بأنه ردة إلى الجاهلية الأولى في معظم نواحي الحياة ؛ حيث كانت نجد غارقة في حالة

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي . د/ محمد عمارة . دار الشروق .ط ١ ، ١٩٩٧ م .

إغراق في الجهل ، والإيمان بالخرافات ، وتقديس الأضرحة والقبور والأولياء ، والاعتقاد بقبور ومزارات وأحجار وأشجار على أنها تضر وتنفع ، وتصل وتقطع وتعطي وتمنع ، وتفرق وتجمع من دون الله .

وانتشر فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيًا من آثار التهذيب ، واستغرقت المجتمعات في الجهل. وكثر السلب والنهب وفقد الأمن . ونال مكة والمدينة مانال غيرهما من سائر المدن الإسلامية . وغابت عن الناس فضائل القرآن [١] .

وكما قال جولد سهير: " ... نشأ في الإسلام بتأثير عدة عوامل بعضها سيكولوجي ، وبعضها تاريخي ، شكل من أشكال العبادة ، وهذا الشكل مهما عُدَّ مناقضًا لفكرة الألوهية في الإسلام ، ومهما اعتُبر خارجًا عن جادة السُّنَّة الصحيحة ـ سرعـن ما اكتسب "حقوقه المدنية " في دول الإسلام الشاسعة ..... وهذا الإيمان الساذج يرى أن الله بعيداً عن الناس ، وأن الأولياء المحليين هم أدنى إلى نفوسهم وقلوبهم ؛ ولهذا فهم موضع التكريم في عبادتهم ، كما أنهم مبعث مخاوفهم ، وعقد آمالهم ، ومحل تبجيلهم وورعهم . وأضرحة هؤلاء الأولياء والأماكن المقدسة المتصلة بها هي مواضع عبادتهم التي يرتبط بها أحيانًا ما يظهره العامة من تقديس لبعض الآثار والمخلفات ، بل إن العامة تخص هذه الأضرحة ذاتها بما لايقل عن العبادة المحض " [٢] .

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد .ص ١٦ -٢٣ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي. الرياض: مكتبة الرياض ١٩٨٠م .
ولمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص٣٣ . منير العجلاني .
وماضي الحجاز وحاضره . ص ١٤٤ . حسين نصيف، أثر الدعوة الوهابية ص ٢٣٣ . محمد حامد الفقي .
مشاهداتي في الحجاز . ص ٥٣ . عباس متولي حمادة ، التجديد في الإسلام . ص ١٠٧ . سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام . اجناس جولد تسهير . الفقرة ٦ ص ٦٠ .

وهو نفس ما قاله المؤرخ الأمريكي " لو ثروب ستودارد " حيث يقول : " وفي القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ... وانتشر فساد الأخلاق والآداب ... وساد الجهل ... وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ؛ فالبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجناً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء ، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم أو التعاويذ والسبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور . وغابت عن الناس فضائل القرآن ... ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام .... "[١] .

فكانت دعوة محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - ضرورة نبذ الشرك ، والعودة إلى نقاء التوحيد الإسلامي ، والعودة إلى فهم الإسلام كما فهمه سلف الأمة ؛ فقطع شجرة الذئب المقدّسة . " وهي شجرة في العيينة يعظمها الجهلة ، ويعلقون عليها الحاجات ؛ اعتقاداً منهم بقداستها[٢] .

وهدم القبة المقامة على ضريح زيد بن الخطاب إلى غير ذلك[٣] ، وتعرض نتيجة ذلك للمطاردة ، ولمحاولات القتل .

والحقيقة أن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - كان أكثر من شيخ ، وأعظم من فقيه ، وصاحب رؤية عميقة للمجتمع ، ومن ثم عمل على نشر

---

(١) حاضر العالم الإسلامي . لوثروب ستودارد . ترجمة : منير البعلبكي ، تعليق : شكيب ارسلان . دار الفكر ١ / ٢٥٩ .

(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد . ص ١١ . عثمان بن بشر النجدي الحنبلي . الرياض : مكتبة الرياض ١٩٨٠ م .

(٣) زيد بن الخطاب هو أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، صحابي أسلم قبل أخيه ، وشهد المشاهد ، ثم كانت راية المسلمين في يده يوم اليمامة ؛ فثبت إلى أن قتل ، وكان جهلة نجد يغالون في تعظيم قبره ، ويزعمون أنه يقضي لهم حاجاتهم . " كتاب الإصابة " ١ / ٥٦٥ . ابن حجر .

دعوته عن طريق حكام المناطق في الجزيرة العربية ، وبدأ دعوته في " حريملاء ثم في العُيينة ، ثم في الدرعية " ، فقد وعى الحكمة التي تقول : " إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " .

أما تعاليم الشيخ المقتبسة من كتبه ، ورسائله ، وشروح أبنائه ، وأحفاده ، وأنصاره فتقوم على مبدأ رئيسي هو : أنه لا سبيل إلى معرفة العقيدة والأحكام وكل ما يتصل بها إجمالاً ، وتفصيلاً ، واعتقاداً ، واستدلالاً إلا من القرآن والسُّنَّة المبينة له ، والسير في مسارهما ، فما يقرره القرآن ، وما تشرحه السُّنَّة مقبولاً لا يصح رده ، وليس للعقل سلطان في تأويل القرآن ، وتخريجه إلا بالقدر الذي تؤدي إليه العبارات ، وما تضافرت عليه الأخبار (١) .

(أ) آثار دعوته التجديدية :

يمكننا القول أن الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ مثَّل بداية لمرحلة جديدة في تجديد دين الأمة الإسلامية ، وأصبحت حركات تجديد دين الأمة الإسلامية أو معظمها بعده تتجه لأفراد المجتمع المسلم ؛ ليشاركوا ويسهموا في تجديد دين الأمة بشكل مباشر؛ فلم يتصدي لعملية التجديد وحده كعالم دين، أو فقيه أو مصلح ، أو مجدد لدين الأمة ، بل وجد أن الظروف قد تغيرت ، وأنه لكي يؤتي التجديد ثماره يجب أن يكون من خلال جماعة ، أو دولة تعمل على حمايته ـ أي فكر التجديد ـ ، بل وتتولى هي نشره ، والدعوة له ، وتطبيقه كلما أمكن ذلك ؛ لذلك يمكن التاريخ معه لبداية توجه جديد لتجديد دين الأمة في شكل جماعة، أو من خلال دولة إسلامية، أو عن طريق الدولة ذاتها ، والذي أخذ يتطور بعد ذلك حسب ظروف كل عصر وبيئته ، فوجدنا الحركة

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية . ص ١٢٥ . الشيخ أبو زهرة . دار الفكر العربي . ط١ ، ١٩٨٧ م .

السنوسية، والجماعة الإسلامية ، والإخوان المسلمين ، كلهم قد تأثروا به وإن لم يصل أحدهم إلى المستوى الذي وصل إليه في جعل الدولة تتولى أمر التجديد بنفسها .

وقد أضاف لمبادئ وأفكار ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مجوداً خاصة تجلّى في تأكيده الحرب ضد البدع والخرافات .

وقد دعمه الزعيم محمد بن سعود ، فقام بمغامرات حربية لإقامة السُّنَّة الصحيحة وإعادتها [١] ، ولحرص ابن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ الشديد على مبدأ التوحيد ، وتطهير المجتمع الإسلامي من شائبة الشرك والبدع،سمي هو وأتباعه بـ(الموحدين) .. أو (أهل التوحيد) (إخوان من أطاع الله) أو (أهل الفرقة الناجية) .. وسماهم خصومهم بالوهابيين نسبة إليه ، وشاعت التسمية الأخيرة بين الناس ... وبخاصة الأوربيين ، وأخطأ بعضهم فجعل هذه الحركة الإصلاحية (مذهباً) جديداً في الإسلام،تبعاً لما افتراه خصومهم ، ولا سيما الترك العثمانيون بل وأطلق عليهم اسم (الخوارج) ومنهم من جعلهم كالروافض والبابية [٢] .

ومن الآثار المباشرة لحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ لتجديد دين الأمة في بيئته ما يلي :

[١] أنشأ دولة إسلامية تحمي دعوته بالقوة .

[٢] استطاعت هذه الدعوة أن تحرر الأراضي التي وصلت إليها من ألوان الشرك والخرافة ، وأن تعيد الناس إلى السُّنَّة النبوية الشريفة .

---

(١) العقيدة والشريعة أجناس جولد تسيهر: ص ٢٦٧ .

(٢) جولد تسيهر ، المرجع السابق :ص ٢٦٩، دائرة المعارف وجدي: ١٠ / ٨٧٢، والبابية: أتباع سيد علي محمد المولود في بوشهر في إيران سنة ١٨٢١، ادعى أولاً نزول الوحي الإلهي عليه ، وأنه المهدي المنتظر الذي بشر النبي ﷺ بظهوره . ثم دعا نفسه بأنه (المرآة) التي بها يشاهد الله نفسه (بروكلمان:٤ / ١٦٠ وما بعدها) .

[٣] تعلق الناس في الجزيرة العربية بآراء ابن عبد الوهاب - رحمه الله - ، وحرص علماؤها على بثها في نفوسهم ؛ وكان ذلك سبباً في أن وجد فيهم ثقافة مع أميتهم ، ونشرها أتباعه في الربوع التي دانت لهم ، وكان الجهل يسيطر عليها ؛ فنشأت حركة علمية صافية ترد على المخالفين وتفند شبهاتهم ، وكانت ثقافة دينية حدودها تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وابن تيمية ، ومذهب أحمد بن حنبل - رحمهم الله - .

[٤] ربطت هذه الدعوة الإنسان في الجزيرة العربية بالله وحده .

[٥] فتحت باب الاجتهاد في الفروع بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد في سنة ٥٦٥ هـ .

[٦] أكدت ضرورة القيام بواجب الجهاد ، وإحياء هذه الفريضة التي أصابها الوهن، فكانت الدّعوة ثورية عارمة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه العالم الإسلامي [١] .

[ب] حول تجديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

لقد كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب الرد العربي الإيجابي على بعض التحديات التي واجهت الإنسان العربي في ذلك التاريخ ، إلا أنها كانت رد عرب البادية البسطاء في الأساس وبالدرجة الأولى ، وليس رد عرب البلاد التي قطعت في التحضر والتمدن شوطاً أكبر مما قطعه أهل نجد وتهامة والحجاز .

ولقد كانت تجديداً للإسلام ، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث ، والدعوة إلى عروبة الخلافة بعد أن استأثر بها الأتراك زمناً طويلاً ، ولكن ظروفها وبيئتها قد أبقت عليها حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم،

(١) العالم الإسلامي في مواجهة الاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي . أنور الجندي ص ٧٠ .

فاختصت بهم واختصوا بها [١] ، ولأن الوهابية نشأت في البيئة البدوية، فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على ما تثيره بيئتها البدوية البسيطة من مشكلات، وما تطرحه من علامات استفهام .

وما اختلاف الرأي بين بعض المسلمين حول قبول ، أو رفض تجديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ إلا نابع من عدم وضوح الرؤية حول فهم معنى تجديد دين الأمة الإسلامية ، فحتى هذه الأوقات لم يكن المسلمون يمثلون جماعة واحدة في ظروف بيئية متشابهة ؛ ولذلك فمن الخطأ محاولة تعميم تجديد الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ على كافة المجتمعات الإسلامية ، أو معظمها في وقته ، ثم الحكم عليها ، والخطأ الأكبر محاولة استدعاء تجديده لعصر أو بيئة مختلفة عن بيئته ، أو استدعائه للعصر الذي نعيشه ، أو الحكم عليه من خلال هذا العصر .

فالمؤكد أن ماقام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ من أجل تصحيحه غير موجود الآن وليتضح ذلك أكثر نتسائل :

هل فكر التجديد الذي قام به بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يصلح للفترة التي ظهر فيها مثلا : الإمام الشافعي ، أو يصلح لتلك الفترة التي ظهر فيها الإمام أبو حامد الغزالي أو العكس ؟ .

والإجابة بالطبع لا ، فالدعوى التجديدية التي قام من أجلها كل منهم مختلفة تمامًا ، وإن كان رجوع الجميع إلى مصدر واحد وهو ثوابت ديننا الحنيف ، والتي هي نسيج رباني صالح لكل زمان ومكان . فتناول أية فترة تاريخية ، وما نشأ فيها من فكر أو تجديد هو مرهون بزمانها ومكانها ،وظروف المجتمع والبيئة وقتها.

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي . د/ محمد عمارة . دار الشروق ط١ . ١٩٩٧ م .

إن الفكرة هنا تتلخص في فهم أن أي فكر بشري هو محدود زمانياً ومكانياً، وليس من الثوابت الإسلامية ، والتي هي فقط كلام الله ـ القرآن الكريم ـ ، وسُنَّة نبيه – ﷺ – ، والأصول والقواعد للتعامل معهما وفهمهما .

ولذلك فمن الخطأ مناقشة أي فكر ، أو أي تجديد ، ومحاولة إعطائه صفة الاستمرارية ، أو أنه من الثوابت في الدين الإسلامي ، أو تقيد حركة المسلمين به على مر العصور مهما كان رقي هذا الفكر أو هذا التجديد، فهذا للثوابت الإسلامية فقط.

لذلك ، فما قام به الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ هو تجديد لدين الأمة ، وإحياء لها بكل ما تعنيه الكلمة ، وبكل ما تحمله من معنى .

وأما للسؤال عن المجتمع المسلم المعاصر، فنقول :

إن هناك حالة اجتماعية جديدة سوف يفرز الإسلام لها ما يناسبها من دعوات التجديد الإسلامية الصحيحة .



سابعاً : الجامعة الإسلامية

"السلفية - العقلانية - المستنيرة"

بدأ هذا التيار فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق "جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)" وتجسد فكره ، وخاصة ما تعلق بتحرير العقل ، والإصلاح الديني في الآثار الفكرية،والجهود العلمية للإمام محمد عبده ١٨٤٩ - ١٩٠٥م، وكان جناح المشرق العربي المفكر عبد الرحمن الكواكبي ١٨٥٤- ١٩٠٢ م ، وفي المغرب العربي عبد الرحمن بن باديس ١٨٨٩ - ١٩٤٠ م .

ومن حول هؤلاء جميعًا عرفت الأمة الإسلامية بداية أوسع تيارات التجديد في عصرها الحديث .

ونجد هذا التيار - مدرسة الإحياء والتجديد - عند "جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده" سلفي في أخذه عقائد الدين وأصوله على النحو النقي المبرأ من الخرافات والإضافات . وهي هنا سلفية تتفق مع الوهابية ، وخاصة في إزالة شبهات الشرك ، والوثنية ، والتوسل ، والوسائط عن عقيدة التوحيد ، ولكنه نظرًا لطبيعة الحركة واتساعها على مستوى العالم العربي ؛لم يقتصر في فهمه للإسلام "كحضارة وتراث" على فهم السلف الصالح له ؛ لأن الإسلام كحضارة ، وعلومه العقلية والفلسفية ، ومذهبه في التصوف الفلسفي كل ذلك قد حدث بعد عصر السلف ، وهو قد حدث لأن ضرورات موضوعية اقتضته ، ومن ثم فإن هذا التيار لايسقط هذا التراث من تراث الإسلام ، وهو لايعتبره بدعًا سيئة ؛ لأنه يحدد إطار البدع السيئة بما يجعلها خاصة بأصول الدين ، وعقائده الجوهرية .. ففيها لا ابتداع ولا تطوير مهما اختلف الزمان والمكان .

أما في الإسلام كحضارة وعلوم ، فإن التطور دائم والإضافات مستمرة ، ومن ثم فإن الابتداع هنا حسن وليس بالسيئ ، كما هو الحال في أصول الدين .

فهذا التيار سلفي تماماً في تصوره للذات الإلهية ، وهو يعلي من شأن العقل ، ويجعله معياراً وميزانا حتى بالنسبة للنصوص والمأثورات،وحتى لنستطيع أن نقول أن موقفه من العقل والفلسفة يجعله الامتداد المتطور لمدرسة المعتزلة -فرسان العقلانية في تراثنا القديم - .

وهو يسلك أيضًا سبيل التصوف الفلسفي - وليس الطرق الصوفية وشعوذتها - ويحله من العلوم والأنشطة العقلية مكانًا عليًا [١] .

والذي أود أن أؤكد عليه هنا أن السلفية في حقيقتها البعيدة تعني :

" المحافظة والرجوع لثوابت وجوهر الدين الإسلامي في أي مرحلة لتجديد دين الأمة الإسلامية " ، وبغير هذه العودة لايكون ثمة تجديد لدين الأمة ، وهذه نقطة مركزية في فهم وتحديد معنى التجديد في الدين الإسلامي . وإلا فماذا نجدّد ؟! .

وقد قاد هذا التيار التجديدي حركة اليقظة العربية في العصر الحديث ، وقاد النضال ضد الاستعمار في المنطقة العربية ، وتصدى للهجمة الاستعمارية العنيفة الكاسحة انطلاقًا من عقيدة الجهاد الإسلامية .

وكان يرى أن القاعدة الأساسية للإصلاح وتيسير الدين للدعوة هي الاعتماد على القرآن الكريم ، فالإصلاح الديني لايقوم إلا على القرآن وحده أولاً والسُّنَّة النبوية الشريفة ، ثم فهمه حراً صحيحاً .

ويجب أن نعي أن هذه الحرية هنا مقيدة بأصول وقواعد الفقه وثوابت الدين .

---

(١) تيارات الفكر الإسلامي . د/ محمد عمارة ، دار الشروق ، ط.١ ، ١٩٩٧م .

ولقد انطلق هذا التيار في دعوته لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد :

[١] الأمة الإسلامية أمة عريقة ، ولحضارتها مزاج ، وطابع خاص -إسلامي- ، وتتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات ، وتمثيلها للضمير في مواجهة حضارات تميل إلى طرف واحد . ويعطي هذا الحضارة الإسلامية ميزة فريدة ، ويعصمها من مخاطر وأخطار يشكو منها الآخرون .

[٢] أن للمزاج الحضاري المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة ، ومقومات هذا التكوين ، وليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضاري ، والقذف بها تحت عباءة الآخرين ، بل يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنيها مخلصين كانوا أم مخادعين .

[٣] أن الدعوة إلى "حضارة عربية إسلامية متميزة " لايعني تقديس الماضي ، ولا العودة إليه كي نعيش في نظمه وقوالبه ، بل ولا الاخذ بجميع أصوله ، وإنما الذي تعنيه هذه الدعوة هي الأخذ بالأصول التي تمثل القسمات المميزة للشخصية العربية الإسلامية .

وقد ساهم هذا التيار في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون ، كما شارك في إيقاظ وعي الأمة نحو التحرر ، وبعث الوطنية ، وإحياء الاجتهاد الفقهي لمواكبة التطورات السريعة في العلم ، ومسايرة حركة المجتمع وتطوره في مختلف النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية [١] .

---

(١) من المراجع هنا كتاب / زعماء العصر الحديث . احمد امين . مكتبة النهضة المصرية .

وأهم الأصول الفكرية لهذه المدرسة الإحيائية التجديدية :

[١] نقد ورفض الجمود والتقليد :

وذلك لما يضعه الجمود والتقليد من تعطيل لملكات الهداية والتعقل والتجدد، التي أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأيضاً لما يضعه هذا الجمود والتقليد من "فراغ فكري" .

ذلك ، كان نقد ورفض الجمود والتقليد أول الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد لأن هذا الأصل هو بمثابة تحطيم القيود التي تحول بين الأمة وبين الانعتاق من المأزق الحضاري الذي تردّت فيه ، والذي يمثل التخلف الموروث أحد وجهي عملته ، بينما يمثل الاستلاب الفكري والحضاري الغربي الوجه الثاني لعملة هذا المأزق الحضاري .

ولقد كان نقد ورفض مدرسة الإحياء والتجديد للجمود والتقليد عاماً ومطلقاً سواء أكان تقليداً للغرب وجموداً على فكرية التغريب ، أو تقليداً لتجارب الأسلاف والتراث الموروث؛ذلك لأن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ـ كما يقول الأفغاني : ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها ، والتمدن الغربي هو ـ في الحقيقة ـ تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الإنساني .. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب ثم يثبتون أقدامهم[١] .

فتقليد فكرية الحضارة يخلق "عملاء" لا "علماء" ، ذلك أن تميز حضارتنا

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني . ص ١٩٥ - ١٩٧ . دراسة وتحقيق: د محمد عمارة طبعة القاهرة ١٩٦٨م.

الإسلامية المؤسس على تميز شريعتنا الإسلامية ، يباعد بين الحضارة الغربية المادية النفعية ، وبين أن تكون نموذجاً في الإحياء والتجديد والنهوض .

ومدنية هذه الحضارة الأوربية – كما يقول الإمام محمد عبده – : هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج ، مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الأعلى هو "الجنيه" عند قوم ، والليرة عند قوم آخرين، لا دخل للإنجيل في شيء من ذلك[١] .

ويقترب من هذا التقليد "للآخر الغربي" تقليد الأسلاف المسلمين والجمود على الموروث الحضاري الإسلامي ، فهو وإن لم يدخل في " العمالة " للحضارة الغازية ، إلا أنه يضع الفراغ الفكري الذي يتمدد فيه فكر "الأعداء و العملاء" .

[٢] التجديد :

وهذا التجديد الذي يجمع بين سلفية العودة للمنابع والأصول الإسلامية وبين عصرية فقه الواقع المعيش واستشراف المستقبل ، هو في النسق الفكري الإسلامي ـ أكثر من مجرد خيار؛ لأنه " ضرورة إسلامية " اقتضاها ويقتضيها كون الشريعة الإسلامية هي الشريعة " العالمية "والخاتمة ، وبدون هذا التجديد ـ الضرورة ـ لاتتمكن الشريعة الإسلامية من أن تكون "عالمية" حقا ، ولا "خاتمة" حقًا ، أي أن التجديد هو السبيل لتحقيق إرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون شريعة محمد ـ ﷺ ـ ورسالته هي العالمية والخاتمة لرسالات السماء. .وأن تظل حجة الله على عباده قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذه الحقيقة من حقائق الأصول الفكرية لمدرسة الإحياء والتجديد ، كانت جهود هذه المدرسة معالم

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣ ، ص ٢٠٥ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

على طريق تجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين .

وانطلاقًا من الفكر النبوي ، الذي جعل التجديد سُنَّة الله وقانونًا من قوانين الفكر الإسلامي ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : " **يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**" رواه أبو داود . .

والذي جعل التجديد عامًّا في كل ميادين الفكر والعمل،قال الرسول ـ ﷺ ـ : " **إن الإيمان لَيخلَقُ في جوف أحدكم كما يَخلَقُ الثوب ، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**" . رواه الطبراني .

"**جددوا إيمانكم . . قيل : يا رسول الله ، وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إله إلا الله**" . رواه الإمام أحمد . .

وانطلاقاً من هذه التوجيهات النبوية ، التي جعلت التجديد سُنَّة وقانوناً عاماً وشاملاً أعلنت مدرسة الإحياء والتجديد معالم هذا المنهاج التجديدي ، فقال الإمام محمد عبده : لقد دعوت إلى :

- تحرير الفكر من قيد التقليد . .
- وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف . .
- واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري . .
- وإصلاح أساليب اللغة العربية . . .
- والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

- وقد خالفت في الدعوة إلى ذلك رأي طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم (١) .

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣ ، ص ٣١٨ . دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

[٣] الإصلاح بالإسلام :

والإصلاح يكون بالإسلام،وليس بالنموذج الحضاري الغربي والعلماني،الذي اقتحم عالم الإسلام في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة .. وعن ذات الأصل ـ الإصلاح بالاسلام.. لا بالتمدن الغربي ـ قال جمال الدين الأفغاني : " إن الدين هو أم الأمم ، وبه فلاحها ، وفيه سر سعادتها ، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. وإنا معشر المسلمين إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا ، وتأخرنا إلا عن هذا الطريق ، وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة ، من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن ، هو عين التقهقر والانحطاط لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية ، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب ، والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم علينا ، وبذلك تتحول صبغة الإسلام ، والتي من شأنها رفع راية السلطة والغَلَب، إلى صبغة خمول وضعة، واستئناس لحكم الأجنبي[١].

ويقول الإمام محمد عبده :

إن سبيل الدين ، لمريد الإصلاح في المسلمين ، سبيل لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد.. ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق ، وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني . ص ١٣١، ١٧٣، ٣٢٨ . دراسة وتحقيق : د محمد عمارة طبعة القاهرة ١٩٦٨م

العدول عنه إلى غيره ؟! (١) .

[٤] الوسطية الإسلامية :

والوسطية الجامعة هي صيغة العدل والتوازن ، التي ميزت الإسلام وشريعته وحضارته ، عندما جمعت بين الأصول والفروع ، بين الثوابت والمتغيرات ، بين المنابع والمصابّ ، بين الموروث الصالح والوافد النافع ؛ ولذلك كانت هذه الوسطية ـ لهذه الأمة الإسلامية ـ " جعلاً " إليها .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وفسرها الرسول – ﷺ – بأنها العدل الذي يجمع – بالتوازن – عناصر الحق والصواب من الأطراف والمصادر المختلفة ، وأحيانًا المتضادة ليؤلف بينها ، ويقيم منها سبيلاً وموقفًا وسطًا وجامعًا ، فقال ـ ﷺ ـ : " **الوسط العدل ، جعلناكم أمة وسطاً** " رواه الإمام أحمد . .

ويعبّر الإمام محمد عبده عن هذا الأصل فيقول: ظهر الإسلام لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك ، آخذاً من كلا القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره (٢) .

[٥] إعلاء مقام العقل :

العقلانية الإسلامية المؤمنة ضرورة دينية للإيمان بالله وصفاته ، ولفقه الدين

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣ ، ص ١٠٩ ، ٢٣١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣ ، ص ٢٤٢ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

وحيًا ونبوة ورسالة ، ومناطًا للتكليف بأوامر الدين ونواهيه ، وسبيلاً عقليًا لإبلاغ دعوته وإقامة حجته ، وإزالة الشبهات عن أصوله ومقاصده . وذلك فضلاً عن كونها شكرًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي أنعم بنعمة العقل على الإنسان ؛ ولذلك شاعت في أدبيات هذه المدرسة الإحيائية أحاديث إعلاء الإسلام مقام العقل ..

فهذه العقلانية الإسلامية المؤمنة قد آخت بين العقل والنقل ، وبين الحكمة والشريعة ، على النحو الذي صوره أجمل تصوير حجة الإسلام أبو حامد الغزالي عندما قال : " إن أهل السُّنَّة . . . قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن . . . وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر . وإن من تغلغل . . . في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر ، فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. . . . فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والآذاء ، ومثال القرآن : الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء . فالمعرض عن العقل ، مكتفيًا بنور القرآن ، مثال : المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور على نور . . . " (١) .

وإن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحى إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته .

والله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولا حدّ . . والوقوف عند حد فهم العبارة مضرٌ بنا ، ومنافٍ لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد . ص ١ ، ٢ . الإمام أبو حامد الغزالي . تحميل الكتاب من شبكة الإنترنت .

ومع هذا الإعلان لمقام العقلانية المؤمنة ، هناك ـ في فكر هذه المدرسة الإحيائية ـ الحذر والتحذير من العقلانية اللادينية،التي تكتفي بالعقل عن النقل، والتي تستغني بالنسبي عن المطلق والكلي والمحيط .. فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه مافيه سعادته في هذه الحياة..؛ لهذا كان العقل محتاجًا إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة .

[٦] الوعي بسُنن الله الكونية :

تلك التي تحكم سائر عوالم المخلوقات ، والتي تمثل قواعد علم الاجتماع الديني في التقدم والتخلف، في النهوض والانحطاط ، في الانتصارات والهزائم ، وفي التدافع بين الدعوات والأمم والحضارات .

ولقد دعت أدبيات هذه المدرسة الإحيائية إلى تأسيس علم السُنن والقوانين الإلهية في الاجتماع الإنساني .

وقال الإمام محمد عبده – في تفسيره قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ .
[آل عمران : ١٣٧] .

إن إرشاد الله إيانا أن له في خلقه سُننًا ، يوجب علينا أن نجعل هذه السُنن علمًا من العلوم المدونة ، لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه ، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سُنن الله في خلقه ، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن الكريم بالإجمال ، وبيّنها العلماء بالتفصيل ، عملاً بإرشاده ، كالتوحيد وأصول الفقه . والعلم بسُنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها ، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على ماخذه من احوال الامم ، إذ أمرنا ان نسير في الارض لأجل

اجتلائها ، ومعرفة حقيقتها .. إن لله في الأمم والأكوان سُننًا لا تتبدل، وهي التي تسمى شرائع ، أو نواميس، أو قوانين.. ونظام المجتمعات البشرية، وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في المجتمع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليه أعماله ، ويبني عليها سيرته ، وما يأخذ به نفسه...[1] .

[٧] الدولة في الإسلام « مدنية ـ إسلامية ».. لا كهنوتية .. ولا علمانية :

ولأن " الدولة " لم ترد في أصول الإيمان ، ولا في أركان الإسلام .. كانت ككل النظم الحياتية إبداعًا مدنيًا إنسانيًا ،وجزءاً من الاجتهادات البشرية المتطورة، تقيمها الجماعة المؤمنة لتحقيق المقاصد الدينية والدنيوية . ومصدر إقامتها والسلطة ، والسلطان فيها هو الأمة ، بشرط ألاّ تخرج هذه السلطة ، ولا هذا السلطان عن الشريعة ـ التي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف ـ فالأمة مستخلفة لله ، والدولة مستخلفة عن الأمة.. وكلاهما : " الأمة والدولة " محكومة سلطتهما بإطار الثوابت الشرعية .

وبهذا التصور تميزت وتتميز الدولة الإسلامية عن دولة الكهانة الكنسية التي دمجت الدولة في الدين ، وغابت عنها الأمة .. وعن الدولة العلمانية ، التي فصلت بين الدولة والدين ، فغابت عنها الشريعة ..

وعن هذا الأصل من أصول الفكر في مدرسة الإحياء الديني ، يقول الإمام محمد عبده :

" ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة،والدعوة إلى الخير،

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٥، ص ٩٤، ٩٥، ج ٣، ص ٢٨٤ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ـ طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

والتنفير من الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين،يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم .. أصل من أصول الإسلام ـ وما أجلّه من أصل ـ قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسه ، هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها،حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ، ولا رسم.

ولم يدع الإسلام لأحد ـ بعد الله ورسوله ـ سلطانًا على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه ، فليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.. والإسلام يحدد أن الأمة ، أو نائب الأمة هو الذي ينصب الخليفة ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه . ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج " ثيوكراتيك " أي : سلطان إلهي.. وكذلك القاضي ، والمفتي ، وشيخ الإسلام.. لم يجعل الإسلام لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدّعى حق السيطرة على إيمان أحد ، أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريقة نظره ، إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية ، وهي دعوى القداسة والوساطة عند الله ، ودعوى التشريع والقول على الله دون إذن الله . أو السلطة الدنيوية وهي سلطة الملك والاستبداد ، فالمؤمن لا يرضى لنفسه أن يكون عبداً لبشر مثله للقب ديني أو دنيوي ، وقد أعزه الله بالإيمان ، وإنما أئمة الدين مبلّغون لما شرَعه الله، وأئمة الدنيا منفّذون لأحكام الله ، وإنما الخضوع الديني لله ولشرعه، لا لشخوصهم وألقابهم .

ومع هذا.. فالإسلام دين وشرع .. لم يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده في عمله .. فكان الإسلام :

كمالاً للشخص ، والفة في البيت ، ونظاماً للملك ، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه .. " [١] .

[٨] الشـــورى :

فالدولة الإسلامية - بل وكل ميادين الاجتماع الإسلامي - مؤسسة على الشورى ، التي يشارك فيها وبها كل إنسان في العمل العام ، وذلك من خلال وبواسطة المؤسسات الشورية ، والنيابية ، والدستورية .. " فلابد من إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، وذلك بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين .. والقوة النيابية لأي أمة كانت لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقي إلا إذا كانت من نفس الأمة .. وبذلك يشارك الأهالي بالحكم الدستوري الصحيح .. والأمة هي التي تُملِّك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي ، وتُتوِّجُهُ على هذا القسَم ، وتعلنه له : يبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظاً أميناً على صون الدستور ، وأنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة ، إما أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا رأس .. " [٢] .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول على هذا النهج من المراقبة للقائمين بالأعمال العامة ، حتى كان الصعلوك من رعاة الإبل يامر مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه – وهو أمير المؤمنين – وينهاه فيما يرى أنه الصواب .. " [٣] .

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٣، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٨٥ : ٢٨٨ ج ٤، ص ٤١٢ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني . ص ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩ – طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج ٥، ص ٥٩ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

[٩] العدالة الاجتماعية :

التي تحقق التكافل الاجتماعي بين الأمة كلها ، فالإخاء الذي عقده المصطفى – ﷺ – بين المهاجرين والأنصار ، وكان أشرف عمل تجلّى به قبول اشتراكية الإسلام الوسطية – التي أشار إليها القرآن بأدلة كثيرة .. والمغايرة لاشتراكية الغرب القائمة على التطرف وروح الانتقام من جور الحكام والأحكام – ذلك أن تنعم فريق من قوم وشقاء فريق آخر ، في محيط واحد ، وبمساع ليس بينها وبين مساعي الآخرين كبير تفاوت ، مما لا يتم به نظام الاجتماع(١) .

والله – سبحانه وتعالى – عندما أضاف مصطلح " المال " في القرآن الكريم إلى ضمير " الفرد " في سبع مرات وإلى ضمير " الجمع " في سبع وأربعين مرة ، أراد أن ينبّه بذلك " على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها ، فكأنه يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم.. " (٢) .

[١٠] إنصاف المرأة :

إنصاف المرأة لتشارك مع الرجل في القيام بفرائض وتكاليف العمل العام ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وبدون هذا الإنصاف لاقيام للأسرة ، التي هي اللبنة الأولى والأساسية في بناء الأمة .." فالأمة تتكون من البيوت ـ العائلات ـ ، فصلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة. .والرجل والمرأة يتماثلان في الحقوق والأعمال،كما أنهما يتماثلان في الذات والشعور، والعقل.

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني . ص ٤١٤ – ٤١٧ . دراسة وتحقيق: د محمد عمارة طبعة القاهرة ١٩٦٨م.

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٥، ص ١٩٤ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٩٣م.

ثامناً: أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ

(١٣٢١ـ١٣٩٩ هـ/ ١٩٠٣ـ١٩٧٩ م)

وتأسيس الجماعة الإسلامية

في الوقت الذي كانت أوروبا الاستعمارية قد جعلت صدور المسلمين أغماداً لسيوفهم ، كان قطاع من الهنادكة في الهند ينتقدون الإسلام زاعمين أنه قد انتشر بالسيف ، وليس بالحجة ، والقدوة ، والمنطق ، والبرهان ! .

ويومها وجه الزعيم المسلم الهندي " محمد علي جواهر " نداءه إلى الشباب المسلم أن يردوا على هذا الاتهام والذي شارك فيه الزعيم الهندي " غاندي " ، واستجاب للنداء أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ ؛ فكان طليعة تآليفه الإسلامية كتاب " الجهاد في الإسلام " ، الذي اكتمل ١٩٢٨ م ؛ ليكون استهلالاً لإحدى فصائل الصحوة الإسلامية في الهند وباكستان ، والتي قادها أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ .

وقد أسس أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ مع خمسة وسبعين رجلاً "الجماعة الإسلامية" ، واختاروه أميراً لها في ٣ شعبان ١٣٦٠ هـ /٢٦ أغسطس١٩٤١م . وتصدّت هذه الجماعة للواقع ؛ لتجديده وتغيّره [١] .

وبداية لابد من ملاحظ أن أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ بدأ دوره في التجديد بإدراك طبيعة العصر وخصوصيته ؛ لذلك نجد أن تجديد هذا العالم الجليل في بعض اتجاهاته قد بدأ يتجاوز بيئته في الهند وباكستان ؛ ليشمل مختلف المجتمعات الإسلامية في العالم ، ووضحت معه معالم أشمل وأعم

(١) الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ ، ١٩٩٦ م .

لتجديد دين الأمة الإسلامية في مختلف بلاد الإسلام . وهو يؤكد على هذه الطبيعة الجديدة لتجديد دين الأمة الإسلامية في معظم ما كتبه ، فنجده يقول موجهًا حديثه لعموم المسلمين :

" فالمستعمر الغربي قد غلب المسلمين بالعدوان المادي والفكري على الدنيا وعلى الدين ؛ لقد احتلوا الأرض ، ونهبوا الثروة ، واستعبدوا البشر ، وفوق ذلك طاردوا الإسلام ؛ حتى طردوه من المؤسسات الإسلامية " مدرسة - محكمة - ديوانًا " ، وجعلوا شرائعهم هي الحاكمة في بلاد المسلمين بدلاً من شريعة الله ، وحرسوا ذلك الانقلاب بجيوشهم ، وبالذين تغربوا ممن ينتسبون إلى الإسلام ، وساعدهم على ذلك ما وجدوه في بلادنا التي تعيش جاهلية موروثة منذ قرون عديدة .... لقد فتحت الجاهلية الموروثة الباب للجاهلية الحديثة ، وأغرت الوحش بضعف الفريسة (١) .

ويقول المودودي ـ رحمه الله ـ : " فلابد أن نحلل مزيج الإسلام والأوضاع القديمة الغير إسلامية . . ثم نميز الأوضاع القديمة غير الإسلامية ، ونأخذ جوهر الإسلام الخالص والذي يثبت خلوصه ونقاءه إذا عرضناه على مقياس الكتاب والسُّنَّة . ولابد من انجاز ذلك مهما كانت مقاومة الذين لهم ولع شديد بجزء من أجزاء هذه الأوضاع القديمة .

ذلك هو السبيل لمواجهة الجاهلية الموروثة ، وتلك واحدة من مهام المجابهة والتصدي للتحدي الحضاري المفروض على الأمة الإسلامية " فكرة التغريب " الوافدة مع الغزو الاستعماري (٢) .

---

(١) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص١٢٩ . أبو الأعلى المودودي . ترجمة محمد عاصم الحداد . الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ١٧٨،١٧٩ أبو العلى المودودي . ترجمة محمد عاصم الحداد . ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

لقد كان التغريب هو الطامة الكبرى على المجتمعات الإسلامية ، والتي تصدي لها العالم الجليل أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - والجماعة الإسلامية ، بل لقد كانت هذه الفكرية التغريبية هي التي استفزت الضمير المسلم في الهند ، فعلى قدر خطورة التحدي كان الرد الذي انبعث لمواجهته .

ونلاحظ هنا ترابط الفكر التجديدي في المجتمعات الإسلامية رغم اختلاف البيئة ، والظروف الداخلية ، وبعد المسافة بينها . مما يؤكد حقيقة أن تجديد دين الأمة الإسلامية بدأ يأخذ أبعاداً جديدة تناسب " عالميته " مع عالم بدأ يدخل حثيثًا في عولمة شاملة .

لقد أدرك الأستاذ المودودي - رحمه الله - في الهند ما أدركه الشيخ حسن البنا في مصر ، من أن الخطر الأعظم للغزوة الاستعمارية الغربية على بلاد الإسلام ماثل ومتمثل في الجانب الفكري والحضاري؛ فهو يثير دهشة وإعجاب الصفوة المثقفة، على حين يستفزها ويغضبها جانب الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية ، والنهب الاقتصادي ، وهذا هو مكمن الخطورة الحقيقي على المجتمعات الإسلامية؛ حيث ترى الصفوة المثقفة المتغربة أن نهضتنا المنشودة وقوتنا المأمولة ، بل وانعتاقنا وتحررنا من الغرب هي في سلوك طريقه والتشبه به ، أي في التخلي عن موروثنا القديم ذي الصورة العاجزة الكريهة - كما يرون - واختيار الوافد الغربي الحديث ! .

لقد كان الحفاظ على القومية الإسلامية والذاتية المتميزة للحضارة الإسلامية هو المهمة العظمى لدعوة المودودي - رحمه الله - وحركته ، والبوصلة التي حددت اتجاهه في كل الميادين ، وكانت المبرر لتحالفاته ومعاداته .

كما كان الصراع ضد الهندوك على مقدرات المسلمين في الهند معركته الكبرى ، التي ارتبطت بها معظم المعارك الفرعية والجزئية التي خاضها على

مختلف الجبهات .

ولقد أجاد العالم الجليل أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - عند تصديه لرفض النموذج الغربي ونقد الحضارة الغربية ، أو " الجاهلية الحديثة والمعاصرة " - كما كان يسميها أحيانًا - ، مع العلم أنه لم يكن صاحب موقف متعصب من الحضارة الغربية بكل جوانب إبداعها، ولم يكن ذا عقل مغلق على الاستفادة من إنجازاتها ذات الصبغة العلمية والعالمية ، التي لاتمثل خطرًا على الذاتية الحضارية للأمة الإسلامية .

وكان المودودي - رحمه الله - مصرًا على الاجتهاد مما أثار عليه العلماء التقليدين في عصره - في مجتمعه - الذين كانوا يقولون : " إننا نرى التقليد شيئًا لازمًا في هذا العصر ، ونرى أن شروط الاجتهاد - التي اشترطها السلف - مفقودة في علماء العصر " (١) .

[أ] فكره السياسي :

لقد صاغ المودودي - رحمه الله - فكره السياسي في إطار إسلامي جديد ، أفاض فيه الحديث عن : " القومية " ، "والديمقراطية والحاكمية الإلهية " ، ما بين ١٣٥٦- ١٣٦٠هـ / ١٩٣٧ - ١٩٤١ م .

القـــومـــيـــة :

وفي هذه الفترة كانت الهند تغلي بالثورة الوطنية الديمقراطية ضد الاستعمار الإنجليزي ، وكان حزب المؤتمر الهندي يسعى للحصول على الاستقلال وإقامة

---

(١) المودودي .. ما له وما عليه .ص ٨٥ . محمد زكريا الكاندهلوي .

الهند الموحدة على أساس أن الهند تكون " قومية واحدة " ؛ لأنها وطن واحد ، ولقد تبنى حزب المؤتمر الهندي " العلمانية " باعتبارها الحل الأمثل في بلد تتعدد فيه الديانات .

لقد ضم حزب المؤتمر الوطنيين الهنود على اختلاف دياناتهم ، لأنهم اعتبروا " وحدة الوطن السياسية " أرضًا صالحة لقيام قومية سياسية واحدة .

ونجد المودودي ـ رحمه الله ـ ببعد نظره وبصيرته الإسلامية النافذة يدرك خطورة هذه الدعوة .

ثم يرصد بدقة أن هذا هو هدف الوطنين الهنود ؛ فيقول إن الخصائص الثلاث للحكومة الحرة التي يريدها الوطنيون الهنود هي :

أولاً : دولة وطنية ، أي " قومية " بمعنى الاعتراف بجميع مواطني الهند كأمة واحدة ، ورفض فكرة كونهم أممًا متعددة .

ثانيًا : دولة ديمقراطية ، بمعنى الاعتراف بأن جميع سكان الهند يمثلون مجموعة واحدة يطبق عليها مبدأ تحقيق الأغلبية .

ثالثًا : دولة علمانية ، بمعنى أن الدولة لا تعترف بأديان الأمم المختلفة بالهند .

ثم يستطرد المودودي ـ رحمه الله ـ فتساءل قائلا : " وعلينا الآن أن ندقق في نوعية هذه الدولة أساساً :

- هل يمكن لنا كمسلمين أن نجعل من مثل هذه الدولة هدفًا لنا ؟! .
- هل يمكننا أن نعيش بداخل هذه الدولة كمسلمين ؟! .
- هل يجوز لنا أن نساهم في الجهاد والنضال من أجل إقامة مثل هذه الدولة ؟! [(١)] .

---

(١) الأمة الإسلامية وقضية القومية . ص ٩٤ ، ٩٥ . أبو الأعلى المودودي . ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم .

ولقد كانت إجابة المودودي -رحمه الله- على هذه التساؤلات بالنفي .. النفي الذي وجه فيه وبه كل النقد إلى مثل هذه" الدولة القومية الديمقراطية العلمانية " والذي أسيئ تفسيره كثيراً في مجتمعنا العربي .

ويجب أن ندرك خصوصية هذا الموقف وارتباطه بالبيئة والظروف في الهند، وخطأ تعميم ذلك على الوطن العربي، فلقد كان عداء المودودي -رحمه الله- للقومية والديمقراطية مرتبطًا بالظرف الخاص الذي كان عليه المسلمون بالهند في ذلك التاريخ ، ولم يكن عداؤه للقومية والديمقراطية عداءَ مبدأ ؛ لتعارضهما مع مذهب الإسلام في بناء الدولة وسياسة الأمة .

فلقد كانت نسبة المسلمين في الهند إلى سكان عموم الهند في ذلك التاريخ هي نسبة الربع إلى الثلاثة أرباع ، وكان معنى " الدولة القومية الواحدة التي تحكمها الأغلبية وفقًا للديمقراطية " يعني :

- " حكم الهنادكة وتحكمهم الدائم في المسلمين ، بما وراء ذلك من إضرار بالمسلمين وبإسلامهم " .

وقد أعلن بوضوح أن الأغلبية " الهندوكية " ليست من نوع الأغلبية المألوفة في الدول الديمقراطية - الأغلبية المؤسسة على الرأي وعلى الفروع - ، والتي تتحول فيها الأقلية إلى أغلبية ، أو العكس ؛ ذلك لأن التمايز بين الهنادكة والمسلمين ليس في الفروع ، وإنما هو في الأصول الحضارية الثابتة ، ومن ثم فستظل الأغلبية أغلبية أبداً ، وستظل الأقلية أقلية أبداً .

وذلك يعني السيطرة الأبدية للهنادكة على المسلمين ، بما يعني - تبعًا لظروف الهند - من إضرار بإسلام هؤلاء المسلمين ، ومقوماتهم الحضارية الخاصة .

فالمودودي -رحمه الله- يميز هنا بين " القومية السياسية " القائمة على وحدة الوطن دون وحدة الحضارة ، وبين " القومية الحضارية " التي تؤلف بين جماعة

من البشر ـ أصولهم الحضارية واحدة ـ ؛ فيرفض الأولى لأنها هي التي تجمع كل سكان الهند ، والتسليم بها كأساس لبناء الدولة الديمقراطية ، الذي سيؤدي حتمًا إلى تحكم الأغلبية الهندوكية في المسلمين في الهند بصورة دائمة وأبدية .

وهو يحبذ الثانية ؛ لأن المسلمين في الهند بمقياسها قومية متميزة ، ومن ثم فلابد من ذاتية سياسية متميزة تمكنهم من الحفاظ على خصوصيتهم الحضارية وتنميتها .

فالعداء هنا للقومية التي ستسحق مقومات المسلمين الحضارية ، ولو كان الحال غير ذلك ، والهند قومية حضارية وثقافية واحدة ، أو لو أن المسلمين فيها أغلبية لما عارض المودودي ـ رحمه الله ـ القومية (١) .

ثم طرح المودودي ـ رحمه الله ـ تصوراته حول نظام الحكم المشترك الذي يمكن أن يتحقق داخل الهند بطريقة سلمية بعد استقلالها ويقبله المسلمون ، وهذه التصورات هي :

[١] الاتحاد الفيدرالي .

[٢] تميز القوميات في مناطق محددة جغرافية ، مع إحداث إبدال سكاني خلال ربع قرن أو أكثر ، يصحبه تزايد استقلال الدول ، وتقليل صلاحيات المركز .

[٣] انفصال الولايات الإسلامية واستقلالها واتحادها ، وكذلك الولايات الهندوكية مع إقامة تحالف وتعاون بينها . وهي تصورات مؤسسة كلها على المعيار القومي .

ولقد تحقق الحلم ، وأصبح واقعًا في قيام وطن مستقل لمسلمي الهند

---

(١) الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري . ص ١١٨ د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ / ١٩٩٦ م .

"باكستان" ، وقد كان المودودي -رحمه الله- يسميها " بيت الإسلام " ، ولقد قامت باكستان ١١ شوال ١٣٦٦ هـ / ٢٨ اغسطس ١٩٤٧ م .

وكما هو واضح ، فالفكرة التي طرحها المودودي -رحمه الله- وموقفه من القومية خاص بهذا المجتمع المسلم في هذه الفترة في الهند .

لذا كان وقوع بعض الصفوة من المسلمين في المجتمع العربي في خطأ كبير عندما أخذوا موقف العالم الجليل ابو الأعلى المودودي -رحمه الله- ورفضه للقومية في الهند ، ثم محاولتهم تطبيقه في المجتمعات العربية ، التي يصل نسبة المسلمين بين سكانها قرابة الـ ٩٥ ٪ من مجمل السكان ، وهم عرب عدا اقلية لاتكاد تذكر .

ويجب الانتباه إلى ضرورة ، بل وحتمية تبني كافة القوميات الإسلامية في العالم الإسلامي للعروبة واللغة العربية في أمر تجديد دين الأمة الإسلامية في هذه المرحلة من عمر البشرية ، وهو أمر لامفرّ منه للمسلمين في ظل فهم صحيح للعروبة ؛ ولحاجة المسلمين للغة العربية ، كما نص على ذلك القرآن الكريم في آيات كثيرة .قال تعالى :

- ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف : ٢].
- ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [فصلت : ٣] .
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣ ﴾ [طه : ١١٣] .

وكما وضحه الرسول الكريم - ﷺ - عندما قال :

" .. أيها الناس ، فإن الرب واحد ، والأب واحد ، والدين واحد ، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا بأم ، إنما هي لسان . فمن تكلم

بالعربيـة فهو عربي .... " (١) .

[ب] الديمقراطية والحاكمية الإلهية :

وكان موقف المودودي ـ رحمه الله ـ هنا يمثل رؤية إسلامية جديدة ، وفكر تجديدي تجاوز به حدود بيئته ومجتمعه في الهند وباكستان ليشمل كافة المسلمين في العالم الإسلامي ، والتي تناولها البعض ـ قصداً أو دون قصد ـ لتشويه صورة الإسلام والمسلمين . ومما يؤسف له وقوع غالبية من المثقفين العرب والمسلمين وعامتهم في هذا الفهم الخاطئ ، وشيوع هذا الخلط في المفاهيم حول الديمقراطية في المجتمعات العربية والإسلامية . مما يحتاج إلى إجلاء الغموض وتوضيح المفاهيم حول الديمقراطية .

نعم قال أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ : بأن الحاكمية لله ، وقال إن وضعية الدولة الإسلامية أنها ليست دولة ديمقراطية ، فإن الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعًا .. وهي ليست من الإسلام في شيء ، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية ... (٢) .

نعم ، لقد قال عالمنا الجليل هذا ومثله كثير ، ولكن علينا هنا أن نحدد معاني المصطلحات بدقة حتى لايحدث خلل في الفهم .

ومصطلح الديمقراطية ـ كما نعلم جميعًا ـ هو مصطلح غربي ، وعندما يطلقه الغرب أو غيرهم من غير المسلمين يعني " حاكمية الجماهير " ، وسيادتها المطلقة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ١ / ٤٦٠ . احمد بن عبد الحليم بن تيمية . الرياض : دار العاصمة . ط ١ / ١٩٩٨م . درجة الحديث ضعيف ، لكن معناه ليس ببعيد بل هو صحيح من بعض الوجوه ، ورواه بلفظ مختصر ناصر الدين الالباني في سلسلة الاحاديث الضعيفة والموضوعة واثرها السيء في الأمة ج ٩٢٦ . الرياض : مكتبة المعارف . ط ٢ . ٢٠٠٠ م . ودرجته ضعيف جداً ، وبلفظ مختلف في تهذيب تاريخ ابن عساكر . جـ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

(٢) نظرية الإسلام السياسي . ص ٣٣ ، ٣٤ . ابو الاعلى المودودي . جدة : الدار السعودية . ط١ . ١٩٨٥ م

من كل قيد سوى ما تصنعه الجماهير لنفسها . وهو ما قاله المودودي ـ رحمه الله ـ وكان يقصده بكل وضوح عندما رفض الديمقراطية [١] .

فمعنى الحاكمية عنده وعند كافة المسلمين يعني السلطة المطلقة .. وهي لاتطلق إلا على الـ " فعال لما يريد " ، والذي لا يُسأل عما يفعل [٢] .

والآن نكتفي بأن نسألْ : هل يدّعي مسلم مهما بلغ إيمانه بالديمقراطية أن الجماهير يجب أن تكون في ديمقراطيتنا مطلقة السلطة، فلا تسأل عما تفعل ؟ وتفعل ما تريد ؟ حتى لو أحلت الحرام ، وحرمت الحلال الثابت دلالةً وورودًا عن الله سبحانه وتعالى ؟! .

أم أن سلطة الجماهير وسلطان الأمة وسلطاتها يجب أن تقيد بما قطع فيه الله بالتشريع ؟ فهي حرة داخل الإطار الإلهي .

إذًا هناك فرق كبير يجب أن ندركه عند استخدام المصطلحات ، وهو ما فصّله عالمنا الجليل . فالمرجعية في الديمقراطية الغربية في سن القوانين والتشريعات هي الجماهير فقط ـ الأغلبية ـ ، وما ترتضيه تلك الجماهير فلا قيد ديني ، أو غيره طالما وافقت الجماهير ـ الأغلبية ـ عليه حتى ولو سنت قوانين تسمح بممارسة الشذوذ الجنسي ، أو زواج المثلين أو........ إلخ هذه هي الديمقراطية التي يرفضها الإسلام .

ثم يوضح لنا المودودي ـ رحمه الله ـ الحرية والديمقراطية التي يقبلها الإسلام فيقول : " إن مجالس الشورى أو البرلمانات لايباح لها أن تسن نظامًا أو تصدر حكمًا فيما ورد فيه نص صريح واضح في شريعة الله .. أما ما لم يرد فيه نص

---

(١) الإسلام والمدنية الحديثة . ص ٣٦ ، ٣٧ . أبو الأعلى المودودي . الرياض : الدار السعودية . ط ٩ . ١٩٨٧ م .

(٢) تدوين الدستور الإسلامي . ص ٢٥١،٢٥٣ . أبو الأعلى المودودي . ترجمة عاصم الحداد . الرياض : الدار السعودية . ط٢ / ١٩٨٧م .

شرعي - وهو المجال الأوسع - فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا في سَنّ الأنظمة التي تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة .. على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة ولاتخالفها (١) .

وبعد أن أوضح موقف الإسلام ، والذي لاخلاف عليه بين كافة المسلمين وهو " نفي الحاكمية البشرية المطلقة " في الإسلام لفرد ، أو طبقة ، أو كهنة ، أو جماعة ... إلخ ، تحدث عن خلافة الإنسان ونيابته عن الله ، فالأمة نائبة عن الله ، وهي تنتخب حاكمها ونوابها وأهل الحل والعقد فيها بطريقة ديمقراطية ، الأمر الذي يجعل الخلافة الإسلامية "ديمقراطية" على العكس من القيصرية أو البابوية.

ويستطرد قائلاً : " .. إن ديمقرطيتنا الإسلامية هي كديمقراطية الغرب لاتتألف فيها الحكومة ، ولا تتغير إلا بالرأي العام ، ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية، متقيدة بقانون الله - عز وجل - (٢) .

ولذلك نجده يقول بصراحة ووضوح : " إنه لا يمكن لأي عاقل أن يعارض الديمقراطية ، ولايمكنه القول بأنه يجب أن يكون هناك حاكم ملكي ، أو أرستقراطي ، أو أي نوع آخر من أنواع الحكم ... " (٣) .

والأمر قد وضح الآن ، ولا خلاف بين كافة المسلمين علي ذلك ، ولكن لكي تتحقق الفائدة يجب علينا أن ننشر مثل هذه المفاهيم بين خاصة المسلمين وعامتهم ، فلم تعد هذه الأمور خاصة بالمثقفين أو بطبقة المتعلمين ، بل أصبحت من أمور عامة الناس ، تقذف بها وسائل الإعلام ليل نهار ، وتقتحم بها البيوت

---

(١) الإسلام والمدنية الحديثة . ص ٤٠ .أبو الأعلى المودودي . الرياض : الدار السعودية . ط ٩ . ١٩٨٧ م .

(٢) تدوين الدستور . ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ . أبو الأعلى المودودي. ترجمة عاصم الحداد . الرياض : الدار السعودية . ط٢ ، ١٩٨٧ م .

(٣) المسلمون والصراع السياسي . ص ١٠٨ . أبو الأعلى المودودي .

والأندية ومختلف التجمعات البشرية ، والتي يحدث عدم وضوحها لدي المسلمين وعدم تثقيفهم بها الكثير من الخلل والخلاف .

وهكذا ، اتضح لدينا فكر الجماعة الإسلامية في "الهند وباكستان" ، والذي مثّل المجابهة الإسلامية للتحدي الحضاري الذي فرض على المسلمين في الهند ، ولقد اقتضت هذه المهمة الحضارية التاريخية مهمة - البعث الإسلامي الجديد - في هذه البيئة ، وتلك الظروف التي تمر بها البلاد ، اقتضت " كتيبة مناضلة " ؛ لتحقيق الإنقلاب الإسلامي ، وبالثورة الإسلامية القادرة على مواجهة التحدي في كل ميادينه ، ولم يكن المطلوب مجرد " حلقة إسلامية " تلتف حول مجتهد جديد .

فالجماعة الإسلامية وليس المجتهد الفرد ولا الأفراد الذين ينقصهم التنظيم هي السبيل الوحيد لحمل هذه الأمانة الكبرى ، بل قد رآها المودودي - رحمه الله - السبيل لتحقيق فكرة خلافة الإنسان عن الله في الأرض (١) .

وتميز أسلوب الجماعة الإسلامية لتحقيق البعث الإسلامي في هذه البيئة ، وتلك الظروف في مرحلتين :

[١] المرحلة المبكرة :

والتي كان داعيًا فيها للثورة ، وهي مرحلة المواجهة مع الإنجليز والهنادكة . وكان يدعو فيها إلى خلق العقلية الثورية والفكر الثوري ، وإن يكن بالتدرج ، وكان يوضح عدم جدوى التدابير القانونية في الإصلاح خلال هذه المرحلة . إذ لابد من الأسلوب الثوري ، وذلك نتيجة لما وصلت إليه الظروف .

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية . ص ٤٠ . ابو الأعلى المودودي . بيروت : مؤسسة الرسالة . ط١ . ١٩٨٠ م .

المرحلـــة الأخيـــرة :

وهي مرحلة ما بعد قيام باكستان ، وهي المرحلة التي استقلت فيها القومية الإسلامية . وكان يقول فيها " إن التغيير ليس له من سبيل في نظام ديمقراطي إلا الخوض في معارك الانتخابات ؛ وذلك بأن نربي الرأي العام في البلاد ، ونغير مقياس الناس لممثليهم ، ونصلح طرق الانتخابات ، ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم إلى رجال صالحين يحبون أن ينهضوا بنظام البلاد على أسس الإسلام الخالص "(١)

وكان هذا هو النهج الإصلاحي الذي تحول إليه المودودي في مرحلته الأخيرة . وبعد قيام باكستان طالب بتشكيل النظام الباكستاني طبقًا للقانون الإسلامي ، ورغم تكرر اعتقاله إلا أن نضاله هو والجماعة الإسلامية ظل مستمرًا من أجل باكستان ، ومن أجل البعث الإسلامي إلى آخر حياته .

وكان نموذجًا للداعية المجتهد ، تخطى فكره التجديدي حدود القومية ، ونطاق المكان ، وانتقل إلى جوار ربه في آخر شوال ١٣٩٩ هـ / ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩ م وقد ترك فكرًا ، وترك ثروة من مؤلفاته بلغت سبعين كتابًا ورسالة



(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه ، وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم . أبو الأعلى المودودي . الدار السعودية للنشر والتوزيع

تاسعاً : الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ

(١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م)

جماعة الإخوان المسلمين

(١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م)

كان الوطن العربي والعالم الإسلامي يعيش في حالة من التردي شملت جميع جوانب حياته ، وانتهى إلى مأزق تاريخي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (١٣٢٢ ـ ١٣٣٧ هـ / ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م) ، فقد سقط الوطن العربي بأكمله تقريباً تحت الاحتلال الاستعماري الغربي ، وسقطت الخلافة العثمانية على يد العلمانية التركية بزعامة كمال أتاتورك سنة (١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م)

وعلا صوت التغريب في العالمين العربي والإسلامي ، وانتشر خطره . ووضحت مخاطر العلمانية على شمولية الإسلام ، وأوشك العالم الإسلامي والعالم العربي أن يتحول إلى هامش للحضارة الغربية بعد أن تحول إلى هامش لاقتصاد الغرب وأمنه

ونجد في (١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥م) الشيخ الأزهري المصري علي عبد االرازق ينشر كتابه "الإسلام وأصول الحكم" ويزعم فيه – لأول مرة في تاريخ الإسلام – أن الإسلام دين لادولة ، وكأنه ينظر بهذا الكتاب لسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية عندما ينفي عن نظامها أية علاقة بالإسلام الدين !

وكان وقع الكتاب كالصاعقة على العقل المسلم ، فلم يقل أحد بذلك من قبله ، ولا حتى المستشرقين أو أعداء الإسلام

وفي سنة (١٣٤٤ هـ /١٣٢٦ م) ينشر د. طه حسين كتابه "في الشعر

الجاهلي" ، والذي استخدم فيه "الشك الديكارتي للتشكيك" في الشعر الجاهلي ، ثم تجاوز نطاق الشعر ، وشكك في بعض قصص القرآن الكريم من أمثال قصة "إبراهيم الخليل عليه السلام" .

وبدت المواجهة ضد الإسلام تأخذ طابعًا جديدًا في العصر الحديث ، فهي موجهة للدين الإسلامي كعقيدة وتشريع تحاول تهميشه وتذويب الهوية الإسلامية ، وتمسخ الشخصية الحضارية والقومية ، وفي هذا المنعطف التاريخي عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد ، فتطلعت الأمة بالفطرة والوعي معًا إلى حصنها العتيد ـ الإسلام ـ ، وكان أن أبرز وتعاظم تيار الصحوة الإسلامية الذي تبلور هذه المرة منظمًا ـ جماهيريًا ـ . والذي بدأ بتأسيس الشيخ الإمام " حسن البنا " لجماعة الإخوان المسلمين ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م .

وقد أخذت حركة الإخوان المسلمين بكل وضوح طبيعة العصر الحديث ؛ فكانت حركة تجديد لدين الأمة شملت العالم العربي ، والعالم الإسلامي على امتداده .

وقد تصدت الحركة للتحدي الاستعماري سياسيًا ، وعسكريًا ، واقتصاديًا ، ولكن كان التحدي الرئيسي لها يتمثل في الخطر الحضاري الأوروبي المادي ، والذي يمثل خطرًا داهمًا على الإنسان بصفة عامة

[أ] حسن البنا ـ رحمه الله ـ وأبعاد جديدة لمفهوم التجديد :

إن الرؤية التي يصدر عنها فكر واجتهاد الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ تمثل بداية حقيقية وواضحة ومباشرة ؛ لدخول معنى تجديد دين الأمة الإسلامية مرحلة جديدة ـ هي مرحلة التطبيق لعالمية الدعوة الإسلامية ـ .

فالإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ يتناول في رسائله بوضوح وبطريقة مباشرة

حال الأمة العربية والعالم الإسلامي .

فلقد أدرك ببصيرته النافذة أن مشاكل الإسلام والمسلمين في العالم خلال هذه المرحلة التاريخية من عمر البشرية قد أصبحت في معظمها واحدة ، وأدرك أن اختلاف البيئات وتميزها في المجتمعات الإسلامية في طريقه للذوبان ، وكذلك أصبحت الأخطار التي يواجهها الإسلام والمسلمون على تباعدهم ، واختلاف مشاربهم أصبحت واحدة ، فالمشاكل والتحديات لم تعد خاصة بالمجتمع المصري ، أو حتى بالمجتمع العربي، بل أصبحت تشمل أمة الإسلام ، وهو ما يعني أن مشروع اليقظة العربية الإسلامية بدأ يتوحد في العالم الإسلامي ، وبالتالي فجبهة المواجهة الإسلامية هي في طريقها للتوحد مهما كانت الصعوبات، ومهما كانت التضحيات .

وقد تميزت دعوة الإخوان المسلمين بمرونة ، وشمولية ، وتوفيقية ، وهي مرونة تجمع المسلمين ولا تفرق ، تخاطب المسلم أينما وجد . وأفضل السبل لتوضيح دعوة الإخوان المسلمين التجديدية هي عرض رؤية رائدها وباعثها في العالم الإسلامي .

يقول الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ عن دعوة الإخوان المسلمين :

" دعوة سلفية ، وطريقة سُنِّية ، وحقيقة صوفية ، وهيئة سياسية ، وجماعة رياضية ، ورابطة علمية وثقافية ، وشركة اقتصادية ، وفكرة اجتماعية [١] .

وبدأت فكرة التجديد للإسلام في إطار عالميته ، وفي ظل العولمة تنبت بذورها في فكر الإمام حسن البنا في مرحلة مبكرة ؛ فالإسلام يعتبر المسلمين جميعًا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنًا واحدًا . .

---

(١) رسائل المؤتمر الخامس . ص ١٥٤ ، ١٥٥ . حسن البنا مجموعة الرسائل . تحميل من الإنترنت .

ولايتنكر للوطنية ولا القومية.. بل يرى الجامعة الإسلامية ثمرة تلي القومية ، التي تلي هي الأخرى دائرة الوطن الذي نشأ المسلم فيه !.

فقط الإسلام ينكر ويستنكر القومية إذا عنت العصبية الجنسية والفخر الكاذب .. أما إذ عنت الاعتزاز بالمزايا والتاريخ فهي مما تحتاج إليه الأمم الناهضة عندما تواجه التحديات التي تحول بينها وبين النهوض ! .

ونجده يعبر عن ذلك بكل وضوح ويعيد طرحه على المسلمين جميعًا عندما يقول : " .. فما يشهده العالم من بعث وطني ، ووحدات قومية ، واتحادات إقليمية ، وتنظيمات دولية ، هي خطوات على الطريق إلى العالمية المنشودة .. فهذه العالمية أو الإنسانية هي هدفنا الأسمى ، وغايتنا العظمى ، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح ، والدنيا صائرة إلى ذلك لامحالة ، فهذا التجمع في الأمم ، والتكتل في الأجناس والشعوب ، وتداخل الضعفاء بعضهم في بعض ليكتسبوا بهذا التداخل قوة ، وانضمام المفترقين ، ليجدوا في هذا الانضمام أنس ووحدة . كل ذلك ممهد لسيادة الفكرة العالمية ، وحلولها محل الفكرة الشعوبية القومية التي آمن بها الناس من قبل . وكان لابد أن يؤمنوا هذا الإيمان لتتجمع الخلايا الأصلية ، ثم كان لابد أن يتخلوا عنها لتتآلف المجموعات الكبيرة ؛ ولتتحقق بهذا التآلف الوحدة الأخيرة ، وهي خطوات إن أبطأها الزمن فلابد أن تكون ، وحسبنا أن نتخذ منها هدفًا ، وأن نضعها نصب أعيننا مثلاً ، وأن نقيم في هذا البناء الإنساني لبنة ، وليس علينا أن يتم البناء ، فلكل أجل كتاب [١] .

ولم يستوعب بعض الإخوان طبيعة الفكر التجديدي لعالمية الإسلام كما أدركه المرشد العام ، ومؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا ، والذي جمع فيه بين

---

(١) دعوتنا في طور جديد . ص ١١٤ . مجموعة الرسائل . حسن البنا . تحميل من شبكة الإنترنت .

القومية ، والوطنية ، والجامعة الإسلامية ، والإنسانية ؛ حيث علقوا وقتها على الهامش بعد نشر رسالة المؤتمر الخامس مانصه :

" تصور بعض دعاة الإسلام إبان ظهور الدعوات الوطنية والقومية إمكان التقائهما مع الإسلام ، وهذا خطأ واضح ، وأثبت التطبيق العملي أن الإسلام ، وهذه الدعوات لايمكن أن يلتقيا بحال ؛ لأن الإسلام دين رباني إنساني عالمي ، بينما هذه الدعوات بشرية أرضية عنصرية [1] ، ولقد ثبت خطاؤهم ، وصدق حدس الإمام حسن البنا ،وصدقت رؤيته .

وأعتقد أن هؤلاء الإخوان قد وقعوا في هذا الفهم الخاطيء لفكر الإمام حسن البنا ؛ لفهمهم الخاطيء أيضاً لحقيقة رفض الشيخ " أبو الأعلى المودودي " فكرة القومية في الهند قبل قيام دولة باكستان – وقد علقنا عليها من قبل في عرضنا لأبي الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ – .

ويقول الإمام حسن البنا موضحاً تجمع المسلمين جميعاً حول خصوصية التعاليم الإسلامية ، وتعارضها مع تيار التغريب في العالم الإسلامي :

" من الأسباب التي دعت بعض الأمم الشرقية إلى الانحراف عن الإسلام ، واختيار تقليد الغرب ، دراسة قادتها للنهضة الغربية ، واقتناعهم بأنها لم تقم إلا على تحطيم الدين ، وهدم الكنائس ، والتخلص من السلطة البابوية ، وإلجام القساوسة ورجال الكهنوت ، والقضاء على كل مظاهر السلطة الدينية في الأمة ، وفصل الدين عن سياسة الدولة العامة فصلاً تاماً . وذلك إن صح في الأمم الغربية فلا يصح في الأمم الإسلامية ؛ لأن طبيعة التعاليم الإسلامية غير طبيعة تعاليم أي دين آخر ، وسلطة رجال الدين محصورة محدودة لاتملك تغيير الأوضاع ، ولا

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس .ص ٥٤ . طبعة دار الاعتصام القاهرة ١٩٧٧م.

قلب النظم ، مما جعل القواعد الأساسية في الإسلام على مر القرون تساير العصور ، وتدعو إلى الرقي ، وتعضد العلم ، وتحمي العلماء ، فما كان هناك لايصح هنا" [١] .

وحتى لايفهم البعض خطأ أن رفض الشيخ حسن البنا - رحمه الله - للتغريب في العالم الإسلامي يصدر عن رفض للحضارة والتقدم ، أو عن رغبة في العودة إلى العصور القديمة ، والتخلف الحضاري كما يدعي البعض دون علم .

فنجد الإمام يوضح موقفه بوضوح فيقول :

" .. أمام الهجمة التغريبية احتاج الأمر كذلك إلى التفرقة بين " التفاعل الحضاري " ، و " الاستفادة " التي ينهض بها السليم الراشد ، وبين التقليد والتبعية .... فالإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع،وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها ، ولكن يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء ، وأن نطرح عقائده ، وفرائضه ، وحدوده ، وأحكامه ؛ لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا ، واستهوتهم الشياطين [٢] .

ولم تقف دعوة الإخوان المسلمين عند مواجهة تيار التغريب فقط ، بل اتجهت لمعالجة الواقع الفكري ، والسلوك ، والتصورات ، والتي كانت تمثل تخلفًا ، وانحرافًا عن الجادة الإسلامية . وكان هدفًا تواجهه دعوة الإخوان المسلمين ، وتسعى لتغييره بالتجديد الديني،وبإعادة الأمة الإسلامية إلى إسلامها الصحيح ، إيماناً بأن تجديد دنيا المسلمين إنما هو رهن بتجديد دينهم .

---

(١) نحو النور . مجموعة الرسائل ص ٧١-٧٣ . حسن البنا . تحميل من شبكة الإنترنت .

(٢) الإخوان المسلمين تحت راية القرآن ص ٩٨ . مجموعة الرسائل .حسن البنا . تحميل من شبكة الإنترنت .

يقول الإمام ـ رحمه الله ـ :

"فالإخوان .... دعوة من الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب" [١] .

" وهذا النهج التجديدي لم يكن مجرد " تجديد فكري " ترقى به أذهان الصفوة أو النخبة ، وإنما كان تجديد حياة الأمم والشعوب . فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير والعامة ، تبغي خلق الفرد المسلم .. والأسرة المسلمة .. والأمم المسلمة .. انطلاقًا من العقيدة الإسلامية ، والحركة التي تضع هذه العقيدة في الممارسة والتطبيق ... " .

وكان فهم الإمام الشهيد حسن البنا لتجديد الدين فهمًا عميقًا ، وهو الفهم السائد عند كل المجدّدين على مر العصور الإسلامية .

يقول الشيخ الإمام ـ رحمه الله ـ :

يعتقد الإخوان أن أساس التعاليم الإسلامية ، ومعينها هو كتاب الله تبارك وتعالى وسُنَّة رسوله ـ ﷺ ـ .وأن كثيرًا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام، وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها ، والشعوب التي عاصرتها ؛ ولهذ يجب أن تستقي النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي معين السهولة الأولى،وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لانقيد أنفسنا بغير ما قيدنا به الله ، ولا نلزم عصرنا لون عصر لايتفق معه ، والإسلام دين البشرية جمعاء " .

وقد أدرك الإخوان المسلمين بفكر الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ بكل وضوح أن تجديد الدين الإسلامي في هذه المرحلة أعم وأشمل في حياة قطاعات متباعدة

---

(١) دعوتنا في طور جديد .ص ١١٤ . مجموعة الرسائل . حسن البنا . تحميل من شبكة الإنترنت

من المسلمين ؛ حيث بدأت الحواجز الجغرافية في السقوط ، وقصرت المسافات ، ووضح لهم أن مهمة المجدّد هنا لن تكون مجرد مباشرة تجديد الاجتهاد الفقهي والأحكام الإسلامية التي قد يختلف حولها المسلمون ، وأنها لاتنحصر في دولة ما أو حتى في كل المجتمع العربي، بل مهمة التجديد تنبع أولاً من خلق جماعات إسلامية داخل أوطانها على مستوى العالم كله تلتزم بالدين الإسلامي ، وتحقق لنفسها القوة الفعلية في مجتمعاتها ، وتكون نموذجًا إسلاميًا يحتذى ، ثم في حلقة أوسع يمكن أن تنضم تلك الجماعات المنتشرة على امتداد العالم العربي والإسلامي ، بل والعالم كله ، ووقتها سيتحول تلقائيًا ، وأثناء ذلك مباشرة تجديد الدين في الفقه والسياسة والسلوك الإسلامي والاجتماعي ... إلخ على مستوى المسلمين حول العالم . وهذه هي خطوة الجماعة في تجديد دين الأمة الإسلامية ، وتطبيق عالمية الدعوة الإسلامية – خلال هذه المرحلة الحاسمة من عمر البشرية – ، والتي تحرص عليها كل الحرص ، وكما قال الشيخ حسن البنا : ليس علينا أن نتم البناء ولكن علينا أن نضع فيه لبنة ؛ لذا كانت دعوة الإخوان المسلمين في البداية لتثقيف المسلم بالثقافة والسلوك الإسلامي الصحيح ، وإظهار الأخطار الحقيقية التي يواجهها الإسلام وكيفية مقاومتها ، ثم الدعوة للتحرير الكامل لاقتصاديات الأمة من قبضة السيطرة والاستغلال الاستعماري ، والدعوة لإقامة بناء لاقتصاد وطني وقومي مستقل ، ثم الدعوة لإقامة الروابط بين أجزاء العالم العربي والأمة الإسلامية ؛ لإقامة التكتل الاقتصادي الذي يدعم امكانيات المستضعفين في صراعهم الاقتصادي ضد سيطرة المستعمرين الأغنياء الأقوياء .

يقول الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ :

" لقد جاء الإسلام للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا ، وتضع القواعد الأساسية ، وتتناول المسائل الكلية ، ولا تتورط في الجزئيات ، وتدع بعد ذلك

للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها ، وتتسع لها جميعًا ، ولا تصطدم بشئ منها .. " (١) .

[ب] تجربة رائدة للنهوض بالمرأة :

ولقد أدرك الشيخ حسن البنا - رحمه الله - منذ البداية أهمية الطاقات الاجتماعية الهائلة للنساء إذا ما تم اجتذابهن إلى جانب الحركة ، وقد تجلّى ذلك بوضوح في حرصه على إنشاء " مدرسة الأخوات المسلمات " ، ولم تقتصر على تقديم التعليم العام للفتيات ، وإنما اهتمت إلى جانب ذلك بتربية هؤلاء الفتيات على القيم والمُثل والأخلاق الإسلامية والتربية الدينية والرياضية (٢) .

[ج]صلة حسن البنا - رحمه الله - بفلسطين ودور جماعة الإخوان المسلمين:

وكانت صلة حسن البنا - رحمه الله - بفلسطين منذ فترة مبكرة، فقد كان على صلة وثيقة بالحاج أمين الحسيني عندما كان طالبًا في القاهرة . وكان غالبية الناس في مصر في ذلك الوقت يجهلون أن هناك بلدًا اسمه فلسطين ، وأنه بجوارهم ، وهو أقرب إلى القاهرة من أسوان ؛ فشرع الإمام يرسل شباب الإخوان في مساجد القاهرة ، والمحافظات يحدّثون الناس عن ظلم الإنجليز وبطشهم وتآمرهم على أهل فلسطين، ثم دعا إلى مقاطعة المجلات اليهودية في القاهرة ، وطبع قائمة كشوف بأسماء هذه المجلات وعناوينها،والأسماء الحقيقية لأصحابها ، وذيلت الكشوف بعبارة : " إن القرش الذي تدفعه لمجلة من هذه المجلات إنما تضعه في جيب يهود فلسطين ليشتروا به سلاحاً يقتلون به إخوانك المسلمين في فلسطين" .

❁ ووجه الدعوة لرجالات البلاد العربية لعقد أول مؤتمر عربي من أجل نصرة فلسطين .

---

(١) مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي . ص ٩٩ . حسن البنا مجموعة الرسائل . تحميل من شبكة الإنترنت .

(٢) اسلام اون لاين حدث في العام الهجري . شخصيات . شبكة الإنترنت .

✿ وساهم في تنشيط جمع التبرعات للفلسطينين ، ومن الوسائل البديعة التي ابتكرها في هذا المجال : إصدار طابع بقيمة قرش وتوزيعه على الناس .

✿ أرسل شباب الإخوان المسلمين من مصر إلى فلسطين في بداية الثلاثينيات، وعملوا مع المجاهد عز الدين القسام ، وأبلوا بلاءً حسنًا ، وقد بلغ عدد المجاهدين من حركة الإخوان المسلمين في فلسطين تحت قيادة القوات العربية عشرة آلاف مجاهد .

وبعد هزيمة القوات العربية في فلسطين ، وقصة الأسلحة الفاسدة ، والتآمر الدولي على فلسطين ، قال الإمام الشهيد حينها :

" إن الطريق طويل والمعركة الكبرى ـ معركة الإسلام ـ التي ربينا لها هذا الشباب لا تزال أمامه ، أما إسرائيل فستقوم وستظل قائمة إلى أن يبطلها الإسلام " (١) .

وقد شاركت الجماعة في العمل المسلح ـ بعد الإمام حسن البنا ـ ضد الإنجليز في مصر سنة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ م .

[د] سُبل التغيير عند الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ :

ومع إدراك الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ لخطرالتحدي وخطر الغاية وشرفها ، فقد اعتمد " سياسة المراحل في الإعداد والتنفيذ " ، وبدون إدراك هذه الحقيقة يستحيل تفسير الكثير من مواقف الإخوان غير الواضحة ، وغير الحاسمة في بعض الفترات ، وبعض الممارسات .

وقد أدرك حسن البنا ـ رحمه الله ـ أن القوة ضرورة ولابد من الإعداد لها ، والاستعداد لها ، واستخدامها في الوصول إلى هذا الهدف العظيم ، وهو لم

(١) بوابة فلسطين – شخصيات مؤثرة في القضية الفلسطينية. شبكة الإنترنت .

يخدع أحداً .. ولم يفاجيء أحداً بل كان واضحاً في هذا الأمر كل الوضوح .

ولنقرأ له هذه السطور :

❁ " يتساءل كثير من الناس : هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في أغراضهم ، والوصول إلى غايتهم ؟ .

❁ وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عارمة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر ؟ .

❁ أم القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته .. فالإخوان لابد أن يكونوا أقوياء ، ولابد أن يعملوا في قوة .. وأول درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ، ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط ، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح .. والثورة أعنف مظاهر القوة .. إن الإخوان سيستخدمون القوة العملية حيث لايجدي غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة .. أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها .. وإن كانوا يصارحون بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال .. فسيؤدي حتماً إلى ثورة ... إني أرى الوميض خلال الرماد ، ويوشك أن يكون له ضرام ...

أيها الإخوان : .. إن قيل لكم : أنتم دعاة ثورة ، فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به ، فإن ثرتم علينا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا ، وكنتم الثائرين الظالمين ... [1] .

ولقد امتد ولايزال مشروع الشيخ الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ ليشمل كل الجوانب المطلوب تحقيقها ، والسعي فيها لإحداث الصحوة الإسلامية

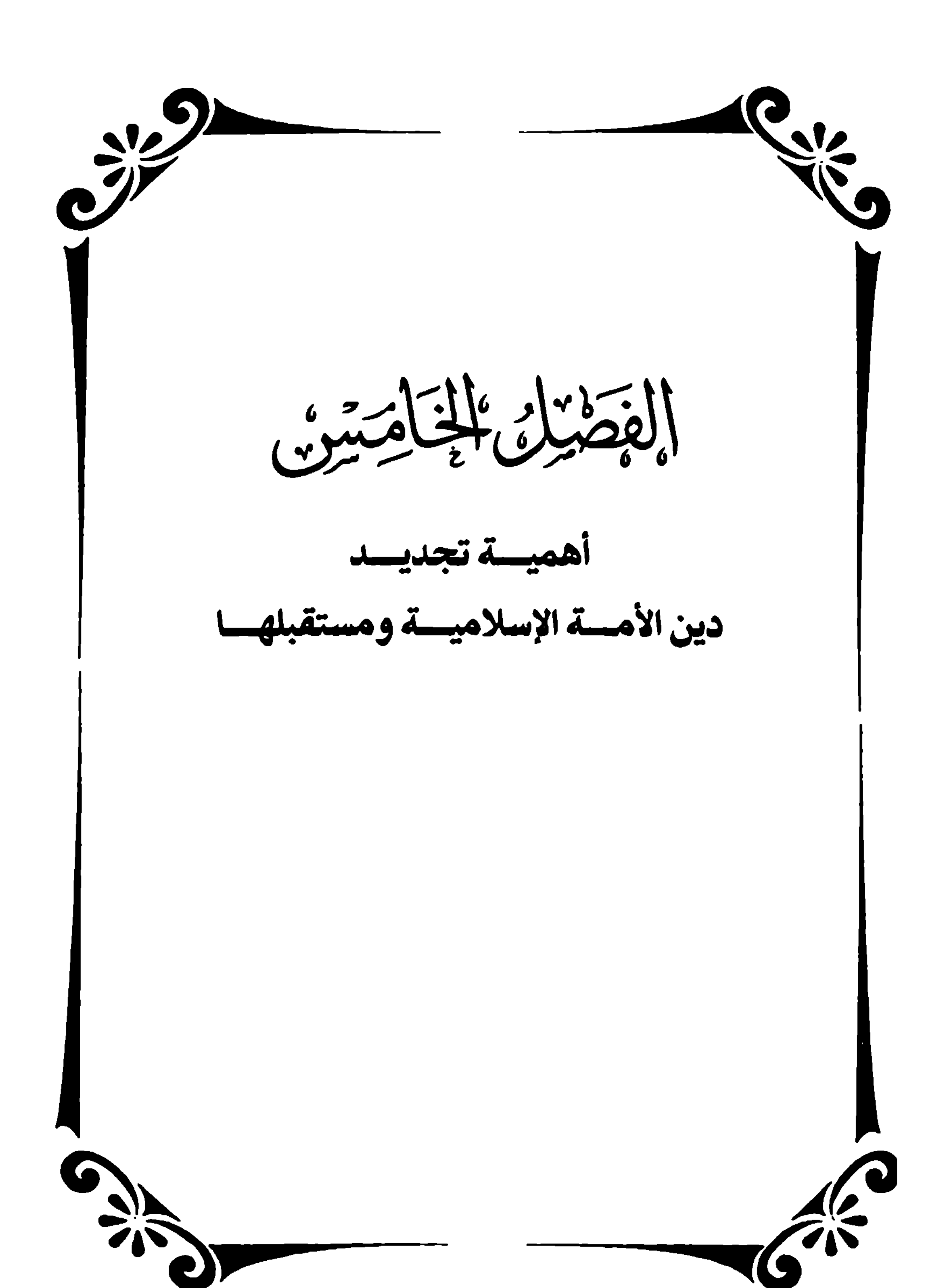
---

(١) من مجموعة الرسائل . حسن البنا . نقلاً عن كتاب الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري . ص ٧٩ . د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ . ١٩٩٦ م .

المنشودة والنهضة المطلوبة ؛ فشمل جميع المناحي العلمية والروحية التي تهم الإنسان المسلم على المستويين الفردي والجماعي متجاوزاً للحواجز السياسية والطبيعية والاجتماعية واللغوية بين كافة المسلمين .

وقد جمع في مشروعه التجديدي لدين الأمة الإسلامية بين الجانب الروحي والتربوي والاجتماعي ، وبين الجانب السياسي " الثوري الحركي " .





الفصل الخامس

أهمية تجديد دين الأمة الإسلامية ومستقبلها

الفصل الخامس
أهمية تجديد دين الأمة الإسلامية ومستقبلها

أولاً : ضرورة تجديد دين الأمة :

كما رأينا أنه على مر العصور الإسلامية منذ ظهور الإسلام وحتى يومنا هذا فإن سُنَّة التجديد لدين الأمة الإسلامية موجودة ومستمرة ، فبالتجديد يحافظ الدين الإسلامي على بقائه واستمراريته ، ويحافظ على بقاء الأمة الإسلامية ، غير أن تجديد دين الأمة الإسلامية خلال هذه المرحلة من عمر وتطور البشرية – عصر العولمة الشاملة – أصبح ذا طبيعة خاصة ، وشكل خاص ، فقد دخلت الدعوة الإسلامية مرحلة التطبيق المباشر " لعالمية الدعوة " بالمعنى الشامل لها ، وبدأ حال الأمة الإسلامية الآن يأخذ تدريجيًا شكل جماعة المسلمين عند بدء قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول ـ ﷺ ـ ، من انتشار الإسلام بين مجموعة من البشر على علاقة قوية ببعضهم البعض ، ومجتمعهم واحد ، وتتعدد فيه المعتقدات الدينية بجوار الإسلام ، وتتشابك المصالح ، وتنشأ فيه الصراعات ، وتظهر فيه الحاجة إلى نشر الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق ممكن . . ، ونجد الآن في عصرنا أن الحواجز تسقط تباعًا ، وتعدد اللغات لم يعد مشكلة .

والآن في هذا العصر ، ومع تطور الإنسان في شتى المجالات العلمية ، عاد المسلمون رغم اتساع رقعتهم التي يقيمون عليها ، ورغم تعدد لغاتهم ، واختلاف بيئاتهم ، ورغم زيادة أعدادهم زيادة هائلة ، إلا أنهم – مع تطور

العلم – يعودون تدريجيًا إلى العلاقات القوية ، وإلى التعارف ، والترابط ، والتضامن ، وأصبحت المجتمعات الإسلامية تدريجيًا تتحد في قضاياها مع دخول العالم مرحلة العولمة الشاملة ، حيث نجد الاقتصاد اكتسب صفة العالمية وأصبح العالم كله يرتبط برباط ، وعلاقات اقتصادية متشابكة تتجاوز كل الدول ، وتتجاوز كل القوى ، فالاقتصاد ـ انتاجًا أو تجارة – أصبح عالميًا بمعنى الكلمة الواسع تأثيرًا وتأثرًا ، والروابط الثقافية والمعرفية تزداد بشكل مذهل ،وقد اسقطت الحواجز تمامًا ، واشتد السباق والتنافس والصراع الحضاري حول من يستطيع أن يكون أكثر تأثيرًا في الغير ، وأقل تأثرًا به .

وحتى في مجال الأنشطة الرياضية والمسابقات على مختلف أشكالها قد أخذت صفة العالمية ، وأصبح مجال التنافس بين الدول له نظم وقواعد وأوقات محددة يلتزم بها الجميع ، ويستعدون لها ، وكأننا داخل مجتمع واحد تلاشت فيه حواجز اللغة ، والعرق ، والدين ، واللون ، وتلاشت المسافات والفوارق الحضارية . والمعارف والإعلام ارتدى ثوب العالمية وتجاوز كل القيود والسلطات .

وفي مجال الجوائز اتسع المجال في معظم الدول ؛ ليأخذ شكل العالمية في كل منافساتها ، فهي تصب أو المفروض أن تصب في رقي وتطور البشرية .

وحتى الأمراض والأوبئة دخلت بقوة ساحة العالمية، وأصبح العالم كله يتوجس خيفة من وجود مرض ما في أي دولة ما ، ويتكاتف لمعالجة الأمراض ، وكأن المسافات والحواجز الطبيعية والبشرية قد سقطت تمامًا .

وكذلك في مجال التصنيع ، وخاصة الحربي والأسلحة والتي لاتقف في تطورها عند حدود ، ولا تقتصر مخاطرها على الدول المتصارعة بل إن تأثيرها قد يمتد ويشمل الكرة الارضية ، ويستمر تأثيرها زمنًا طويلاً . . والامثلة تطول ، وتزداد كل يوم مجالات العولمة في قوتها ، وانتشارها ، وتقاربها .

وهذه الحقائق لايمكن تجاوزها ، وعلى المسلمين أن يتفهموا طبيعة هذه المرحلة من عمر الإنسانية ، ومدى خطورتها ، ومدى حاجة المسلمين والعالم كله للدين الإسلامي ـ شريعة وعقيدة ـ ، وضرورة العودة إلى ثوابت الإسلام ـ شريعة الخالق سبحانه وتعالى ـ ، وإلى التشبث بها .

ويمكننا القول :

أن الحديث عن التقريب بين المذاهب المختلفة ـ على الرغم من أهميتها ، وجهودها الضخمة ـ تبدو مرحلة متأخرة نسبيًا قياسًا بتطور وتحول البشرية .

لذلك يجب أن توجه الجهود بصدق ، وتضاعف تلك الجهود نحو الثوابت الإسلامية ، وتصغير حجم الخلافات لتذوب في المجتمع والأمة الإسلامية ، وتصبح من الأمور الطبيعية والمقبولة بين جميع المسلمين بمختلف مذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية .

وبمعنى آخر ، يجب أن تعود الدعوة الإسلامية إلى مرحلتها الأولى في عهد الرسول – ﷺ– بعد إقامة الدولة الإسلامية ، حيث المجتمع الواحد ، والثوابت الاسلامية واضحة ، والأمور المختلف عليها لا تزعج المجتمع ولا توقع به الضرر ، وارتفاع مستوى الفهم والوعي بالدين الإسلامي عند كافة أفراد المجتمع وحيث العلاقة بغير المسلمين تنبع من وعي وفهم بالإسلام .

وقد أضحى هذا الامر لامناص منه الآن في مجتمعات الامة الإسلامية ، ولا يمكن أن نتخيل استمرار الأمة الإسلامية ، والقيام بدورها خلال هذه المرحلة دون التغلب عل مشاكلها التاريخية،وتذويب مسائلها الخلافية في المجتمع الإسلامي ، وضرورة أن يعي المسلمون أنها تتوافق مع الدين الإسلامى وطبيعته الربانية ، وخلوده صالحًا على مر الزمان إلى أن يشاء الله رب العالمين .

ويجب أن يكون هناك يقين تام عند كافة المسلمين وخاصة العلماء بأن البدع والأمور المستحدثة ، وكذلك كل الخلافات والمشاكل فإن الإسلام كفيل بها ، ومهما بلغت الأمور من التعقيدات فالإسلام كفيل بها ؛ فالإسلام تصوير خالق الخلق ، وعالم الغيب والشهادة ، الذي وسع كل شيء علماً ، وكما أرشدنا - سبحانه وتعالى - في القرآن الكريم ، علينا فقط الرجوع إلى ثوابت هذا الدين .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء : ٥٩] .

والإسلام كفيل بأن يفرز من العلماء من يقومون بهذه المهمة - إن شاء الله تعالى - .

ولا نستطيع في هذا المجال تجاوز نظرية الوصية بالإمامة عند الشيعية ، والتي تمثل نقطة فاصلة نحو تجمع الامة الإسلامية خلال مرحلتها الحالية .

ثانياً : الإمامة الشيعيــة :

لم يحدث أن أثمر تعدد المذاهب الفقهية انقساماً بين المسلمين يوازي أو يداني أو يشابه ذلك الانقسام الحاد الذي قام به الشيعة ، وبين بقية المسلمين بمذاهبهم الفقهية ، ومدارسهم الكلامية ، وتياراتهم الفكرية .

وسبب ذلك يعود إلى الخلافات التي ابتدعها البعض وصبغها بصبغة الدين ، فانتقلت من نطاق " المرحلي المؤقت " إلى إطار " الأبدي والدائم " ، حتى غدت " ثوابتًا " بعد أن كانت من "المتغيرات " ، وفي مقدمة ذلك :" الوصية بالإمامة " ، والتي أصبحت لدى الشيعة عقيدة دينية ، بل وأصلاً من أصول الدين، فالإيمان

لايتم إلا بالاعتقاد بالإمامة [١] ، وهي مع الصلاة والزكاة والصوم والحج تكون فرائض الله الخمسة [٢] .

وهي مع المعرفة بصفات الله، والتصديق بالعدل والحكمة ، والتصديق بالنبوة ، والتصديق بالمعاد تكون قواعد الإيمان والإسلام الخمسة [٣] . وقدمت صفتها تلك على صفتها السياسية .

ومن المؤكد أن صبغ مثل هذه البدعة وغيرها بصبغة الدين قد أكسبها طابع الثبوت ، وطابع الخلود ، وأضفى عليه القداسة ، وهو السر الذي جعلها أي ـ الوصية الإمامة ـ الصخرة التي لازالت تتحطم عليها وحدة المسلمين ، منذ تبلور الشيعة كفرقة ، وحتى هذا العصر الذي نعيش فيه ! .

ولكن بنظرة إلى واقعنا الراهن وعصرنا الحديث ، فإن التئام الصف الإسلامي يفرض علينا إعادة النظر في التشيع وعقائده ومصادره، وإخضاعه للبحث العلمي بعيداً عن التعصب للموروث ، وبالفعل هناك محاولات في هذا الاتجاه من بعض الشيعة على استحياء، وإن كانت ما تزال بعيدة عن الهدف الصحيح.

---

(١) عقائد الإمامية .ص ٦٥ . محمد رضا مظفر .

(٢) الأصول في الكافي . الكليني جـ١ ص ٢٩٠ . طبعة طهران .

(٣) تلخيص الشافي . جـ ١ ص ٩٦ ، ٥٩ ، ٦٠ . الاقتباس من كتاب / تيارات الفكر الإسلامي . د/ محمد عمارة . دار الشروق ، ط ١ / ١٩٩٧ م .

وفيم يتعلق بتسلسل الإمامة في ولد علي بن ابي طالب ـ ﷺ ـ فإن اختلاف تيارات التشيع حول أعيان الأئمة قد كان سبباً رئيسياً لما أصاب هذا التيار من انقسامات :

- فالكيسانية : لم يحصروا الإمامة في أبناء علي من فاطمة الزهراء ، وقالوا : إنها انتقلت مع علي لابنه محمد بن الحنفية (٢١ ـ ٨١ هـ / ٦٤٢ ـ ٧٠٠) .
- والإسماعيلية : قالوا إنها بعد جعفر الصادق لابنه اسماعيل (١٤٣ هـ ـ ٧٦٠ م) ، وليس موسى الكاظم .
- والزيدية قالوا : إن الوصية والنص لم يتعد علياً والحسن والحسين ، وان الإمامة بعدهم فيمن تتوافر فيه الشروط من ولد علي ، شريطة ان يكون ثائراً خارجاً شاهراً سيفه ضد أئمة الجور .
- والإثنا عشرية : تميزت بالمنهم الاثنى عشر . عن كتاب تيارات الفكر الإسلامي . د/ محمد عمارة . ص ٢٠٩ . دار الشروق . ١٩٩٧ م .

مثـــال :

آية الله البرقعي ألف كتاب « كسر الصنم » حطم به كتاب الكافي تمامًا . والمقصود بالصنم هنا كتاب الكافي نفسه،والترجمة الحرفية تعني تحطيم الصنم، وهو يرى ضرورة رفض هذا الكتاب جملة وتفصيلاً ، بل ورفض واضعه لما به من الشنائع على الإسلام ، وترجم هذا الكتاب إلى العربية الشيخ الإيراني عبد الرحيم ملا زاده والملقب بـ "أبي المنتصر البلوشي" .

وكذلك اجتهد محمد حسين فضل الله المرجع الشيعي في لبنان ونفي مظلومية الزهراء بناءً على الأحاديث، وقال ليست ثمة دليل شرعي أنهم ضربوها، وأحرقوا بيتها ! .

واجتهد أحمد الكاتب بناءً على تصحيح الأحاديث ، فنسف أسطورة "المهدي المنتظر" عند الشيعة ، ونسف أسطورة "الاثنا عشر"! .

بل هناك كتب كاملة تنسب للأئمة ، ويختلف علماء ومجتهدي الإمامية حولها مثال : صحيفة الرضا، وكتاب سليم بن قيس ، وكتاب "تفسير الشريعة" ، وكتاب "الحسن العسكري" .

وهذه مليئة بنصوص عن أئمة معصومين قولهم قول أبائهم ، وقول أبائهم قول رسول الله ﷺ، وقول رسول الله ﷺ قول الله ـ عز وجل ـ ! .

✿ وفي إيران ، ومع استحكام التناقض بين "الواقع" الداعي للثورة ، وبين "الفكر" ، الذي يعلن مشروعيتها على الغائب الذي طالت غيبته ، تحركت في صفوف الفكر الشيعي الاثنى عشري ، وبين مجتهديهم الدعوة إلى "عموم ولاية الفقيه" الذي يرى في طول غيبة " الحجة الغائب " داعياً لنقل جميع سلطاته إلى الفقهاء الحاضرين ، وتبلورت هذه الأفكار على يد الخميني ، وكانت

الثورة في إيران [١] .

ولما كانت عقيدة "**التقية**" عقبة أمام التغيير والثورة ، ومن ثم ولاية الفقيه ؛ فقد رفض الخميني هذه التقية [٢] ، والتي ظلت قرونًا مسيطرة على الفكر الشيعي .. وهو يميز بين "**تقية الأئمة**" ، التي اتخذوها لحفظ المذهب من الاندراس ، وبين التقية التي غدت جبنًا يستهدف بها أصحابها الهروب من النضال ، وحفظ ذواتهم من التضحية ..

والخميني بعد أن هدم عقيدة الوصية بالإمامة يسقط عقيدة "التقية" التي تراكمت الروايات عند الشيعة في أصح كتبهم على ضرورتها وبقائها حتى قيام الغائب ـ أي المهدي المنتظر ـ ، ورجعته .

● يروي الكليني : عن أبي جعفر : " التقية ديني ودين أبائي ، ولا إيمان لمن لا تقية له " [٣] .

● ويرون : " التقية تسعة أعشار الدين " . والحديث صحيح عندهم صححه الشيخ الأنصاري [٤] .

● ويقول ابن بابويه القمي : (اعتقادنا في التقية أنها واجبة ، من تركها كان بمنزلة من ترك الصلاة) [٥] .

---

(١) وهذا يتعارض مع عقيدة " الوصية بالإمامة " وأن الإمام مختار من قبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهي الدعوى التي بنى التشيع بنيانه عليها ، وتراكمت الروايات لإثباتها ، ولكنها تسقط مع ادعاء الخميني "ولاية الفقيه" ، ونسأل الشيعة أنفسهم كيف يحق لهم الآن أن يختاروا إماماً ؟ وكيف يمنح العصمة ؟.
ولا شك أن بنيان التشيع يتهاوى ؛ فهو ليس من دين الله .

(٢) التقية عقيدة شيعية تبيح أن يظهر الإنسان غير ما يعتقد في ظروف خاصة .

(٣) أصول الكافي . المجلد الثاني ص ١١٩ . باب التقية . الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق . ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م . وهو أصح كتب الحديث عند الشيعة على الإطلاق .

(٤) كتاب " الطهارة" الجزء الثاني ص (٢٧٩) ، وصححه محسن الحكيم في " مستمسك العروة الوثقى " . وهما عالمان جليلان من متبعي دعاة التشيع

(٥) الاعتقادات . ص١١٤ . ابن بابويه القمي . الملقب بالصدوق .ت ٣٨١هـ.

* ورووا عن عليّ بن الحسين رضي الله عنهما أنه قال: يغفر الله للمؤمن كل ذنب، ويطهره منه في الدنيا والآخرة ما خلا ذنبين ترك التقية، وترك حقوق الإخوان [١] .

* ورووا عن الإمام الثامن عندهم - علي بن موسى - أنه قال : لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، فقيل له يا بن رسول الله إلى متى ؟، قال : إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا" [٢] .

ونقول لعلماء ومجتهدي التشيع من أين تأخذون دينكم ؟

وللمسلمين عامة وللشيعة خاصة نقول :

لم يعد الأمر كسابق عهده، فالعولمة الشاملة وتحول العالم إلى كيان واحد متفاعل شديد التقارب، شديد التأثير والتأثر، أكد ضرورة وحتمية بروز الإسلام كحل للبشرية في هذه المرحلة من تاريخها، وأكد ضرورة التطبيق "لعالمية الدعوة الإسلامية"، والذي يستحيل القيام به مع بقاء مثل هذه الخلافات التي تجعل المسلمين شيعًا، أما الاختلاف الفكري، والذي يعبر عن سعة وتيسير الإسلام فهو مقبول، بل ولابد منه .

ولقد برزت محاولات عديدة للتقريب بين السُّنَّة والشيعة، ولكن الخلافات في الثوابت وفي الأصول، والأمر يحتاج إلى تصحيح للرجوع إلى صحيح الدين ونشره .

وعلماء المسلمين قادرون بعون من الله، وبالرجوع إلى ثوابت الإسلام على

---

(١) تفسير العسكري" ص١٦٤ ط مطبعة جعفرى الهند . النقل من . الشيعة والتشيع د/ إحسان إلهي ظهير . الباب الثالث «الشيعة والكذب».

(٢) كشف الغمة . ص٣٤١ . الأربلي، بهاء الدين أبو الحسن علي بن الحسين فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الأربلي .ت ٦٩٣هـ .

تجاوز هذه العقبة وغيرها .

ولكن لابد من وجود السلطة المدنية الإسلامية ـ الدولة الإسلامية ـ على أرض الواقع بالشكل الذي يكفل لها القيام بعبء عالمية الدعوة الإسلامية ، الذي يؤكد أن تجديد دين الأمة خلال هذه المرحلة ـ العولمة الشاملة ، ومرحلة تطبيق عالمية الإسلام – يحتاج إلى تدخل الدول الإسلامية ، ويحتاج إلى تبني حكام وزعماء المسلمين مهمة تجديد دين الأمة الإسلامية فالجماعات والجمعيات الإسلامية وغيرها – رغم أهميتها ، وضرورة تواجدها – لن يكون في مقدورها القيام بهذه المهمة – تجديد دين الأمة الإسلامية – إلا من خلال الدولة بكل مؤسساتها ، ورغم صعوبة هذه المهمة إلا أنها ممكنة ، ولا سبيلاً غيرها أمام المسلمين .

وما يجب أن يعيه المسلمون جميعًا خاصة عوام الشيعة ، أنه لا بقاء لفكر بشري في الدين الإسلامي إلا بقدر ارتباطه بثوابت الدين الإسلامي ، وبالظروف التي تناسبه (١) .

والحقيقة الثابتة، والتي أكدها علماء الإسلام منذ بداية الدعوة الإسلامية :

أن العبرة ليست بالأشخاص ، بل بما يسوقونه من دليل ؛ فيجب عدم الارتباط ببشر ، بل يجب النظر فيما قدموا من فكر واجتهاد ، ومدى صحته وارتباطه بالثوابت الإسلامية ، وأن لا عصمة إلا للنبي ـ ﷺ ـ ، ولم يجعل الله سبحانه وتعالى لأحد غيره الحق في التشريع .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

---

(١) وهذا يحتاج إلى إعداد بحث خاص يتناول التشيع وعقائده ، للوقوف على الثوابت الإسلامية ، ومعرفة حقيقة التناقضات التي تفرد التشيع بها عن سائر المسلمين .

وكل ماعدا رسول الله ـ ﷺ ـ فهم بشر ، ورؤيتهم محدودة زمانًا ومكانًا ، اجتهاداتهم أوتجديدهم دين الأمة مرتبط ببيئاتهم وزمانهم بالدرجة الأولى .

وكما هو مقرر شرعًا أن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد إلا الرسول ـ ﷺ ـ .

وحتى عند وصول التجديد في دين الأمة إلى مرحلة تطبيق عالمية الإسلام مع العولمة الشاملة ، والتي وصفها الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ عندما قال :

" ... فهذه العالمية أو الإنسانية هي هدفنا الأسمى وغايتنا العظمى ، وختام الحلقات في سلسلة الإصلاح ، والدنيا صائرة إلى ذلك لامحالة ...... "(١) .

يجب أن ننتبه :

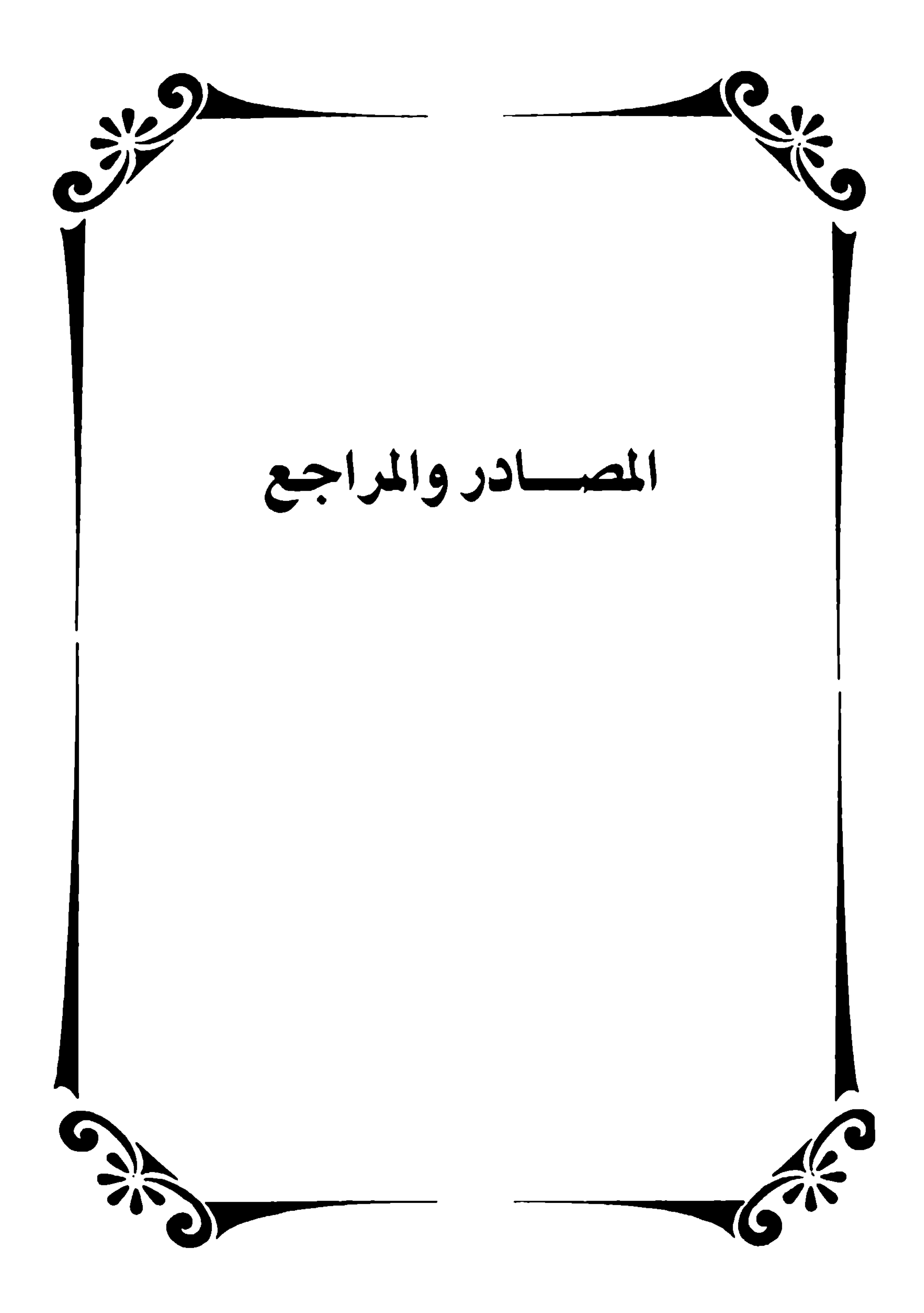
أنه بالرغم من أن تشخيص الإمام حسن البنا ، ورؤيته المبكرة للمستقبل ، وبصيرته الفذة النافذة النابعة من إيمان قوي ، وفهم عميق للإسلام ، أن ليس بالضرورة أن هذه المرحلة هي ختام الحلقات في سلسلة الإصلاح الإسلامي كما وصفها الشيخ الإمام ، فلا أحد لديه أدنى معرفة بالمرحلة أو المراحل التالية في تاريخ وتطور البشرية بعد هذه العولمة الشاملة إلا المولى ـ سبحانه وتعالى ـ .

إن ما أريد التأكيد عليه هنا أن تجديد دين الامة الإسلامية هو سُنَّة من سُنن الله الناطقة بصدق النبوة ، وصدق رسالة الإسلام ، ومرجعها ثوابت الإسلام ، ذلك النسيج الرباني المحفوظ بحفظ الله له إلى قيام الساعة ، ولا مجال للتدليس عليه ، ولامجال لاختلاط غيره به ؛ فهو حجة الله على عباده يوم تقوم الاشهاد ، ولا احد من الأمة الإسلامية يكون شهيداً عليها غير الرسول ـ ﷺ ـ ، فلا يعطى هذا الحق لغيره على الإطلاق .

قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] .

---

(١) دعوتنا في طور جديد . ص ١١٤ . مجموعة الرسائل حسن البنا . تم تحميلها من الإنترنت .



المصـــادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع

[١] المصحف بالخط العثماني بواسطة ، النشر المكتبي لدى شركة حرف .

[٢] فتح الباري بشرح صحيح البخاري،الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني، بيروت : دار الفكر ط ١ . ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م . تحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

[٣] المنهاج ـ شرح صحيح مسلم بن الحجاج،محيي الدين النووي .بيروت ط ٣ . ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م . دار المعرفة . تحقيق : الشيخ خليل مامون شيحا .

[٤] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة ، ناصر الدين الألباني . الرياض . مكتبة المعارف ط ٢ . ٢٠٠٠ م

[٥] سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ،ناصر الدين الألباني . الرياض :مكتبة المعارف ط١ . ١٩٩٦ م .

[٦] سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني . بيروت . دار الفكر . تحقيق / صدقي محمد جميل .

[٧] ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، الإمام الذهبي . محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز . دار الكتب العلمية . ط ١ / ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م ، تحقيق : علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، د/ عبد الفتاح أبو سنة .

[٨] لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ، ابن رجب الحنبلي . تحميل من الإنترنت .

[٩] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية . الرياض . دار العاصمة ط ٦ ، ١٩٩٨ م .

[١٠] رياض الصالحين . الإمام / محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي . القاهرة . دار الريان للتراث ط ١ ١٩٨٧ م .

[١١] نظرية الإسلام السياسي،أبو الأعلى المودودي . جدة .دار السعودية .ط١ ،١٩٨٥م.

[١٢] الطريق إلى اليقظة الإسلامية ، د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ ، ١٩٩٠ م .

[١٣] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، سيد قطب . القاهرة . دار الشروق ١٩٨٩ م .

[١٤] من أجل صحوة راشدة تجدد الدين .. وتنهض بالدنيا ، د/ يوسف القرضاوي . بيروت . المكتب الإسلامي ط ٢ –١٩٩٥م .

[١٥] تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح) ، ابو العباس الجوهري . دار العلم للملايين .

[١٦] لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور . بيروت ط ١ ، ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨ م . دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر . نسقه وعلق عليه ، ووضع فهارسه علي شيري .

[١٧] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، احمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. المكتبة العلمية بيروت .

[١٨] السراج المنير شرح الجامع الصغير ، أحمد محمد العزيزي الشافعي . دار الفكر ٣ / ٣٤٨ .

[١٩] التجديد في الإسلام ، سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي .

[٢٠] الاعتصام في أهل البدع والضلالات ، الإمام الشاطبي . أبو اسحاق إبراهيم بن موسى . بيروت : دار الكتب العلمية . ط ١ ، ١٩٨٨ م .

[٢١] الموافقات في أصول الشريعة ، الإمام الشاطبي .أبو اسحاق إبراهيم بن موسى . بيروت . دار المعرفة.

[٢٢] فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، عبد الرؤوف المناوي . تحقيق الألباني . تحميل من شبكة الإنترنت .

[٢٣] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ابن قيم الجوزية . أبو عبد الله شمس الدين محمد بن ابي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية . بيروت .

دار الكتب العلمية . ط ١ .

[٢٤] الآداب الشرعية والمنح المرعية ، ابن مفلح الحنبلي . تحقيق عصام فارس الحرستاني . بيروت : دار الجيل ط ١ ، ١٩٩٧ م .

[٢٥] حاضر العالم الإسلامي ، لوثروب ستودارد . ترجمة : منير البعلبكي ، تعليق : شكيب أرسلان . دار الفكر .

[٢٦] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير . علي بن أبي الكرم محمد بن محمد . بيروت دار صادر . ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

[٢٧] العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ القاضي أبو بكر بن العربي المالكي .تحقيق محب الدين الخطيب . بيروت . الدار الجيل . ط٢ / ١٤٠٧ - ١٩٨٧ هـ .

[٢٨] مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون . ولي الدين ابو زيد عبد الرحمن بن محمد . تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار،دار الفكر. ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

[٢٩] مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، د/ سيدة اسماعيل كاشف . مكتبة الخانجي . القاهرة ط٢ . ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م .

[٣٠] إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ابن قيم الجوزية . دار الكتب العلمية . تحقيق طه عبد الرؤوف سعد . لبنان . بيروت: دار الجيل. طبعة ١٩٧٣م.

[٣١] من سيحكم العالم ؟ ، فايز عزيز محمد . مصر . المنصورة . دار الوفاء للطباعة والنشر . ط١ .

[٣٢] الإسلام والعصر تحديات وآفاق ، د / محمد سعيد رمضان البوطي . د/ طيب تزيني . دمشق ، بيروت : دار الفكر ، ودار الفكر المعاصر ط ٢ - ٢٠٠٢ م .

[٣٣] نقد الخطاب الديني ، د/ نصر حامد أبو زيد . ط ٤ . مكتبة مدبولي . ٢٠٠٣م.

[٣٤] في مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، د/ نصر حامد أبو زيد . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي . ط ٥ ، ٢٠٠٠ م .
[٣٥] مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية ، د/ محمد عمارة . دار الشروق . ط ١ - ٢٠٠٢ م .
[٣٦] الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، د/ محمد عمارة . دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٦٨ م .
[٣٧] التجديد في الإسلام، المنتدى الإسلامي. الرياض. ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٣م.
[٣٨] التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ، موريس بوكاي .ترجمة وتحقيق حسن خالد . المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ١٩٩٠ م .
[٣٩] إشكالية الإسلام والحداثة، عادل عبد المهدي. بيروت :دار الهادي. ط ١، ٢٠٠١ م .
[٤٠] مجلة الوحدة ، الرباط ــ المغرب .
[٤١] التراث والتجديد ، د/ حسن حنفي . طبعة القاهرة ١٩٨٠ . مكتبة الجديد .
[٤٢] أخبار الكتاب ، اتحاد كتاب مصر ــ القاهرة .
[٤٣] الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ، مجلد ٣ . محمد خير هيكل . بيروت : دار البيارق . ط ١، ١٩٩٣م .
[٤٤] كتاب الأم . الإمام الشافعي ، أبي عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع. بيروت ، دار المعرفة .
[٤٥] الإسلام بين التنوير والتزوير، د/ محمد عمارة . دار الشروق . ٢٠٠٢ م .
[٤٦] الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، مستشار . دكتور / علي جريشة .دار الوفاء المنصورة . ط ٢ ، ١٩٨٨م.
[٤٧] في تاريخ التشريع الإسلامي ، ن. ج. كولسون . ترجمة د/ محمد أحمد السَراج .مراجعة د/ حسن محمود عبد اللطيف الشافعي .
[٤٨] تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السايس. دار الفكر. ط١، ١٩٩٩ م.

[٤٩] عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي. تحقيق عبد الرحمن بن محمد عثمان . بيروت : دار الكتب العلمية ط١ .

[٥٠] جامع الأصول في أحاديث الرسول ، محمد بن الأثير الجزري .تحقيق محمد حامد الفقي . بيروت : دار إحياء التراث . ط٤، ١٩٨٤ م .

[٥١] عمر بن عبد العزيز .. معالم التجديد والإصلاح على منهاج النبوة ، علي محمد الصلابي . تحميل من شبكة الإنترنت .

[٥٢] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي . دراسة وتحقيق / السيد الجميلي . دار الكتب العلمية .

[٥٣] الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام ، شهاب الدين القرافي . تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة . بيروت : دار البشائر الإسلامية .

[٥٤] نوابغ الفكر الإسلامي، أنور الجندي . بيروت . لبنان : دار الرائد العربي . ط١ ، ١٩٨٣ م .

[٥٥] تيارات الفكر الإسلامي، د/محمد عمارة. دار الشروق. ط١، ١٩٩٧م .

[٥٦] المجد في تاريخ نجد ، عثمان بن بشر النجدي الحنبلي .الرياض : مكتبة الرياض- ١٩٨٠ م

[٥٧] ماضي الحجاز وحاضره ، حسين محمد نصيف . دار الفتح ١٣٤٩هـ . مصر .

[٥٨] أثر الدعوة الوهابية في الإصلاح الديني والعمراني في الجزيرة العربية وغيرها ، محمد حامد الفقي - ١٣٥٤ هـ . القاهرة .

[٥٩] غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، د/ يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة .

[٦٠] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، كتاب العلم من قسم الأفعال . تأليف / المتقي الهندي . نسخة إلكترونية . من صيد الفوائد

[٦١] الإصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . بيروت :

دار الكتب العلمية ط١ . نسخة مطابقة لطبعة ١٨٥٣ م .
[٦٢] تاريخ المذاهب الإسلامية ، محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. ١٩٨٧م.
[٦٣] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ . ، د/ جواد علي . طبعة بيروت
[٦٤] موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه. . واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، أبو الأعلى المودودي . ترجمة الرسالة الأولى / محمد كاظم السباق . ترجمة الرسالة الثانية / محمد عاصم الحداد. الدار السعودية للنشر . والتوزيع . ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
[٦٥] فقه الأقليات المسلمة . . حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى . ، د/ يوسف القرضاوي . دار الشروق . ٢٠٠١ م .
[٦٦] الأمة الإسلامية وقضية القومية ، أبو الأعلى المودودي . ترجمة . سمير عبد الحميد إبراهيم . طبعة القاهرة .
[٦٧] تهذيب تاريخ ابن عساكر ، عبد القادر أحمد بن زيدان . (ت ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م) ، طبعة دمشق الأولى ١٣٢٩ - ١٣٥٠ هـ .
[٦٨] الإسلام والمدنية الحديثة ، أبو الأعلى المودودي . الرياض : الدار السعودية . ط ٩ ، ١٩٨٧م.
[٦٩] تدوين الدستور الإسلامي ، أبو الأعلى المودودي . ترجمة محمد عاصم الحداد . الرياض: الدار السعودية ط ٢ ، ١٩٨٧م.
[٧٠] العقيدة والشريعة في الإسلام ، أجناس جولد تسهير . ترجمة يوسف مولى . بيروت : دار الرائد العربي ١٩٤٦ م .
[٧١] الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، أبو الأعلى المودودي . بيروت : مؤسسة الرسالة ط١ ، ١٩٨٠ م.
[٧٢] مجموعة الرسائل . حسن البنا ، تحميل من شبكة الإنترنت .
[٧٣] الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري د/ محمد عمارة . دار الشروق .
[٧٤] تجديد الفقه الإسلامي ، د/ جمال عطية . د/ وهبة الزحيلي . دمشق ،

بيروت : دار الفكر ، دار الفكر المعاصر ط١ ، ٢٠٠٠ م .

[٧٥] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ابن قيم الجوزية . بيروت : دار إحياء العلوم .

[٧٦] وثائق الدورة العادية الحادية عشرة للمجلس الأوروبي للإفتاء ، تحميل من شبكة الإنترنت .

[٧٧] حكمة الدعوة رفاعي سرور . تحميل من موقع / منبر التوحيد والجهاد . الإنترنت .

[٧٨] تكوين العقل الحديث ، جون هرمان راندل . ترجمة جورج طعمة. بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٥ م .

[٧٩] الأقليات الدينية والحل الإسلامي ، د/ يوسف القرضاوي . سلسلة رسائل ترشيد الصحوة ٨ ، عمان : دار الفرقان للنشر والتوزيع .ط١ . ١٩٩٦ .

[٨٠] الجامع لأحكام القرآن ، الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

[٨١] مجدد الدين في القرن الثاني عشر ، د/ وهبة الزحيلي . تحميل من شبكة الإنترنت .

[٨٢] السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي برهان الدين الحلبي. بيروت. دار المعرفة . ط١ .

[٨٣] البداية والنهاية ، الحافظ بن كثير. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير . دار الكتب العلمية. بيروت لبنان . تحقيق د/ أحمد أبو ملحم . ود/ علي نجيب عطوى .والأستاذ/ علي عبد الستار. والأستاذ / فؤاد السيد .

[٨٤] القواعد الكبرى المسومى بقواعد الأحكام في إصلاح الأنام ، العز بن عبد السلام . دمشق : دار القلم ط١ ، ٢٠٠٠ م .

[٨٥] نحن والغرب .. أسئلة شائكة وأجوبة حاسمة ، د/ يوسف القرضاوي . دار التوزيع والنشر الإسلامية . ١٠ / ٢٠٠٦م .

[٨٦] مجموع فتاوي . شيخ الإسلام ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية . جمع وترتيب عبد الله بن محمد بن قاسم العاصمي وابنه محمد . الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ .

[٨٧] الاقتصاد في الاعتقاد ، الإمام أبو حامد الغزالي . تحميل الكتاب من على شبكة الإنترنت ، وطبعة مكتبة مدبولي . القاهرة .

[٨٨] الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٩٣ م .

[٨٩] من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي ، محمد أركون . ترجمة وتحقيق / هاشم صالح . دار الساعي للطباعة والنشر - ١ / ١ / ١٩٩٣ م .

[٩٠] الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ، د/ نصر حامد أبو زيد . مكتبة مدبولي . القاهرة ١٩٦٦م ط ٢ .

[٩١] مفهوم تجديد الدين ، بسطامي سعيد . دار الدعوة . ط ١، ١٩٨٤ م .

[٩٢] تاريخ الطبري . تاريخ الأمم والملوك ، الطبري . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ، بيروت . ١٩٦٧م / ١٣٨٧ هـ .

[٩٣] الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، ابن رضوان المالقي . دار الثقافة . الدار البيضاء . طبعة ١٩٨٤م .

[٩٤] المنهاج النبوي تربية وتنظيماً وزحفاً ، عبد السلام ياسين . ١٩٨٢ م . المرشد العام لجماعة العدل والإحسان . نسخة من الكمبيوتر





فهرس

فهرس

